قصص




حسن بلاسم

# معرض الجثث

مجنون ساحة الحرية

المسيح العراقي وقصص أخرى

حسن بلاسم




مجنون ساحة الحرية

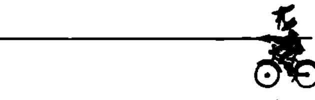
المسيح العراقي وقصص أخرى



# معرض الجثث

المؤلف: حسن بلاسم / عنوان الكتاب: معرض الجثث
الطبعة الأولى: ٢٠١٥.
لوحة الغلاف: رياض نعمة / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

**ISBN: 978-91-87373-71-8**



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / الحيدر خانة / محلة حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

# عن حسن بلاسم وقصصه

يمثل حسن بلاسم- قاصاً وشاعراً، وكاتب سيناريو- تياراً متميزاً في الأدب العربي. ذلك أن (واقعية) بلاسم مغايرة للسائد تماماً. قد تكون شبيهة بمشرط جرّاح يقوم بحزّ الجلد، والأنسجة الحيّة، وقطع أوعية الدم. إنها واقعية الاجتياز الفظّ للحياة، وحجب كل الأضواء الزائفة المسلطة على الإنسان ودراماه الرئيسية: الوجود في الزمكان.

منجزه (بلاسم) صار معروفاً ومقدَّراً بفضل قدراته السردية وخصوبة مخيلته الفنية. ولا يصعب إدراك مكانة قصصه كنتاج تعامل خاص يمارسه الاثنان- القاص والسينمائي رغم أن الأول تكون أداته اللغة، والثاني الكاميرا.

أخذ بلاسم بأكثر من صيغة جاءت بها فتوحات الأدب الحديث من قبل جيمس جويس وبعده، مما أثرى موقعه كقاص عربي، يملك مساره المتميز الذي يتعامل مع فن السرد كنسيج مدمّى، بل جسد لا ينقطع عن الإعلان التراجيدي بأنه الضحية الدائمة لعبثيات الزمكان البشري.

وفي خلقه الكتاب ذا البيولوجية المتفجرة لا يتجنب بلاسم صدم القارئ بالحقائق العارية. واضح أن سكّينه التي يشق بها دمامل الواقع العراقي وغيره تبدو ذات جمال آخر غير الذي اعتادت أجيال عربية على التعايش معه. وتذكّر قصصه بأن للجمال أكثر من تعريف واحد، وقد يأتي من أكثر من (قعر) بشري ووجودي. إنه جمال مستل من قبح وشراسة الحياة وسفالات التأريخ. وهاجس هذا الكاتب هو تجنب كل خداع للنفس والآخر. فمحن وإشكاليات الوجود، وكل هذا الظلام الذي يلف العقل حين يواجه ألغاز العالم لا يريد بلاسم تهميشها من أجل التمركز التقليدي في

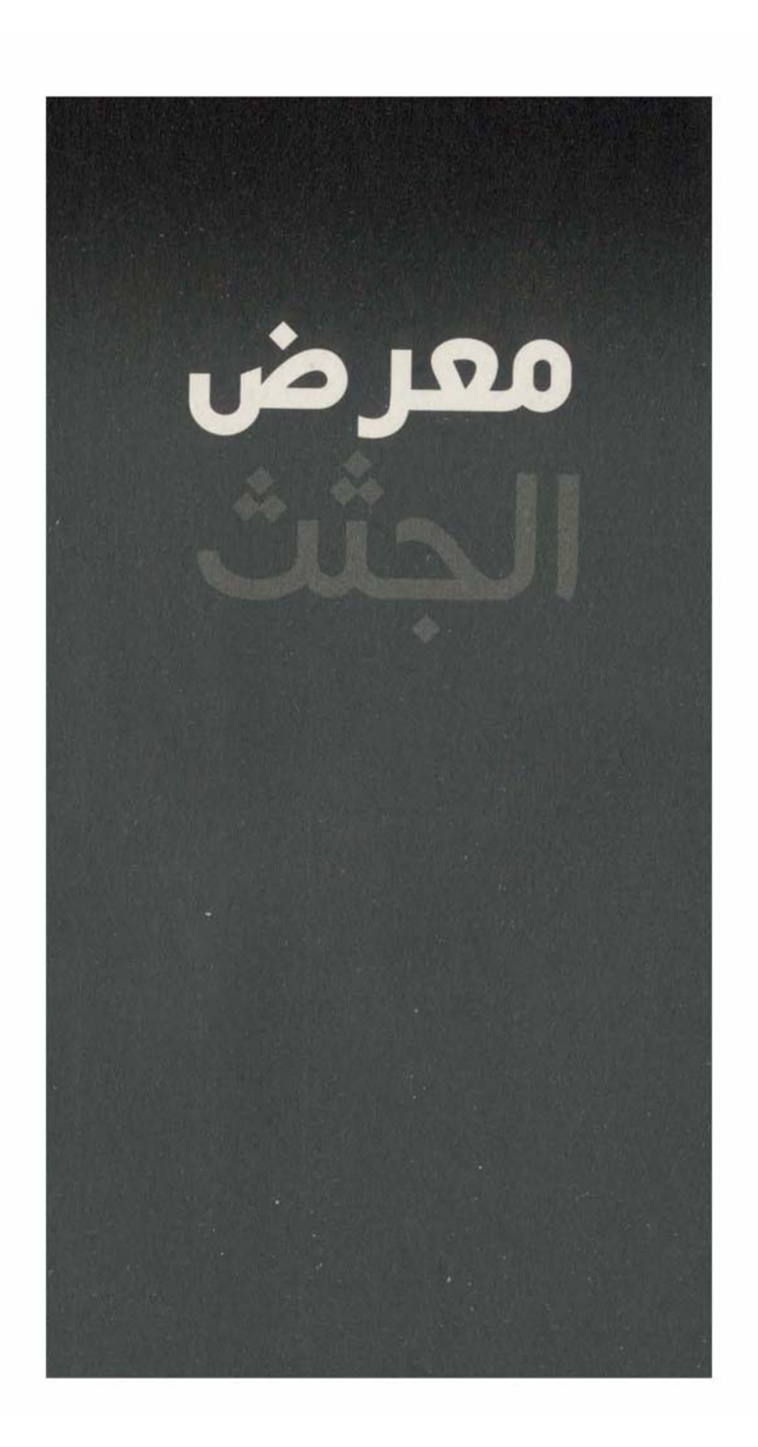
ممارسات الواقع المألوف. من ناحية أخرى يكون بلاسم ممثلاً نموذجياً لجيله الذي ألقوهُ في جبِّ أشرس واقع عرفه العراق المعاصر - عراق تلك الدكتاتورية الدموية. وحين يلتصق هذا الكاتب، حسّياً، بالواقع (المباشر) لا يعني هذا إلا إعادة اكتشاف مثل هذا الواقع، لكن من خلال المسك بواقع آخر – واقع الأنا التي دخلت تلك التجارب.

لحسن بلاسم أكثر من رباط وثيق بالجيل الحاضر، جيل فتوحات الإلكترونكا الانقلابية والعنيفة. ومن هنا وعيه بأن الأدب القديم فقد زخمه، ولا تصلح هويته لواقع اليوم.

وتبقى الكتابة عند بلاسم عملاً انفجارياً بسبب الحمى والرغبة العارمة في (تسوية الحساب) مع كل ما يشوّه الإنسان والحياة. ويستعين، هنا، بكل حوّاسه الخمس التي تمهد الطريق لمخيلة توقظها الدهشة والصدمة، عند التعامل مع واقع ملموس ضاغط بل ساحق. وتكشف قصص بلاسم عن أن (كاميراه) القصصية لا تفعل شيئاً سوى انتقاء صور وتداعيات وتيارات وعي تحدث (هنا والآن). أكيد أن هناك عراكاً آخر يخوضه هذا الكاتب: إذا كان سارتر قد وقف طويلاً عند الشرخ القائم بين الوجود والعدم، فهناك من اكتشف شرخاً آخر- القائم بين اللغة والواقع. وبلاسم يصارع الأولى والثانية إلا أنه يدير ظهره لشتى صنوف الرومانسية والغنائية وتلك العاطفية التي صارت لغة راسخة في أكثر من قطاع من قطاعات الأدب العربي. أما لغة بلاسم فهي تناطح الأخرى المعجمية التي يخشى دائماً من أن تقوم بلجم ما يريد التعبير عنه في قصصه.

ولا يرى حسن بلاسم في مآسي بلاده فصلاً مستقلاً عن مآسي الوجود الأخرى. فالتأريخ الأحدث للعراق بأنظمته وحروبه العبثية، يمضي مع المآسي الأخرى في المجرى ذاته لأحد أنهار هاديس الميثولوجية ...

**عدنان المبارك**


معرض
الجثث

# الأرشيف والواقع

لكل نزيلٍ في محطة استقبال اللاجئين حكايتان: واحدة واقعية وأخرى أرشيفية. الحكايات الأرشيفية هي الحكايات التي يرويها اللاجئون الجدد من أجل الحصول على حق اللجوء الإنساني. وتُدوّن هذه الحكايات في دائرة الهجرة وتحفظ في ملفات خاصة. أما الحكايات الواقعية فتبقى حبيسة في صدور اللاجئين ليعتاشوا على ذكراها بسرية تامة. لكن هذا لا يعني أنه يمكن التمييز بسهولة بين حدود الحكايتين، فقد تختلطان ويصبح التمييز بينهما مجرد محاولة عبثية. قبل يومين وصل لاجئ عراقي جديد إلى مدينة مالمو جنوب السويد. رجل نحيل في نهاية الثلاثين من العمر. أُدخل إلى محطة الاستقبال وأُجريت له بعض الفحوصات الطبية. ثم أعطوه غرفة وسريراً ومنشفةً وشرشفاً وصابونةً وملعقةً وشوكةً وسكيناً وقدراً لطبخ الطعام. يجلس الرجل اليوم أمام موظف دائرة الهجرة يروي حكايته بسرعة غريبة، بينما موظف الهجرة يطلب منه أن يبطئ السرد قدر المستطاع:

أخبروني أنهم باعوني إلى جماعة أخرى. كانوا فرحين جداً. ظلوا طوال الليل يشربون الويسكي ويضحكون. حتى أنهم دعوني لمشاركتهم الشرب. اعتذرت أنا وأخبرتهم بأنني رجل ملتزم بدينه. اشتروا لي ملابس جديدة وطبخوا لي في تلك الليلة دجاجة، وقدموا لي الفواكه والحلويات. يبدو أن ثمني كان جيداً. حتى أن قائد المجموعة سكب دموعاً حقيقية عند توديعي. عانقني مثل أخ: أنت رجل طيب للغاية... أتمنى لك كل الخير والموفقية في حياتك، قال الرجل الأعور.

أظنني بقيت مع الجماعة الأولى ثلاثة أشهر فقط. وكانوا قد اختطفوني

في تلك الليلة الباردة والمشؤومة. حدث ذلك في بداية شتاء ٢٠٠٦. تلقينا التعليمات بالتوجه إلى نهر دجلة. كانت هي المرة الأولى التي نتلقى فيها الأوامر مباشرة من مدير قسم الطوارئ في المستشفى. عند ضفة النهر كان رجال الشرطة يحيطون بست جثث من دون رؤوس، وكانت الرؤوس قد وضعت في شوال طحين فارغ أمام الجثث. خمن رجال الشرطة بأنها جثث رجال دين. كنا قد تأخرنا في الوصول بسبب الأمطار الشديدة. كدس رجال الشرطة الجثث في سيارة الإسعاف التي يقودها زميلي أبو سالم وحملت أنا إلى سيارتي شوال الرؤوس. كانت الشوارع خالية ولم يكن يخرق سكون ليل بغداد الموحش سوى أصوات رصاص في البعيد، وصوت طائرة مروحية أمريكية تدور فوق المنطقة الخضراء. انطلقنا عبر شارع أبي نؤاس باتجاه شارع الرشيد، سرنا بسرعة متوسطة بسبب الأمطار، ف(عند حمل جريح أو مريض يحتضر، تصبح سرعة سيارة الإسعاف الدليل على المسؤولية الإنسانية. أما حمل الرؤوس المقطوعة في سيارة إسعاف فلا يحتاج إلا إلى سرعة عربة موتى تجرها البغال في غابة مظلمة من القرون الوسطى (هذا ما كان يردده علينا مدير شعبة الطوارئ في المستشفى). وهو رجل كان يعتبر نفسه فيلسوفاً وفناناً، لكنه (ولد في البلد الخطأ) على حد قوله. مع ذلك كان يحترم عمله ويعتبره من الواجبات المقدسة. فإدارة قسم سيارات الإسعاف في شعبة الطوارئ تعني إدارة الخط الفاصل بين الحياة والموت نسبة له. ومن جانبنا كنا نطلق عليه: الأستاذ. أما الآخرون فكانوا يمقتونه وينعتونه بالمجنون. وأنا عرفت سبب المقت، فكلامه الغامض والعدائي جعله رجلاً معقداً في نظر الآخرين. غير أني كنت أكنّ له الكثير من الاحترام والمحبة بسبب حديثه الجميل والشيق. قال لي مرة:

إن الدم المسفوك والخرافة هما أصل العالم. أما الإنسان فهو ليس الكائن الوحيد الذي يقتل من أجل الخبز أو الحب أو السلطة، فالحيوانات في الغابة تفعل ذلك بشتى السبل، لكنه الوحيد الذي يقتل بسبب الإيمان. وغالباً ما كان يختم حديثه بجملة مسرحية وهو يشير بيده إلى

السماء: لا يمكن حل قضية الإنسان إلا بالرعب المتواصل. كان زميلي أبو سالم يأخذه الظن بأن الأستاذ على علاقة بالجماعات الإرهابية بسبب عنف كلامه. لكنني كنت أدافع بإخلاص عن الرجل الذي يجهلون أنه فيلسوف يأبى أن يطلق المُزَح السخيفة كما يفعل طوال النهار سائقو سيارات الإسعاف الحمقى. كنت أحفظ كل جملة وكلمة يقولها. فأنا كنت أسير محبته والإعجاب به.

أعود إلى تلك الليلة الملعونة عندما انعطفنا باتجاه جسر الشهداء. انتبهت إلى اختفاء سيارة الإسعاف التي يقودها أبو سالم، ثم لمحت في المرآة الجانبية سيارة شرطة مسرعة تلحق بي. ركنت السيارة بدوري على جانب الطريق وسط الجسر. ترجل من سيارة الشرطة أربعة شبان ملثمين يرتدون زي قوات الشرطة الخاصة. أمرني قائد المجموعة بالترجل من السيارة وهو يوجه مسدسه في وجهي. بينما أخذ رفاقه الآخرون بإنزال شوال الرؤوس من سيارة الإسعاف.

)لقد اختطفتُ وهم سيقطعون رأسي... (كان هذا أول ما فكرت به حين كبلوني وحشروني في صندوق سيارة الشرطة. احتجت إلى عشر دقائق فقط لإدراك حقيقة ما ينتظرني... قرأت آية الكرسي ثلاث مرات في ظلام الصندوق. شعرت بأن جلدي أخذ يتشقق. لا أدري لم فكرت في تلك اللحظات المظلمة في وزن جسمي. ربما 70 كيلو. كان رعبي يزداد كلما أبطأت سيارتهم أو انعطفت. وحين تعاود الانطلاق بسرعة، كان ينبض فيّ إحساس غامض هو مزيج من الطمأنينة والقلق. ربما فكرت حينها بحديث الأستاذ عن علاقة السرعة بالاحتضار. لم أفهم ما الذي كان يعنينه بالتحديد. كان يقول إن من يحتضر في غابة يشعر برعب أشد من الذي يحتضر داخل سيارة إسعاف مسرعة. لأن الأول يشعر بأن الزمن قد انفرد به، بينما يخيل للثاني بأن هناك من يتضامن معه. أكيد أنه وهم الهروب بعكس الاتجاه. اذكر أيضاً أنه أعلن مبتسماً: أتمنى احتضاراً داخل مركبة فضائية تسير بسرعة الضوء.

خُيّل إلي أن جميع الجثث المجهولة والمشوهة التي حملتها في سيارة الإسعاف منذ سقوط بغداد، كانت أمامي. ثم شاهدت الأستاذ في الظلام الذي يلفني حاملاً رأسي المقطوع من كومة نفايات، بينما يطلق زملائي مزحة داعرة عن حبي للأستاذ. أظن أن سيارة الشرطة لم تقطع مسافة طويلة قبل أن تتوقف عن السير. في كل الأحوال هم لم يخرجوا من المدينة. حاولت أن أتذكر سورة الرحمن، لكنهم أنزلوني وقادوني داخل بيت كانت تفوح منه رائحة السمك المشوي، ووصلني بكاء طفل. فكّوا الرباط عن عينيّ ووجدت نفسي في غرفة باردة وخالية من الأثاث. ثم انهال عليّ بالضرب المبرح ثلاثة أشخاص مجانين. وبعدها ساد الظلام من جديد.

خُيّل إليّ أنني سمعت صياح ديك أول الأمر. أغمضت عيني لكنني لم أتمكن من النوم. كنت أشعر بألم حاد في أذني اليسرى. انقلبت بصعوبة على ظهري وزحفت باتجاه الشباك الذي كان قد سُدّ بالطابوق حديثاً. كنت أشعر بعطش شديد. كان من السهل التكهُّنُ من أنني داخل أحد بيوت الأحياء البغدادية القديمة. كان الأمر واضحاً من طراز بناء الغرفة، خاصة من باب الخشب القديم. في الحقيقة لا أعرف ما الذي يُهمُّكم بالتحديد من تفاصيل قصتي كي أحصل على حق اللجوء في بلدكم. أنا أشعر بصعوبة بالغة في وصف أيام الرعب تلك. لكنني أريد أن أذكر بعض الأمور التي تهمني أيضاً. كنت أتصور أن الله ومن بعده الأستاذ لم يتخليا أبداً عني طوال محنتي. كان الله حاضراً بقوة في قلبي، يروي طمأنينتي ويدعوني إلى الصبر. وكان الأستاذ يشغل ذهني ويخفف عني وحشة الأسر. كان عزائي وسلوتي. كنت أفكر طوال تلك الأشهر العصيبة بما قاله الأستاذ عن صديقه المهندس داوود. ما الذي كان يعنيه بأن العالم موصولٌ بعضُهُ ببعضٍ. وأين قدرة الله ومشيئتُه في مثل هذه الأمور؟ شربنا الشاي في باب المستشفى عندما قال الأستاذ: حين كان صديقي داود يقود سيارة العائلة في شوارع بغداد، كان هنالك شاعر عراقي يكتب في لندن مقالاً نارياً في مديح المقاومة وعلى طاولته، زجاجة ويسكي

تعينه على قسوة القلب. ولأن العالم موصول بعضُهُ ببعض: بالأحاسيس، والكلمات، والكوابيس، وبواسطة شرايين سرية أخرى، فقد خرج من مقال الشاعر ثلاثة رجال ملثمين، وأوقفوا سيارة العائلة. قتلوا داود وزوجته وطفله وأباه. أما الأم فكانت بانتظارهم في البيت. أم داود لا تعرف الشاعر العراقي ولا الرجال الملثمين. أم داود تعرف طبخ السمك الذي كان ينتظرهم. نام الشاعر من شدة السكر فوق الكنبة في لندن. بينما برد سمك أم داود، وغابت الشمسُ في بغداد.

فُتحَ باب الغرفة الخشبي، ودخل شاب طويل شاحب الوجه، يحمل وجبة الفطور. ابتسم لي وهو يضع الطعام أمامي. ترددت أول الأمر بما يمكنني قوله أو فعله. ارتميت عند قدميه وتوسلت باكياً (أنا أب لثلاثة أطفال... أنا رجل مُتديّنٌ، وأخشى الله... لا علاقة لي بالسياسة ولا بالمذاهب... الله يستر عليكم... أنا مجرد سائقِ سيارة إسعاف... قبل السّقوط... وبعدَ السّقوط... أقسم بالله ونبيه الكريم) وضع الشاب أصبعه على شفتيه، وخرج منصرفاً. لقد شعرتُ أن نهايتي قد حلت. شربت قدح الشاي وقمت للصلاة عسى أن يغفر الله لي ذنوبي. في السّجدةِ الثانية شعرت بطبقة من الجليد تكتسح جسدي، وكدتُ أطلق صرخة جزع، غير أن الشاب فتح الباب. كان يحملُ جهازَ إضاءة صغير محمول على مسند، وبرفقته صبيٌّ يحملُ الكلاشنكوف. وقف المراهق إلى جانبي، وهو يصوب السلاح إلى رأسي، ولم يتحرك بعد ذلك من مكانه. دخل رجلٌ بَدينٌ في الأربعين من العمر. لم يلتفت لي. علّق على الحائط لافتة قماش سوداء كُتبت فيها آية قرآنية تحث المسلمين على الجهاد. ثم دخل شخص آخر ملثمٌ يحمل كاميرا فيديو وجهاز كمبيوتر صغير. دخل بعد ذلك صبيّ وهو يحملُ طاولةً خشبية صغيرة. داعبَهُ الرجلُ المُلثّمُ عاركاً أنفه وشكره، ثم وضع جهاز الكمبيوتر على الطاولة، وانشغل بتثبيت كاميراته بمواجهة اللافتة السوداء. جرّب الشاب النحيل تشغيل جهاز الإضاءة ثلاث مرات ثم انصرف.

صاح الرجل البدين: أبو جهاد... أبو جهاد.

أتى صوت الشاب من خارج الغرفة: فَدْ دقيقة.. عيني أبو أركان...

عاد الشاب هذه المرة وهو يحمل شوال الرؤوس الذي أخذوه من سيارة الإسعاف. سَدَّ الجميع أنوفهم بسبب عفونة الكيس. طلب الرجل البَدين مني أن أجلس أمام اللافتة السوداء، أحسست أن ساقيّ قد شُلّتا. لكن الرجل البدين سحبني من ياقة قميصي بعنف. عندها دخل رجل أعورٌ آخر، ضخم الجثة، وأمر البدين بأن يتركني لحالي، وكان هذا يحمل في يده بذلةً عسكرية. جلس الأعور قربي وهو يضع ذراعه حول كتفي مثل صديق، وطلب منّي أن أهدأ. أخبرني بأنهم لن يذبحوني إذا تعاونت معهم، وصرت طيب القلب. لم أفهم جيداً معنى (طيب القلب) هذه. أكّدَ لي بأن الأمر لن يستغرق سوى بضع دقائق. أخرج الأعور من جيبه ورقةً صغيرةً وطَلبَ منّي أن أقرأها. بينما قام الرجلُ البدينُ بإخراج الرؤوس المُتعفنة وقام بِصفِّها أمامي. كان مكتوباً في الورقة بأنني ضابط في الجيش العراقي وأن هذه الرؤوس هي لضُبّاط آخرين، وكنت قد قمت برفقة زملائي الضباط بمداهمة البيوت واغتصابِ النساء وتعذيب المواطنين الأبرياء، وكنا نتلقى الأوامر بالقتل من ضابط كبير في الجيش الأمريكي، مقابل مكافآت مالية كبيرة. طلب مني الأعور أن أرتدي البذلة العسكرية. أمر المصور الجميع أن ينسحبوا إلى خلف الكاميرا. ثم تقدم مني وأخذ يُعدِّلُ رأسي مثلما يفعل الحلاق. بعدها عدّل صفَّ الرؤوس. ثم عاد خلف كاميراته وصاح:

تفضل!!

كان صوت المصور من أكثر الأصوات ألفة على أذني. ربما كان يشبه صوت ممثل شهير. أو كأنه صوت الأستاذ حين يجهد نفسه في التحدث بهدوء مصطنع. بعد تصوير شريط الفيديو، لم ألتق بأفراد الجماعة أبداً، عدا الشاب الذي كان يجلب لي الطعام. وكان هذا يمنعني من طرح أي سؤال. وفي كل مرة يأتي لي بالطعام يُلقي عليَّ مزحة جديدة عن السّاسة

ورجال الدين. كانت أمنيتي الوحيدة أن يسمحوا لي بالاتصال بزوجتي. كنت اخبأ بعض النقود لليوم الأسود في مكان لا يخطر على بال الجنّ نفسه. لكنهم رفضوا ذلك بشدة. أخبرني قائد المجموعة الأعور أن كل شيء يتوقف على نجاح شريط الفيديو. وقد تحقق ذلك فعلاً بسرعة كبيرة أدهشت الجميع. لقد عرضت قناة الجزيرة شريط الفيديو. سمحوا لي بمشاهدة التلفزيون، وكانوا يَنطّون يومها من الفرح. حتى أن الرجل البدين قبّلني من رأسي، وقال إنني مُمثل عظيم. وقد أثار غضبي مقدم الأخبار في قناة الجزيرة الذي أكد للمشاهدين بأن القناة تأكدت عبر مصادرها الموثوقة من صحة الشريط، وبأن وزارة الدفاع اعترفت باختفاء الضباط. بعد نجاح عرض الشريط، أخذوا يعاملونني بطريقة كانت أكثر من جيدة. اعتنوا بطعامي وفراش نومي، وسمحوا لي بالاستحمام، حتى تُوِّجَ تكريمي في الليلة التي باعوني فيها للجماعة الثانية. دخل الغرفة ثلاثةُ رجال ملثمين من تلك الجماعة، وبعد أن ودّعني الأعورُ بحرارة، انهال عليّ الرجال الجدد بالضرب ثم كبلوني وكمموا فمي، وحشروني داخل صندوق سيارة، انطلقت بسرعة مرعبة.

قطعت سيارة الجماعة الثانية مسافة طويلة هذه المرة. ربما وصلنا أطراف بغداد. فقد أنزلوني في قرية موحشةٍ تسرح فيها الكلاب وتعوي في كل مكان. حبسوني في زريبةِ أبقار. وكان هناك رجلان يتبادلان حراسة الزريبة ليل نهار. لا أعرفُ لِمَ عمدوا إلى تجويعي وإذلالي. كانوا يختلفون تماماً عن الجماعة الأولى. وكانوا مُلثّمين طوال الوقت، ولم يتكلموا معي البتّة. وكانوا يتفاهمون فيما بينهم بالإشارات. بل لم يكن هناك أي صوت بشري يسمع من القرية سوى نباح الكلاب طوال الشهر الذي قضيتُهُ في الزريبة. كانت الساعات تمر ثقيلة ومُضجرة. كنت أتمنى أن يحدث أيٍّ شيء، بدل هذا السجن المؤبد مع ثلاث بقرات. توقفت عن التفكير بهؤلاء الناس، وإلى أي طائفة أو حزب ينتمون، ولم أعد أندبُ حظي. كنت أشعر بأنني قد عشت ما يحدث لي في زمنٍ ما، وأنّ هذا الزمن مجردُ برهةٍ لن

تدوم طويلاً. لكن الإحساس بهذا الزمن هو الذي يصطنعُ البطء والدُّوار. لم تعد تخطرُ ببالي محاولة الهرب، أو سؤالُهم عمّا يريدون مني. لقد شعرت أنني أقوم بمهمّةٍ ما. واجبٌ قسريٌّ علي أن أؤديه حتى النَّفَس الأخير. ربما هناك قوة خفية تكاتفت مع قوة بشرية للقيام بلعبة سرية أهدافها أكبر من أن يتخيلها رجل بسيط مثلي )لكل إنسان واجب شعري وآخر إنساني) كان الأستاذ يقول. لكن إن كان ذلك صحيحاً كيف لي أن أميز، وهكذا بسهولة، بين حدود الواجب الإنساني والآخر الشعري؟ فأنا أفهم مثلاً إن العناية بزوجتي وأطفالي هي من الواجبات الإنسانية. وإن رفض الكراهية هي من الواجبات الشعرية. لكن لِمَ كان الأستاذ يقول إننا نخلط بين الواجبين ولا نعترف بالشق الشيطاني الذي يوجه كلا الواجبين. فالواجبات الشيطانية هي القدرة على الوقوف في وجه الإنسان حين يوّجه إنسانيته، أو حتى الشعر المتطرف، صوب الهاوية. وكان هذا كثيراً جداً على عقل رجل بسيط مثلي، أكمل دراسته المتوسطة بمشقة كبيرة. على كل حال، أظن إن ما أقوله لا علاقة له بطلب اللجوء. فما يهمكم هو الفزع. ولو كان الأستاذ حاضراً، لقال بأن الفزع يكمن في أبسط الألغاز التي تلمع في نجمة باردة من سماء هذه المدينة. أخيراً دخلوا الزريبة بعد منتصف الليل. قام أحد الملثمين بفرش زاوية من الزريبة بالسجاد الفاخر. ثم قام زميله بتعليق لافتة سوداء مكتوب عليها: جماعة الجهاد الإسلامي فرع العراق. بعد ذلك دخل المصور مع كاميرته، وقد بدا لي أنه مصور الجماعة الأولى نفسه. كانت حركات يديه شبيهة بحركات المصور الأول. الفارق الوحيد أنه يتفاهم الآن مثل الآخرين بالإشارات. طلبوا مني أن أرتدي دشداشةً بيضاء، وأجلس أمام اللافتة السوداء. قدّموا لي ورقةً، وأمروني أن أقرأ ما فيها، أي أنني أنتمي إلى جيش المهدي، وأنني ذبّاحٌ شهير، وقمت بفصل مئات الرؤوس من رجال السنة، وبأننا نتلقى المساعدات من إيران. وقبل أن أنهي القراءة، صدر عن إحدى البقرات خوار عال، طلب المصور إثره أن أعيد القراءة. أخرج أحد الرجال، البقرات الثلاثة، كي نكمل تصوير مشهد الزريبة.

أدركت فيما بعد أن جميع الذين اشتروني، كانوا ينقلونني عبر الجسر

نفسه. ولا أعرف السبب. جماعة تعبر بي من جسر الشهداء صوب الكرخ، ثم الجماعة التالية تعود بي عبر الجسر نفسه إلى الرصافة. أظن أن قصتي لن تنتهي بهذه الطريقة. وأخشى أن تقولوا كما قال الآخرون عن حكايتي. يبدو لي من الأفضل أن اختزل لكم الحكاية بدلاً من أن تتهموني باختلاقها: باعوني إلى جماعة ثالثة. عبرت السيارة بسرعة جسر الشهداء مرة أخرى. نقلت إلى بيت فاحش الثراء. فقد كان سجني هذه المرة في غرفة نوم مزودة بسرير مريح، وجميل، من تلك التي نشاهد أبطال الأفلام يمارسون الجنس فيها... وتبخر الخوف من نفسي، وصرت أفقه فكرة الواجب الخفي الذي اختاروني له، وأنا قمت به لئلّا اخسر رأسي. لكنني فكرت أيضاً بأن أختبر رد فعلهم في بعض الأمور. فبعد تصوير فيديو جديد أتحدث فيه عن انتمائي إلى الجماعات الإسلامية السنية، وعن عملي في تفجير مساجد الشيعة وأسواقهم الشعبية، طالبتهم ببعض النقود لقاء تصوير الشريط هذا. كان جوابهم الحاسم، ضرباً لن أنساه. طوال عام ونصف من رحلة اختطافي، تنقلت من وكر إلى آخر. صوروا لي أشرطة فيديو أتحدث فيها عن انتمائي إلى الأكراد الخونة، والمسيحيين الكفار، وإرهابيي السعودية، والمخابرات السورية البعثية، وإلى حرس ثورة إيران المجوسية. في هذه الأشرطة قتلت، واغتصبت، وأحرقت، وفجرت، وقمت بجرائم لا يتصورها عاقل. جميع أشرطة الفيديو هذه عرضتها فضائيات العالم، وجلس خبراء وصحفيون وساسة ينقاشون ما قلتُه وفعلتُه. أما الحظ السيئ الوحيد الذي صادفنا، كان عند تصوير الفيديو الذي أظهرُ فيه كجندي أسباني يسلط أحد رجال المقاومة سكيناً على رأسه، ويطلب من القوات الاسبانية الانسحاب من العراق. لقد رَفضَتْ جميع المحطات الفضائية بث الشريط. فالقوات الإسبانية كانت قد غادرت البلاد قبلها بعام. وكدت أدفع ثمناً باهظاً على هذه الغلطة، فتلك الجماعة أرادت ذبحي انتقاماً لما حدث. لكن من أنقذني كان المصور الذي اقترح عليهم فكرة رائعة أخرى، كانت النهاية لأدواري الفيديوية:

ألبسوني زياً للمقاتلين الأفغان، وشذبوا لحيتي، ثم وضعوا على رأسي

عمامة سوداء. وقف خلفي خمسة. وجاءوا بستة رجال يصرخون ويستغيثون بالله، ونبيه، وآل بيته، ذبحوهم أمامي مثل الخراف، وأنا أعلن بأني الزعيم الجديد لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، كما هددت الجميع من دون استثناء.

في ساعة متأخرة من الليل. جلب لي المصور ثيابي القديمة ثم قادني إلى سيارة الإسعاف الواقفة أمام الباب. وضعوا تلك الرؤوس الستة في شوال ألقوه في السيارة. في تلك اللحظات راقبت حركات مصور الفيديو، وأيقنت من أنه مصور الجماعات كلها، وقد يكون الرأس المدبر لهذه اللعبة الرهيبة. جلست خلف مقود سيارة الإسعاف بيدين مرتجفتين. ثم أصدر المصور الأمر من خلف لثامه:

أنت تعرف الطريق... عبر جسر الشهداء... إلى المستشفى...

أنا أطلب اللجوء في بلدكم بسبب الجميع. كلهم قتلة ومتآمرون: زوجتي، وأولادي، وجيراني، وزملائي، والله، ونبيه، والحكومة، والصحف، وحتى الأستاذ الذي كنت أعتبره ملاكاً، وعندي شكوك بأن مصور الجماعات الإرهابية كان الأستاذ بعينه. لم يكن كلامه الغامض سوى دليل على تواطئه وقذارته. لقد قالوا جميعاً إن غيابي عن العمل لم يستغرق عاماً ونصف، فقد عدت في الصباح من عملي في تلك الليلة الماطرة. والأستاذ الشرير قال في ذاك الصباح: العالم مجرد حكاية دموية افتراضية، ونحن كلنا قتلة وأبطال. وهذه الرؤوس الستة لا يمكنها أن تكون الدليل على ما تقول، كما ليست بالدليل على أن الليل لن يخيم في المساء.

بعد ثلاثة أيام من تدوين هذه الحكاية في أرشيف دائرة الهجرة، أدخلوا صاحبها إلى مستشفى الأمراض النفسية. وقبل أن يهم الطبيب بسؤاله عن بعض ذكريات طفولته، لخص سائق سيارة الإسعاف حكايته الواقعية هذه المرة بكلمتين:

- أريد النوم.

قالها بتوسل ومذلة...

# شاحنة برلين

هذه القصة حدثت في الظلام. ولو قدر لي أن أكتبها مرة أخرى، لكتبت ما أطلقت حينها من صيحات فزع فقط، وما أطلقته من تلك الأصوات الأخرى الغامضة التي رافقت المجزرة. يصلح قسم مهم من هذه القصة لعمل إذاعي تجريبي. ومن المؤكد أن غالبية القراء ترى القصة مجرد تلفيق قام به كاتب قصصي، أو قد تكون مجازاً متواضعاً عن الرعب. لكنني لا أجد نفسي بحاجة إلى أن أقسم لكم كي تصدقوا غرابة هذا العالم. إن حاجتي هي كتابة هذه القصة، كلطخة خراء في قمصان النوم، وربما لطخة على شكل زهرة برية.

في صيف العام ٢٠٠٠، كنت أعمل في بار وسط اسطنبول. أعانتني هناك لغتي الإنكليزية الركيكة، فزبائن البار كانوا من السياح، وأغلبهم من الألمان الذين كانوا يتحدثون إنكليزية مضحكة أيضاً. كنت هارباً حينها من جحيم سنوات الحصار الاقتصادي. لا خوفاً من الجوع، ولا من الديكتاتور، بل كنت هارباً من نفسي. ومن وحوشٍ أخرى. كان الخوف من المجهول في تلك السنوات القاسية يضاعف من طمس هوية الانتماء إلى الواقع المألوف، ويدفع إلى السطح بوحشية كانت مطمورة تحت حاجات الإنسان اليومية البسيطة. في تلك السنوات شاعت قسوة حيوانية دنيئة، سببها الخوف من الموت جوعاً. كنت أشعر بأنني مهدد بالتحول إلى فأر.

جمعت نقوداً من ذلك العمل، ودفعتها لمُهرِّبي مواشي الشرق البشرية، إلى مزارع الغرب. كانت هناك طرق للتهريب تختلف أسعارها: سفر جوي بجواز مزور، إلا أنها تكلف كثيراً. هناك المشي مع المهرب عبر

غابات وأنهار الحدود، وهذه أرخصها. هناك طريق البحر، وطريق الشاحنات الذي كنت قد فكرت فيه. رغم أنني كنت قلقاً بسبب حكاية الجهاز الذي تستخدمه الشرطة في قياس ثاني أوكسيد الكربون في الشاحنات، لكشف أنفاس من يختبئون فيها. لكن ليس هذا الجهاز ما دفعني إلى التخلي عن فكرة العبور بالشاحنة، بل حكاية علي الأفغاني، ومجزرة شاحنة برلين. كان الأفغاني كنزاً من كنوز حكايات التهريب. سكن عشر سنواتٍ في اسطنبول بصورة غير قانونية. عمل في التزوير، وبيع المخدرات، لينفق ما يجمعه على العاهرات الروسيات، ورشوة الشرطة. بعضهم سخر مني لتصديقي حكاية شاحنة برلين. في الحقيقة لدي أكثر من دافع إلى تصديق مثل هذه الحكايات. فالعالم بالنسبة لي هشّ جداً، ومخيف ولا إنساني، وهو لا يحتاج إلا إلى رجة صغيرة ليخرج فظاعاته، وأنيابه البدائية. بالطبع، أنتم تعرفون قصصاً تراجيدية كثيرة، عن مثل هذه الهجرة، ورعبها من وسائل الإعلام التي تركز قبل كل شيء على غرق المهاجرين. وأنا أجد أن مثل هذا الغرق الجماعي هو مشهد سينمائي ممتع، شبيه بتايتانيك جديدة لدى الجمهور.

مثلاً لا ينقل الإعلام أخبار قصص الكوميديا السوداء، ومثلما لا تصلكم أخبار ما تفعله الجيوش الأوربية الديمقراطية حين تمسك ليلاً، في غابة عملاقة، مجموعة من البشر المذعورين، والمنقوعين بالمطر والجوع والبرد. شاهدت كيف ضرب جنود بلغار شاباً باكستانياً بالمسحاة حتى فقد وعيه. ثم طلبوا منا جميعاً أن ننزل في ذاك الزمهرير إلى نهر شبه متجمد. حصل هذا قبل أن يسلمونا إلى الجيش التركي.

يقول علي الأفغاني إنهم كانوا خمسة وثلاثين شاباً عراقياً. شبان حالمون اتفقوا مع مهرب تركي لنقلهم بشاحنة مغلقة لتصدير الفواكه المعلبة من اسطنبول حتى برلين. كان الاتفاق بهذه الصورة: يدفع كل واحد أربعة آلاف دولار، على رحلة أَمَدُها سبعة أيام فقط. والشاحنة تسير في الليل، وتتوقف في النهار عند مدن حدودية صغيرة. وكل من يريد أن

يتغوط عليه أن يفعل ذلك في النهار، أما التبول فمسموح به أثناء الليل داخل الشاحنة في قناني الماء الفارغة. ممنوع حمل أي هاتف خلوي أثناء الرحلة. على الجميع أن يلتزم الهدوء، وأن يكتم أنفاسه أثناء التوقف في نقطة حدودية، أو إشارة مرورية، وأن لا يحصل أبداً أي شجار. لكن ما كان يقلق مجموعة شاحنة برلين الحكاية التي نشرتها قبل أيام، الصحف التركية، حول مجموعة من الأفغان الذي دفعوا لمهرب إيراني، مبالغ كبيرة لنقلهم في شاحنة، إلى اليونان. سارت الشاحنة بهم ليلة بكاملها. وقبل بزوغ الفجر توقفت الشاحنة، وأمرهم المهرب بالنزول بهدوء، وأعلمهم أنهم قد وصلوا إلى مدينة يونانية حدودية. نزل الأفغان وهم يحضنون حقائبهم بأحاسيس هي مزيج من الفرح والخوف، وجلسوا تحت شجرة عملاقة. قال المهرب إنها غابة يونانية صغيرة، وكل ما عليهم الانتظار حتى الصباح، وحين تصل الشرطة اليونانية، عليهم أن يتقدموا فوراً بطلب اللجوء. في الصباح نشرت الصحف صورة الأفغان الجالسين في حديقة عامة وسط اسطنبول. لقد دارت بهم الشاحنة طوال الليل في شوارع اسطنبول، ولم تخرج حتى إلى ضواحي المدينة. ومثل جميع قصص النصب والاحتيال، اختفى المهرب وشاحنته، وزُجّ الأفغان في سجن الترحيل.

لكن جماعة شاحنة برلين، لم يكن أمامها خيار آخر سوى المغامرة. فالخوف من حكايات النصب، يعني الشلل، وضياع الأمل، والعودة إلى بلد يخنقه الجوع والظلم. ثم إنهم اعتمدوا على سمعة المهرب الشهير. قالوا لهم إنه أفضل المهربين في تركيا كلها، وأشدهم نزاهة. ولغايتها لم يلق الفشل كما لم يخدع أحداً. إنه رجل ملتزم بدينه، وحج ثلاث مرات، لهذا كانوا يلقبونه بالحاج إبراهيم.

انطلقت شاحنة الحاج إبراهيم من اسطنبول ليلاً، بعد أن تزود (الزبائن) بقناني الماء والطعام. كان الظلام والحر شديدين داخل الشاحنة، وكان الهواء يتسرب إلى الداخل من ثقوب صغيرة غير مرئية. كان الخوف من نفاد الهواء، يدفع الشبان للتنفس بسرعة، مثل من يستعد للغطس في

نهر. بعد خمس ساعات من سير الشاحنة، كانت رائحة الأجساد والجوارب المتعفنة والطعام المتبل الذي كان يلتهمونه في الظلام، تضاعف الاختناق. لكن الليلة الأولى كانت ناجحة. في الصباح توقفت الشاحنة في مرآب قرية حدودية، وفتح باب الشاحنة الخلفي، تنفس الزبائن وتجدد الأمل في صدورهم. كان المرآب عبارة عن زريبة سابقة. وأشرف على عملية التغوط شابان. لم يكن مسموحاً حتى النزول من الشاحنة إلى الزريبة، ولا السؤال عن مكان القرية وفي أي بلد هي. أحد الشابين يأخذهم حسب الدور، إلى مرحاض صغير، وقذر للغاية، في زاوية الزريبة. وكان الآخر يشتري لهم الماء أو الطعام، ويعود في آخر النهار.

في الليلة الثانية، كانت ثمة سيارة مرسيدس، تسير على مسافة بعيدة من شاحنة برلين، لتأمين الطريق، وتزويد سائق الشاحنة بالمعلومات. سارت شاحنة برلين طوال الليلة الثانية بسلام، ولم تتوقف إلا ثلاث مرات لوقت بالغ القصر. في النهار أدخلوهم هذه المرة مرآباً كبيراً، به شاحنات أخرى. وكان سهلاً سماع ضوضاء المدينة.

ثمة سيارة جيب عسكرية، سارت أمام الشاحنة في الليلة الثالثة لتأمين الطريق. لم تقطع شاحنة برلين في رحلتها الليلية هذه المرة، سوى خمس ساعات، فقد توقفت فجأة، واستدارت، ثم عادت أدراجها بسرعة جنونية. انقبضت قلوب الشبان في ظلام الشاحنة، وأحسوا بارتباك سائق الشاحنة من خلال قيادته الجنونية. أخذوا يهمهمون، وقرأ بعضهم الأدعيات، والآيات القرآنية في سره، أو بصوت خافت. كان ثمة شاب صغير أخذ يعيد قراءة آية الكرسي بصوت مسموع، كان صوته جميلاً، خدشته نبرة بكاء، وضاعف من هلع المسافرين. سارت الشاحنة بتلك السرعة ما يقارب الساعة، ثم عادت وتوقفت من جديد. بعدها بربع ساعة استؤنفت الرحلة بسرعة متوسطة، لكن اتجاه السير التبس على الشبان الذين انقسموا بين مؤيد لفكرة أن الشاحنة تعود أدراجها، وبين من يعتقد أنها تواصل الرحلة. كان الشبان على اعتقاد بأن مافيات التهريب هي التي توجه سائق الشاحنة،

عبر الهاتف الخلوي، حسب ظروف الطريق ومخاطره، مثل دوريات الشرطة. شعر الركاب أن الشاحنة أخذت تسير على طريق ترابي متعرج. توقفت الشاحنة فجأة، وأطفأ السائق محرك السيارة، وعم صمت مريب وغامض، داخل شاحنة برلين. صمت شيطاني سيفرخ معجزة وحكاية لا تصدق.

انتظر الشبان الخمسة والثلاثون أكثر من ثلاث ساعات في ظلام الشاحنة. كانوا يتهامسون عما حدث. أراد بعضهم التلصص من خلال الثقوب البالغة الصغر قرب باب الشاحنة الخلفي. كانت ساعاتهم اليدوية تشير إلى السابعة وعشرة دقائق صباحاً. وكان وقت التزود بالماء، فمازال هناك ما يكفي من الطعام، لكن الماء ينفد بسرعة، ثم أن هناك الحاجة إلى التغوط. وهكذا بدأ التذمر. أخذ بعضهم بركل جدران الشاحنة، ومناداة من كان خارج الشاحنة. اعترض ثلاثة شبان وطلبوا من البقية الهدوء. كانت رائحة شجار عالقة في ذاك الهواء الشحيح والمكهرب. كان يتحادثون حسب مصدر الصوت. ويرى بعضهم بعضاً مجرد ظلال داكنة. وعند منتصف النهار كان الجميع تقريباً يطرق على جدران الشاحنة وبابها الخلفي، وهم ينادون ويستغيثون. كان هناك من تَغوَّطَ في أكياس الطعام. وكانت الرائحة الفظيعة تتراكم داخل الشاحنة مثل طبقات من الحجر، وتشبه أنفاس الشبان مجتمعة، كأن وحشاً يتنفس بصخب في الظلام. وهزمت الرائحة والخوف أعصاب الجميع. فقد نشب شجار وعراك بالأيدي في الظلام، ثم توسعت دائرة هذا العراك. وبعدها بساعة واحدة هدأت الحال. فالعطش أعاد الهدوء. وجلسوا يتهامسون ويتكهنون بأصوات خفيضة وكأنهم خلية من النحل. وبين حين وآخر كان أحدهم يطلق شتيمة، أو يركل جدران الشاحنة. كان أغلب الشبان يحرص في تلك اللحظات على أن يخبأ ما تبقى له من طعام وماء في داخل الحقائب، رغم الظلام الأسود الذي لم يُميّز فيه الوجه عن القدم، قام هذا وذاك بأفعال لا يمليها ما كان يحدث: واحد أخذ يربط حذاءه، وآخر نزع ساعته اليدوية، وخبأها في جيبه، وثالث غيّر قميصه في مثل ذلك الظلام. هكذا هي مخيلة الإنسان. تنشط بغرابة في مثل هذه المواقف متحولة إلى جرس إنذار، وحبوب مهلوسة.

في نهار اليوم التالي كانت هناك فوضى عارمة. أراد شبان صغار فيهم ما يكفي من الطاقة للتشبث بالحياة، كسر باب الشاحنة، وآخرون استمروا بالصراخ، والطرق على الجدران. أحدهم توسل واستغاث من أجل جرعة ماء. أصوات ضراط وشتائم. آيات قرآنية، وأدعية قرأوها بصوت عال. بعضهم أصابه اليأس، وجلس يفكر في حياته مثل مريض يحتضر. أما الروائح فكانت لا تطاق، وكفيلة بإبادة أكثر من سرب واحد من الطيور التي كانت تحلق فوق رؤوسهم.

أنا لا أكتب الآن عن تلك الأصوات والروائح التي أطلقت واختفت في دروب الهجرة السرية، بل عن تلك الصرخة المدوِّية الوحشية التي دوّت بغتةً في الفوضى. بدت كأنها قوة مجهولة جعلت من صخب الشاحنة وفوضاها طبقة قاسية من الجليد. خيّم صمت كثيف لزج يسمح لك بسماع دقات قلب كل مسافر، كانت صرخة خارجة من كهوف لم تفك أسرارها. بعد سماعهم الصرخة أرادوا تخيّل مصدر هذا الصوت اللا إنساني، كما اللا حيواني، والذي زلزل ظلام الشاحنة.

أخذت الشاحنة تهتز بعنف وهي في مكانها. تعالى الصراخ والرعب من جديد. بدوا أفواهاً لعملاق شبت به النار. نعم، بدت أصوات الاستغاثة والوجع تلك مثل حمم البراكين هذه المرة. بدا الأمر كأن قسوة الإنسان والحيوان ووحوش الحكايات الخرافية قد تكثفتْ، وأخذت تعزف لحناً جحيمياً مشتركاً.

عثرت الشرطة الصربية بعد أربعة أيام على الشاحنة عند أطراف مدينة حدودية صغيرة تحيط بها الغابات من كل الجهات. كانت الشاحنة داخل حقل مهجور للدواجن. ليس مهماً الآن ما حدث للمهربين. فهذه قصص متشابهة. ربما علم المهربون بمراقبة الشرطة لتحركاتهم وأرادوا الاختباء لبضعة أيام، أو لسبب تافهٍ آخر له علاقة بخلافات بين مافيايات التهريب حول النقود.

حين فتح رجال الشرطة الباب الخلفي للشاحنة، نط شاب ملطخ بالدماء من داخل الشاحنة، وركض كالمجنون صوب الغابة. طاردته الشرطة. لكنه توارى في تلك الغابة العملاقة. في الشاحنة كانت هناك أربعة وثلاثون جثة. لم تمزقها السكاكين، أو أي سلاح آخر، بل كانت أجساداً عملت بها مخالب ومناقير نسور وأنياب تماسيح وأدوات مجهولة أخرى. كانت الشاحنة مليئة بالخراء والبول والدم والأكباد الممزقة، والعيون المقلوعة، والأحشاء، تماماً كما لو أن ذئاباً جائعة كانت هناك. تحول أربعة وثلاثون شاباً إلى عجينة كبيرة من اللحم والدم والخراء.

يانكوفتش الشرطي الصربي العجوز لم يصدق أحد روايته، بل سخروا منه. ولم يدعم شهادته من كان معه. بل اتفقوا معه فيما يخصُّ ذاك الشاب الملطخ بالدماء والذي هرب إلى الغابة... وكانت الصحف الصربية قد تساءلت عن أسباب اختفاء الشاب، لكن الشرطة ادعت بأنه عبر الحدود إلى هنغاريا.

في السرير يقول يانكوفيتش لزوجته وهو ينظر إلى السقف: لست مجنوناً يا امرأة... أقول لك للمرة الألف... ما أن دخل الشاب إلى الغابة حتى أخذ يعدو على أربع، ثم تحول إلى ذئب رمادي قبل أن يختفي فيها...

# جريدة عسكرية

إلى قتلى الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠.١٩٨٨)

سنذهب إلى المقبرة، إلى مشرحة الموتى. نستأذن حراس الماضي. سنخرج الميت عارياً إلى الحديقة العامة. نجلسه على المصطبة، تحت شمس برتقالية ناضجة. سنحاول تثبيت رأسه. حشرة أو ذبابة تطنّ حوله. مع أن الذباب يطنُّ على الأحياء والأموات بقسمة عادلة. سنتوسل إليه أن يعيد علينا الحكاية. لا حاجة لرفسه تحت خصيتيه كي يروي بصدق ونزاهة. فالأموات نزيهون في العادة، حتى الأوغاد منهم.

... ... ... ..

شكرا عزيزي (الكاتب) على إبعاد الذبابة من على أنفي وإتاحة هذه الفرصة المشمسة!

أختلف معك فقط في محاولة تخويف القرّاء مني وأنت تصفني بالوغد. دعهم يحكمون بأنفسهم أرجوك، ولا تتحول أنت الآخر إلى كلب مسعور. هنيئاً لك الحياة! فقط لا تتدخل في جوهر الحيوان الذي أنت من فصيلته.

سيّدي القاضي: قبل عشرة أعوام، أي قبل أن أنهي حياتي، كنت أعمل في جريدة عسكرية. أشرف على الصفحة الثقافية التي كانت تهتم بقصص وقصائد الحرب. وكنت أعيش حياة آمنة. لديّ ابنةٌ صغيرةٌ وزوجة وفيّة تُجيد الطبخ، وقد وافقت أخيراً على لعق زبّي قبل كل مضاجعة. وكنت أحصل من عملي في الجريدة على العديد من المكافآت والهدايا، والتي كانت قيمتها تفوق بكثير راتبي الشهري. وبشهادة رئيس تحرير الجريدة،

أكون أنا العبقري الوحيد الذي تمكن من إحياء الصفحة الثقافية بمخيلة قتالية لا تكلّ ولا تملّ. حتى إنني حصلت على تكريم ورعاية خاصة من وزير الثقافة نفسه، ووعدني الوزير سراً بالتخلص من رئيس التحرير وتعييني مكانه. لم أكن عبقرياً إلى هذا الحد ولا حتى وغداً كما يريد أن يصفني كاتب هذه القصة. كنت رجلاً مثابراً وطموحاً، أحلم بالوصول إلى منصب وزير الثقافة لا أكثر. لهذا كنت منكباً في تلك الأيام على عملي بشرف، وكان عرق جبيني يتصبّب وأنا أراجع وأدقق وأصمم صفحتي الثقافية مثل خبّازٍ صبور. كلا سيدي القاضي، لم أكن رقيباً على النصوص كما ستتخيل. فالكتّاب الجنود كانوا أشدَّ صرامةً وانضباطاً من أي رقيب عرفته في حياتي. كانوا يدققون في كل كلمة ويفحصون حروفها بعدسات مكبرة، فهم ليسوا حمقى إلى هذا الحد ليرسلوا كلمات متباكية أو جمل من العواء والصراخ. كان بعضهم يكتب من أجل ألّا يصدق أنه سيقتل وأن الحرب مجرد قصة حماسية في جريدة. والبعض الآخر كان يبحث عن بعض المنافع المادية والمعنوية. وهناك كتاب أُجبِروا على ذلك. وكل هذا لا يعنيني، وأنا في هذه اللحظة غير نادم ولا حتى خائف؛ فالميت سيدي القاضي لا يتألم على جرائمه ولا يشتاق إلى سعادته كما تعلم. وإن كنا نسمع بين فترة وأخرى نقيض هذه الحقيقة فهي مجرد مبالغاتٍ شعرية دينية تافهة وشائعاتٍ مضحكة لا تمت بصلة لأوضاع الموتى البسيطة. لكنني اعترف أنني كنت أتدخل كثيراً في بناء وطرق أداء القصص والقصائد وأحاول قدر المستطاع أن أمد الصور المكتوبة التي كانت تصل من الجبهة بالمزيد من فحم المخيلة. فبالله عليك ما معنى أن يقول أحدهم ونحن نخوض حرباً شعرية: (لقد أحسست أن قصف المدفعية كان شديداً كالمطر، لكننا لم نكن خائفين..). شطبت وكتبت من جديد: (لقد أحسست أن نيران المدفعية، كانت كرنفالاً من النجوم، ونحن كنا نتمايل كالعشاق فوق تراب الوطن..) هذا مثال صغير فقط عن طبيعة تدخلاتي المتواضعة.

لكن المنعطف في الحكاية سيدي القاضي، حين وصلت إلى الجريدة

خمس روايات، من جندي يقول إنه كتبها خلال شهر واحد. كانت كل رواية مكتوبة في دفتر سميك من تلك الدفاتر المدرسية الملونة. وعلى غلاف كل دفتر كتب في المربع المخصص للتعريف بالدفتر: الاسم والصف والمدرسة. ولم تكن الصفوف تتجاوز المرحلة الابتدائية. وكان كل دفتر يحمل اسماً مختلفاً. وكل رواية كانت تتحدث عن حكاية جندي بنفس الاسم المكتوب على الغلاف. الروايات كانت مكتوبة بلغة فنية عالية مدهشة، بل أجزم أن الرواية في العالم قبل هذه الروايات التي قرأت هي مجرد هلوسات وحكايات فارغة وقزمية أمام عظمة ما كتبه هذا الجندي. لم تكن الروايات تتحدث عن الحرب، فقط أبطالها كانوا جنوداً مسالمين. كانت غوصاً شفافاً وقاسياً حول الكائنات الجنسية من وجهة نظر طفولية وشيطانية في آن واحد. كنت تقرأ عن جنود يلعبون بالمني والضحك وهم بكامل عُدّتهم العسكرية مع عشيقاتهم في الحدائق وعلى ضفاف الأنهار. عن جنود يصنعون من أفخاذ العاهرات أقواساً رخامية تتسلقها نباتات حزينة بلون الحليب. جنودٌ يصفون السماء في جملٍ قصيرة شبقة وهم يلقون برؤوسهم على صدور نساءٍ لدنات. كانت أناشيد ساحرة عن الأجساد وهي تنزّ أزهارها المائية.

تحريتُ بسرعة وشغف عن الجبهة التي يقاتل فيها الجندي وعن وحدته العسكرية. عرفتُ أن الفيلق العسكري الذي كان يقاتل فيه، تعرض قبل أيام معدودة من إرسال هذه الروايات إلى هجوم كاسح من قبل العدو. وقد تكبد الفيلق خسائر فادحة في الأرواح والمعدّات. كان لي زميل، يعمل في تحرير صفحة الشجاعة ونياشينها في جريدتنا العسكرية، يهتف كلما شاهدني: لديك دماغ دبابة رفيقي!! تذكرت وصفه هذا، حين أحسست أن الفكرة لمعت مكتملة في أسلاك دماغي الذهبية، وأنا أقلّب في هذه الدفاتر المعجزة. قررت أنْ أكتب رسالة إلى الجندي أهدده فيها، سأقول له بصرامة وصراحة، بأنه معرض للمسائلة الحزبية وربما سيحاكم عن قريب ويعدم، لأن رواياته كانت تنحرف عن عمدٍ وبطريقة واضحة عن نهج الحزب

وحربه العادلة. وكنت أُعوّل على رعب الجنود الأزلي المتعارف عليه، لتركه يتخلى عن هذه الراويات، أو أنه سيعتذر لي ويتوسل بمرارة أن أتلف ما كتبه، وأن أسامحه على فعلته الشنيعة هذه والتي لن يكررها مرة أخرى. عندها فقط، سأعرف ما الذي افعله بهذه الروايات الإنسانية الشاهقة. لا أظن أن روائياً كبيراً كان يحلم بأكثر من خمس روايات على هذه القدرة العالية من الابتكار في المزج بين لغة الحلم والواقع، للوصول إلى الجنس العاشر من اللغة؛ وهو الجنس الذي بُنيتْ منه النار، ثم من النار بُنيتْ الشياطين.

لم تكن السماء بعيدةً؛ لقد وقفت إلى جانبي بسرعة خاطفة. تلقيت بعد أسبوع من رسالتي إلى الجندي، برقيةً من فيلقه العسكري تقول إن الجندي قُتل في الهجوم الأخير ولم يخرج من فصيله العسكري شخصٌ واحد على قيد الحياة. لقد كدت أن أبكي من فرطِ السعادة ومن هِبات القدر السخية هذه، وأنا اكرر قراءة اسم الجندي المقتول بنشوة لا توصف.

سيدي القاضي. بعد خمسة شهور من نشر الرواية الأولى باسمي (بعد أن ابتكرت عنوأنا مميزاً لها). كنت أجوب بلدان العالم من اجل تقديم روايتي الجديدة في حلقاتٍ دراسية، قدّمني من خلالها أكبر مشاهير النقاد والمفكرين. وكَتَبتْ عني أكبر الصحف والمجلات الأدبية العالمية. حتى إنني لم أجد وقتاً كافياً لإجراء المقابلات التلفزيونية والإذاعية. أما نُقاد البلاد فقد كتبوا دراسات طويلة عن حربنا العادلة التي بإمكانها أن تلهم الإنسان كل هذا العطاء والحب والشعر. ولقد كُتبت رسائل ماجستير ودكتوراه عديدة في جامعات البلاد، اعتمد فيها الباحثون على نبش كل الدلالات الشعرية والإنسانية في روايتي وتحدثوا عن التناغمات بين الرصاص والمني، بين صوت الطائرات واهتزاز السرير، بين القبلة والشظية، وبين رائحة البارود ورائحة فرج المرأة؛ رغم أن الرواية لم تتحدث عن الحرب لا من بعيد ولا من قريب. وبعد عودتي إلى البلاد سُلّمت في احتفال باذخٍ كرسيّ وزيرِ الثقافة نفسه دون أي مشقة. لم أكن مستعجلاً في نشر

الروايات الأربع المتبقية. فلقد كان هنالك المزيدُ مما يمكن أن تُدرّه الرواية الأولى. استبدلت زوجتي ومسكني وملابسي وسيارتي، بحاجيات جديدة من تلك التي كنت اشتهي. يمكنني القول إنني سجدتُ للحرب ورفعت يدي بالشكر إلى السماء على هذه النعم والهبات التي لا تُقدر بثمن. وكنت واثقاً من أن جائزة (نوبل) للآداب ستكون هنا على مكتبي في الوزارة بعد الروايةِ الخامسة. كانت السعادة قد فتحت أبوابها مثلما يقولون. إلى أن وصلت ذات يوم على عنواني في الوزارة، ثلاثةُ طرودٍ كبيرة من الجبهة. كانت تحتوي على عشرين رواية مرسلة من نفس الجندي وبنفس الطريقة. دفاتر مدرسية وأسماء جنود في المرحلة الابتدائية، وقصص حبٍ ومنيّ. شعرتُ للوهلة الأولى بإرباك هائل، ثم تحول الإرباك إلى فزع جليدي. حملتُ الروايات على عجل وطلبت من مسؤول مخازن الوزارة أن يعطيني مفاتيح إحدى المخازن. أخفيتُها بسرية تامة، وأجريتُ اتصالات عديدة ومكثفة للبحثِ عن الجندي. كانت جميع البرقيات تصل إلى مكتبي في الوزارة مباشرة، وكانت جميعها تؤكدُ مقتل الجندي. كانت أياماً مرعبة. في اليوم التالي وصلت طرودٌ أخرى برواياتٍ تضاعفَ عددها هذه المرة ومن نفس الجندي وبنفس الطريقة. حملت الروايات من جديد إلى مخزن الوزارة ووضعت أقفالاً إضافية على باب المخزن. لقد مرت شهور قاسية سيدي القاضي، وأنا موزعٌ بين إخفاء الروايات التي ظلت تتدفق بطريقة عجيبة، وبين البحث عن الجندي الذي لم يكن له أثر على طول الجبهة وعرضها. في هذه الفترة كانت الرواية الثانية قد طُبعت ونشرت. تلقيت اتصالاً هاتفياً من الرئيس ومن وزير الدفاع ومن مسؤولين في الدولة يمتدحونَ إخلاصي وعبقريتي. وأخذت الدعواتُ تنهمر على الوزارة من خارج البلاد. لكنني رفضتها جميعاً هذه المرة وتحججت بأن البلاد أغلى وأهم من كل جوائز ومؤتمرات الدنيا، فالبلاد بحاجة إلى كل أبنائها الأبرار في مثل هذه الظروف العصيبة. في الحقيقة كنت أريد أن أجد حلاً للروايات التي ظلت تنهمر كل صباح بأعداد هائلة مثل عاصفة من الجراد: اليوم مئة رواية. غداً مائتان، وهكذا...

سيدي القاضي. كدتُ أن أخسر دماغي الدبابة. أخيراً حصلت على عنوان بيت الجندي. ذهبت لزيارة عائلته للتأكد من مقتله. أخبرتني أمه أنها لم تكن تصدق أنه كان ميتاً. لم يكن هناك سوى ثقب صغير في جبهته. كانت رصاصة قناص. أخذت عنوان قبره من زوجته وتركت لهم مبلغاً من المال. اكتظت مخازن الوزارة الأخرى بالدفاتر. كيف سأشرح للحزب والحكومة أنني كتبت كلّ هذه الروايات؛ ولِمَ أكتبها في دفاتر مدرسية؟ ولم أسماء الجنود وهم في مراحل الدراسة الابتدائية، ولماذا أخزنها بهذه الطريقة؟ كانت هناك عشرات الأسئلة التي لم يكن لواحدٍ منها جواب منطقيّ.

اشتريتُ مخازن قديمة للطحين في أطراف العاصمة، تحسباً لتدفق المزيد من الروايات. دفعت مبالغ هائلة لثلاثة عمال في الوزارة ليعينوني على نبش قبر الجندي. كان هناك بجثته المتعفنة مثقوب الجبين. حركتُ جثته أكثر من مرة للتأكد من موته. همست في أذنه. ثم زعقت بصوت عال وشتمته، وتحدّيته إن تمكن من فتح فمه أو تحريك أصغر أصابع يده. لكنه كان ميتاً بما فيه الكفاية. خرجت دودة من رقبته وهي تطارد دودة أخرى، ثم غاصتا من جديد في مكان آخر قرب الكتف.

سيدي القاضي. قد لا تصدق هذه الحكاية. لكنني أقسم لك بجبروتك، أن مخازن الطحين والوزارة اكتظت خلال عام واحد بروايات الجندي. بالطبع لم يتسنّ لي قراءة جميع الروايات. لكنني كنت أستل من كل مجموعة عينة واحدة. أقسم لك أنها لم تكن تتضاعف عدداً فحسب، بل كانت تزداد تألقاً وإبداعاً. لكنني كنت أرتجف وأشعر أن نهايتي ستكون قريبة إن لم يتوقف طوفان الروايات هذا.. بالتأكيد لم أترك طريقة ممكنة وغير ممكنة للتحري والبحث. تحريت عن العناوين التي كانت تصل منها الطرود. كانت ترسل بنفس اسم الجندي من أماكن مختلفة من الجبهة. لكن لم يكن له اثر. مع ذلك، لم يكن بوسعي أن أتمادى في السؤال عن الطرود كيلا يُفتضح أمري.

عدت إلى المقبرة وأحرقت جثة الجندي. طلقت زوجتي الثانية، وتركت عملي بعد أن أعانني طبيب نفسي في تقديم تقرير يثبت تدهور صحتي. جمعت كل دفاتر الروايات من مخازن وزارة الثقافة ومخازن الطحين القديمة، واشتريت أرضاً زراعية معزولة، وشيدت فيها محرقة خاصة ومخزناً كبيراً وغرفة ومرحاض، وأحطتها بسور عال. كنت متأكداً من أن الروايات ستواصل تدفقها على عنواني الجديد هذا. لكنني كنت مستعداً لها هذه المرة. ومثلما توقعت، مع صباح اليوم الأول في المزرعة، كنت أعمل بجد ونشاط ليل نهار في حرق حكايات الجنود وأسمائهم في الدفاتر المدرسية الملونة، على أمل أن تنتهي الحرب وينتهي هذا الجنون من أوراق المني الخاكي.

توقفت الحرب سيدي القاضي بعد سنوات طويلة ومرعبة. لكن حرباً جديدة اندلعت. لم يتبق أمامي من خيار سوى نار المحرقة، وأنت الرحيم الغفور!!

سيدي القاضي...

والآن وقبل إعادتي لمشرحة الموتى. أعرف أنك قدير وحكيم وعليم ومتكبر. لكن هل كنتَ أيضاً تعمل في جريدة عسكريةٍ. لماذا لديكَ محرقةُ وبشر وحكايات.

# العذراء والجندي

في مؤخرة الجثة حشرت زجاجة كحول، ومن اليد اليمنى قطعت ثلاثة أصابع. وهناك جروح فظيعة أخرى، وكأنها من أفعال ذئاب وليس بشراً. كانت جثة رجل في أواسط الثلاثين من العمر. ولم يكن هو من ضحايا القتل الطائفي الذي اشتد في سنة ٢٠٠٦ في بغداد، رغم أن الجثة كانت قد ظهرت حينها. يبدو أن زجاجة الكحول قد دفعتها قدم أحدهم أو غرزت بكل عناية في مؤخرة الرجل... لم يكن الرجل شرطياً ولا مترجماً خائناً يعمل مع الجيش الأمريكي، ولا صحفياً ولا قائد ميلشيا، ولا حتى مواطناً عابراً. لم يكن سوى رجل تطارده حكاية شيطانية. الجثة تعود لرجل اسمه حميد السيد، كان قد أطلق سراحه، حين أفرغت الحكومة أغلب السجون من نزلائها قبيل احتلال بغداد في العام ٢٠٠٣.

كان المفروض أن يكون حميد السيد، رجلاً معروفاً لو كانت الصحف، قد كتبت قبل عشر سنوات عما حدث له في معمل خياطة البدلات العسكرية، التابع لهيئة التصنيع العسكري. لكن ما حدث حينها، كانت قد عتمت عليه جميعُ الأطراف المعنية بالأمر، ومن المفهوم أن لكل جهة غرضها. حكومة الديكتاتور كانت تعتبر كل حدث خارج القضايا الوطنية الكبرى لا يعدو كونه تفاصيل خالية من المعنى والأهمية. وليس من الحكمة أن يهتم الشعب بأمور وقضايا تشغله عن معركته الحقيقة ضد قوى الإمبريالية الغاشمة والصهيونية، خاصة وهو يخوض معركة الحصار الاقتصادي القاسي الذي فرضته الأمم المتحدة بعد حرب الخليج الثانية. أما عائلة حميد فقد تكتمت على الأمر، بدافع الخوف أولاً والخجل ثانياً. بقية الذئاب كانت تقتفي أثر حميد السيد طوال السنوات العشر الماضية.

وحين شاهدت أخته الكبيرة، جثته، تعرفت فوراً على قاتل أخيها الصغير. فالأصابع الثلاثة المقطوعة، كانت الدليل على هوية مرتكب الجريمة.

بدأت الحكاية في العام ١٩٩٦ في معمل (الكرامة) لخياطة البدلات العسكرية حين عَثر مفتشو الأمم المتحدة على حميد وفتاة ميتة في إحدى غرف المعمل. تبدأ القصة في اليوم الأخير الذي سبق عطلة المعمل المشؤومة. وقد يكون الله قد تدخل مباشرة في أحداث ذلك اليوم أو أن ما حدث كان من أفعال شياطين مملكة الصدفة، ولربما كان كل شيء من أفعال البشر القذرة.

إنها حركة صغيرة وجميلة لكنها حذرة جداً: فاتن، تغمز الجندي الذي يمر حاملاً كومة من الأوراق بقلق وارتباك، ثم تنحني على ماكنة الخياطة من جديد، لتطرز علامةً عسكرية على شكل مثلث أحمر فوق جيب بنطال الجندي. بعد قليل، يعود الجندي حميد السيد أدراجه. يقطع قاعة الخياطات من المنتصف باتجاه سلم حديدي صغير يؤدي إلى الطابق الثاني. لكنه لا يحصل هذه المرة على غمزة أخرى من فاتن. فعيون الجميع هي كاميرات مراقبة. الخطأ في مثل هذا المعمل قد يُكلف الكثير. وهذه هي حرب حميد السيد الصغيرة. يدقق في غرفته حسابات المعمل ويصغي إلى أصوات زخات أبر ماكنات الخياطة، ويحب فاتن أو يموت في حبها كما يقول لأخته العزيزة ساهرة. لكنّهُ لم يعثر حتى اليوم على الطريقة المناسبة للقاء فاتن خارج المعمل. حميد يعيش في جانب الرصافة من بغداد في حي الشعب بينما فاتن تعيش بعيداً في حي الشرطة، مع إخوتها الثلاثة وزوجاتهم. عمرُ فاتن ٢٢ عاماً ربما. لست متأكداً من أنها كانت العذراءَ الوحيدة في معمل الكرامة. زينب تقول، ربما هناك أكثر من خمس عذراوات في معمل الكرامة. بالمناسبة مدير المعمل يقترح تغيير اسم المعمل إلى معمل (القائد) لخياطة البدلات العسكرية. وقد كتب طلباً رسمياً بذلك إلى هيئة التصنيع العسكري. ومعمل الكرامة هذا سيكون في عطلة لمدة خمسة عشر يوماً بدءاً من يوم غد. أخبروهم أن هذه العطلة

هي مكرمة من السيد الوزير. تكون أيام هذه العطلة المشؤومة - بالنسبة لحميد - بمثابة قرن. كانت فاتن تذكّرُه دائماً في رسائلها بإخوتها كلما حاول حميد إقناعها على موعد لقاء خارج أسوار المعمل.

. حميد إذا أخوتي عرفوا يذبحوني مثل الدجاجة.. أنت مخبل.. آني ما أطلع حتى بباب البيت!

لا يعرف حميد كيف سيتحمل أيام العطلة، من دون ابتسامة فاتن التي كان يأخذها كل يوم معه إلى البيت، ليتأملها قبل النوم ساعات طويلة. ثم يقبلها وينام.

كان مدير المعمل قد طلب ذلك اليوم أبا فاضل عبر الهاتف. لفّ أبو فاضل الجريدة التي كان يأكل فيها، الباذنجان والبصل على عجل، ومسح فمه بكفه. هذا الرجل الذي يبدو كأنه خارج للتو من المقبرة بسبب نحوله المخيف هو في نهاية الخمسين من العمر، وهو صاحب (المفتاح الأول) الذي تدور حوله الشبهات. لم يكن أحد قد رأى من قبل بواب المعمل أبا فاضل مرتدياً بنطالاً آخر غير بنطال القماش الرصاصي، أما بدلته الرمادية الواسعة فتشبه حزن أبواب الأحياء القديمة. أبو فاضل يحفظ جميع أسماء البنات الخياطات، وهي قدرة عجيبة حقاً. أسماء الجنود يمكن حفظها بسهولة. فهناك سبعة منهم فقط في المعمل. ومن غير المدير العقيد زهران، والبواب أبو فاضل، هناك: حميد، ورحمن في غرفة الحسابات والتدقيق، وصادق وعمر، المسؤولان عن الإشراف على الشاحنات التي تستلم البدلات العسكرية من البوابة الخلفية للمعمل. وهناك النايب ضابط جاسم خضير، ومساعداه خلف ومروان. النايب ضابط مسؤول عن صيانة ماكنات الخياطة. أما بقية أمور المعمل فتديرها العاملات. لكن العقيد زهران، هو الوحيد من بين رجال المعمل الذي يمكنه مشاهدة البنات الخياطات، طوال الوقت. فهو يجلس في غرفة جدرانها من الزجاج، وتواجه قاعة الخياطات مباشرة في الطابق الأول. في الطابق الثاني توجد غرفة الحسابات، وثلاث غرف صغيرة للوازم الخياطة، تجاور السلم الذي

ينزل إلى الطابق الثاني. إنه معمل صغير جداً، لكنه نشيط، فهو مختص بخياطة بدلات كبار الضباط فقط. اليوم هو أنقاض بعد أن قصفته الطائرات الأمريكية قبل احتلالها بغداد.

في غرفة العقيد، يصعد أبو فاضل فوق كرسي لينزل صورة الرئيس المعلّقة خلف مكتب العقيد. يعطيه العقيد صورة جديدة للرئيس. الصورة القديمة يرتدي فيها الرئيس الزي العربي، وفي الصورة الجديدة يرتدي بذلة عسكرية. يشكر العقيد أبو فاضل، ثم يخرج من أحد أدراج مكتبه كومة من المفاتيح.

يستل مفتاحاً صغيراً ويعطيه إلى أبو فاضل الذي يضيفه إلى سلسلة مفاتيحه، وهو ينحني باحترام أمام العقيد قبل أن ينصرف. ولو خرجنا الآن إلى قاعة الخياطات، لشاهدنا (المفتاح الثاني)، وهو مفتاح صبرية المسؤولة عن مراقبة عمل الخياطات. تدور صبرية طوال الوقت بين ماكنات الخياطة، وهي تحرك بأصبعها حلقة المفاتيح، وترصد كل حركة في المعمل. لا أحد يطيق صبرية العاقر القحبة هذه. هكذا يسمين البنات المسؤولة عن مراقبتهن. ولولا شعر صبرية الأسود الطويل، لما كان هناك ما يدلّ على أنها امرأة، هذا حسب ما قاله الجندي رحمن. وهو محق تماماً. فهذه المرأة تشبه مصارعاً من الوزن الثقيل. بالمناسبة صبرية، وقلّة من البنات يكشفنَ عن شعورهنّ في معمل الكرامة. فأغلب البنات من المحجّبات، ويلبسن بذلات عمل نسائية، بلون أزرق داكن. صبرية من الجيل السبعيني الذي لم يستوعب بعد عودة الحجاب وصعود موجة التشدّد الديني، لكنها غيورة وحسودة بطريقة مقرفة. تراقب كل حركة، وكل ضحكة، وكل همسة تصدر من البنات، بعين صقر.

في الطابق الثاني نعثر على (المفتاح الثالث) وهو مفتاح الجندي رحمن. لكننا لا نفهم تماماً ما هو هذا المفتاح. فلربما هو مفتاح شخصي لا غير. الجندي رحمن هو زميل حميد السيد في غرفة الحسابات. يخشى حميد لسان رحمن، فربما تفلت منه كلمة حول علاقته بفاتن. لا يخاف

حميد السجن كثيراً. لكن مبعث قلقه الخشية من أن تشوّه صورته في ذهن مدير المعمل العقيد زهران الذي يعتبر حميد مثال الجندي المستقيم، والإنسان الصالح. وقد نصح العقيد حميد بأن يفكر بجدية في الزواج، وأن يتمّ دينه. ودعاه إلى المباشرة فوراً بأداء الصلاة والتوبة إلى الله، فهذه الدنيا فانية. قد يضمن حميد سكوت زميله مقابل تغاضيه عن ذهاب الأخير كل نصف ساعة إلى مرحاض الرجال. رحمن يستغل وجود المرحاض في الطابق الأقرب السلم. حيث يوجد إلى يمين السلم مرحاض النساء، وإلى يساره مرحاض الرجال. يمتع رحمن نظره قليلاً بوجوه البنات الخياطات، ويستنشق الرائحة التي تتبخر من عرق أجسادهن، وكأنها رائحة الجنة. يدخل رحمن المرحاض، ليؤدي في كل مرة نفس الحركة المربكة: يبحث في جيوبه، يخرج علبة كبريت من جيب بنطاله الخلفي، وهو يمسك بشفتيه السيجارة. يستل الصورة من جيب آخر، يسقط مفتاحاً صغيراً أثناء ذلك، يعيده، يشعل سيجارته. إنها صورة ممثلة تركية مشهورة عارية. يبدأ رحمن مضاجعته الافتراضية، يضغط على شفتيه وهو يحدّق في ثقب طيز التركية. إلى أن يلطخ المني يده.

تحرك زينب منصور يدها قرب سحّاب البنطال العسكري، كرجل يمارس العادة السرية، قبل أن تركل مؤخرة البنطال بحركة مسرحية مرحة، لتنفجر البنات الخياطات بالضحك. زينب هي صاحبة (المفتاح الرابع) وتملك حرية الحركة في المعمل بحكم عملها كمساعدة لصبرية العاقر. زينب هي أعزّ صديقات ساهرة، أخت رحمن الكبيرة. تعمل كساعي بريد أثناء العمل بين فاتن وحميد. تنقل الرسائل المكتوبة حين تصعد إلى الطابق الثاني لجلب بعض لوازم الخياطة. هي فتاة مرحة وذكية وتعتقد بعض الفتيات أنها مثلية. ضحكت زينب في ذلك اليوم طويلاً وهي تصغي إلى النايب ضابط خضير، وهو يتحدث عن أعطال ماكنات الخياطة بجدية، وكأنه بروفسور في علم الأحياء. يقول بهدوء وثقة وشيء من الضجر:

- تنكسر الإبرة أكثر من مرة أثناء التمكين لأسباب عديدة، عدم ثبات

القدم الضاغطة في مكانها، أو لأنّ وضع المكوك غير صحيح، أو عند جذب القماش بشدة أثناء التمكين. أما انقطاع الخيط عند الإبرة، فسببه هو أن سير الخيط غير صحيح، أو أن قوة الشدّ للخيط غير مناسبة، وإن كانت أسنان المشط غير نظيفة ومتآكلة، فإن الغرز تكون غير متساوية، ومع أن البنات الخياطات محترفات، لكنهن يرتكبن في كثير من الأحيان أخطاء الخياطة المبتدئة...

تصغي زينب إليه بمرح، حين يمرر لزينب أثناء حديثه المتواصل ثلاثة مفاتيح، تضعها في جيب بذلة العمل من دون أن تقاطع حديثه.

قد تكون هناك مفاتيح أخرى لكنني اخترت هذه المفاتيح فقط، بسبب إيقاع الحكاية التي كانت ترويها زينب.

في صباح اليوم الأول من أيام عطلة معمل الكرامة، كان يدور في الفضاء الخارجي قمر صناعي تجسسي أمريكي يلتقط صوراً بأحجام مختلفة للمعمل الصغير. هذا المعمل الذي دوخ لجنة مفتشي الأمم المتحدة عن الأسلحة المحظورة دولياً. كانت الحكومة تتعمد تضليل المفتشين. فهي لم تسمح للمفتشين بزيارة المعمل، سوى مرة واحدة فقط. في الحقيقة لم يكن هناك في المعمل سوى البدلات العسكرية. لكن غرض الحكومة أن يشك مفتشو الأمم المتحدة في أن المعمل يستخدم لأغراض عسكرية محظورة.

كان لمكان المعمل على أطراف بغداد في أرض جرداء مهجورة، دورٌ في زيادة الشبهات حوله. وربما كان المعمل يستخدم في السابق لأغراض عسكرية سريّة. فتصميمه الأول لم يكن يدلّ على أنه معمل للخياطة. كما أن الأبواب الحديدية السميكة لغرف الطابق الثاني، وهي غرف صغيرة خالية من النوافذ قد أثارت الشكوك. ويبدو من بلاط أرضية قاعة الخياطات، كان المكان يستخدم كمختبر. ولا يقرب أقرب شارع عام معبد عنه سوى ٥ كم. هناك بوابتان رئيستان للمعمل. واحدة في الخلف وتستخدم لدخول الشاحنات. والبوابة الرئيسية لدخول وخروج العمال، حيث كابينة البواب أبو فاضل، والذي كان يقفل الباب الرئيسي بعد العمل.

في صباح ذلك اليوم لم تكشف بالطبع أشد صور القمر الأميركي وضوحاً الصراخ المكتوم في الطابق الثاني. كان صراخاً خافتاً، يائساً، قادماً من نهاية عالم يحتضر، ومتجهاً إلى قاعة البنات الخياطات الفارغة. والتي كانت تبدو كمشهد غروب بائس فوق مدينة مهجورة. فاتن صرخت وانتحبت طوال الليل مثل حيوان مذبوح. بكت، وأشعلت النار بصراخها في غرفة لوازم الخياطة، بينما جلس الجندي حميد في زاوية الغرفة محاولاً السيطرة على يديه اللتين كانتا ترتجفان، مثل غصن في العاصفة.

كانت خالتي زينب هي الأخرى تبكي بمرارة كلما أعادت حكاية ما حدث في ذلك اليوم. اتهمت الجميع، ثم أخذت تستغفر ربها على ظنونها. تقول خالتي: كنا قد انتهينا من العمل، وكانت البنات في غرفة تبديل الملابس، بعضهن غيرن ملابسهن وغادرن بسرعة. كنت قد نقلت في الساعة الأخيرة من العمل رسالة حميد لفاتن التي يرجوها فيها أن يتحدثا قليلاً في الطابق الثاني، ليستغلا وقت تبديل الملابس. وكانت فاتن قد تحججت بالذهاب إلى مرحاض النساء لأنها تعاني من الإسهال. كنت أظن أن حميد سيحدثها لدقائق قليلة. كان على فاتن أن تلحق بالباصات التي تقلنا إلى المدينة. صحيح أنه في ذلك اليوم كان هناك صخب ومرح وضحك في الباصات بسبب العطلة المفاجأة، لكن ألم تنتبه زميلات فاتن لغيابها؟ الله أعلم، أخبرتك إنني كنت أستقلّ باصاً آخر.

- هل تظن أن رحمن هو الذي ارتكب هذه الجريمة؟

- لا، لا، لا يمكن أن يقوم رحمن بمثل هذا العمل، إنه جبان جداً.

- ماذا لو كان العقيد نفسه أراد الانتقام منهما.

قال أبو فاضل إنه لمْ يقفل غرف الطابق الثاني بسبب العطلة. وصبرية أكدت أيضاً الأمر نفسه. فأبواب غرف لوازم الخياطة، كانت تبقى عادة مفتوحة. ثم أن العطلة كانت ١٥ يوماً فقط.

(ليش ياربي، ليش ما إجوا المفتشين بثاني يوم لو ثالث يوم... شلون حظ أسود عندها فاتن الحبابة.. المفتشين دخلوا المعمل بعد أسبوعين من العطلة.. الدنيا هاي ما تنفهم والناس يخوفون خالة..)

. لم لم تخبريهم بالحقيقة؟

. أي حقيقة...

. بموضوع الرسالة، ربما تكهّن أحدهم أن فاتن وحميد كأنا في المعمل...

. منذ وصلوا أخوة فاتن الثلاثة إلى بيتنا وتحدثوا مع زوجي... أخبرتهم بقصة الحب بينَ فاتن وحميد كلها. كان الجميع يظن أن حميد وفاتن هربا إلى مدينة أخرى، حتى أنه كانت هناك إشاعة تتحدث عن هروبها خارج البلد...

كان حميد يمسك بيد فاتن المستندة إلى الجدار، وهو يحاول إقناعها بموعد لقاء أثناء العطلة. كان صخب أصوات البنات يصلهما من غرفة تبديل الملابس. فتح حميد باب غرفة لوازم الخياطة الثالثة وسحب فاتن إلى داخلها ثم وارى الباب خلفه. وسط الغرفة كانت هناك كومة كبيرة من البدلات العسكرية غير الصالحة للاستخدام نتيجة بعض الأخطاء في تصاميمها. ولم يكن في الغرفة سوى صناديق تحوي لوازم الخياطة من خيوط، ومقصات قماش، بحجم كبير، وأشياء أخرى صغيرة. رمت فاتن نفسها فوق كومة البدلات، وراح حميد يقبلها بشغف في كل مكان من وجهها. كانت فاتن مسَتسلمة للذة القبلات، وتحاول أن تكتم آهاتها، قبل أن تسمع صوت خطوات تقترب من باب الغرفة.

يقول الجندي حميد السيد في المحكمة العسكرية: إنه سمع خطوات شخص قادم في الممر. فاختبأ مع فاتن أسفل كومة البدلات العسكرية، ثم سمعناه يتوقف أمام باب الغرفة. فتح باب الغرفة قليلاً ومد يده من دون أن يدخل الغرفة، وفتح زر مصباح الغرفة المظلمة، ثم أطفأه من جديد.

. هل شاهدت يده، هل هي يد رجل؟

. لا، لم أشاهد يده!

. كيف عرفت أنه لم يدخل الغرفة؟

. قدرت ذلك من الضوء الداخل من الممر!

. ما الذي حدث بعد ذلك؟

. أدار المفتاح في ثقب الباب.. وانصرف..

. والآن اخبرني بحق ربك، إن كان لديك رب، لم اغتصبتها؟

. أقسم بالله العظيم سيدي إنني لم اغتصبها، في اليوم الثالث كنا نموت من العطش. ولقد يئست من محاولة كسر الباب.. قالت لي إن خروجنا من المكان يشبه موتنا هنا داخل هذه الغرفة... في كل الأحوال سنقتل.. ثم طلبت مني ممارسة الجنس..

. هل كنت تعرف أنها كانت عذراء؟

. نعم.. أعرف..

. اسمع.. أنت شيطان، وسفاح، وكلب، وابن قحبة، وكان من المفروض أن تموت من العطش والجوع هناك في الغرفة، لكن الشياطين من أمثالك محظوظون. يمكنني الآن أن أطلق على رأسك رصاصة من دون أن يحاسبني أحد.. لقد عشت على دم ولحم إنسان ميت. هل كانت على قيد الحياة حين ارتكبت جريمتك المقززة الثانية؟

. اقسم لك سيدي إنني لم أكن في وعيي، مرت سبعة أيام على سجننا في الغرفة.. وكانت فاتن تتمدد وسط الغرفة ميتة..

. لكن تقارير الطبيب تقول إنها لم تكن ميتة بعد... حين قطعت أصابعها...

. أقسم أنها كانت ميتة.. لم أكن حينها أقوى على فتح عيني من شدة الإعياء والجوع والعطش.. حاولت أن أشرب قليلاً من البول، لكن...

. لكن ماذا؟

- شربت دمها..

- دعني أصدق أنك إنسان من لحم ودم.. حسناً، لِمَ أكلت ثلاثة أصابع من يدها.. أستغفرك ياربي... مثلاً، لمَ لمْ تأكلْ أي جزءٍ آخر من جسدها؟

. فكرت أن الميت ربما يتألم أيضاً، وربما تكون الأصابع أقل إيلاماً!

. حميد السيد، هل قمت بقطع ثلاثة أصابع من يد فاتن قاسم؟

. نعم سيدي..

. هل قطعت الأصابع الثلاثة بمقص القماش؟

. نعم سيدي...

. هل أكلت الأصابع الثلاثة؟

. نعم سيدي.. أكلتها.

# حقيبة علي

حين سقط تمثال الديكتاتور في بغداد نشب عراك طاحن في صالة مشاهدة التلفزيون. اشتبك ستة شبان سودانيين بمجموعة من العراقيين المحتفلين بسقوط الديكتاتور. ما قاله يوسف السوداني كان قد أشعل الشرارة: سينيك الجنود الأمريكيون نساءكم... لم أنتم فرحون جداً؟

حاول الأفغان وبضعة شبان نيجيريين فض العراك. أما الإيرانيون فخرجوا من الصالة، وأخذوا يتفرجون من الشبابيك. سالت دماء كثيرة، ونُقل شاب سوداني إلى المستشفى. بعد أن شُجَّ رأسه، وفقد الوعي. وقبل أن تصل شرطة مكافحة الشغب، كانت تنبعث من الصالة رائحة كريهة، أما أثاث الصالة فقد حُطِّم بالكامل.

تفرجت على المعركة بأعصاب باردة من باب الصالة. لقد مضى أكثر من ثلاث سنوات على وجودي في محطة استقبال اللاجئين في هذه المدينة الإيطالية الصغيرة، وقد شهدت عدة معارك طاحنة. وقد تنشب بسبب مسحوق غسيل أو لباس داخلي نسائي، وهذا ما حدث مع لباس بروين الكردية.

مرة أخبرت بروين النزلاء الأكراد بأنها شاهدت شاباً باكستانياً وهو يسرق لباسها الداخلي من حبل الغسيل. وهكذا اندلعت معركة شرف بين الباكستانيين والأكراد .لم تتوقف إلا بعد ثلاثة أيام. وقد استعان مدير المحطة بالشرطة بعد أن عجز الحراس في المحطة عن وقف القتال.

ما أثار فضولي في معركة صالة التلفزيون هو علي البصراوي، كان

يحضن حقيبته ويجلس في زاوية الصالة مبتسما كالمجانين. هذا الشاب الرقيق تغير كثيراً منذ وصوله إلى المحطة. دعوته في المساء لشرب القهوة في غرفتي للاطمئنان على أحواله وتوديعه. كان قد قرر إكمال مشوار رحلته إلى فنلندا. لست مقتنعاً تماماً بهذا القرار. نصحته بالذهاب إلى ألمانيا أو إلى أي بلد آخر، فربما تكون فرص العمل أفضل. تحدثنا طويلاً ذلك المساء عن أحلامه، ومخاوفه، وخططه. أخبرني أنه تمكن من سماع صوت أمه. كانت تحدثه بحب، وتسدي له النصح، لكنها كانت تعاتبه أيضاً على ما حدث لرأسها في الغابة اليونانية. كان سعيداً هو الآخر بسقوط الديكتاتور، رغم قلقه من فكرة أن تتوقف الدول الأوربية عن منح اللجوء للعراقيين. قلت له قد تتغير الأمور في البلد ونعود جميعاً إلى بيوتنا وأهلنا. غير أنه ذكرني بحقيبته الرصاصية. ليس لي أي أهل، ولا أصدقاء، ولا أمل... كل ما أملكه حملته في حقيبتي... أتمنى أن أتمكن من أخذ أمي إلى مكان آمن، ومريح، فالمسكينة تعذبت طويلاً...

يُخيّل لي في كثير من الأحيان، أنني سأقضي حياتي في الكتابة عن القصص والسورياليات التي عايشتها في دروب الهجرة السرية. إنه سرطاني الذي لا أعرف كيف أشفى منه. أخشى أن أنتهي بطريقة كوميدية مثل نهاية الكاتب العراقي خالد الحمراني. ظل طوال حياته يكتب عن السوق الشعبي القريب من سكنه. وحين أُزيل السوق وشُيّدت مكانه بنايات سكنية، انتحر الحمراني، مخلفاً ست مجموعات قصصية، جميعها، تحاكي عالم السوق ودهاليزه.

مرة كنت أتحدث مع روائي شاب ألماني حول بعض تجاربي الشخصية في الهجرة السرية، وأفكاري في تحويل ما عشته إلى مادة أدبية متخيلة. وعندما جاء دور الشاب الألماني في الحديث أخبرني، أنه لم يكتب شيئاً يستحق الذكر، وأنه يعتقد بأن صغر سنه، وقلة تجاربه في الحياة هي سبب هذا العقم. شعرت أنه كان يريد أن يقول بأنه يحسدني على كل التجارب الحياتية الغريبة والمؤلمة التي عشتها. وبدل أن يمنحني ما قاله امتيازاً،

شعرت بخجل شديد. فقد نبهتني ملاحظاته من جديد، إلى حقيقةِ أي كائن محطم وتافهٍ أنا. تملّكني خجل مرّ يشبه خجل ذلك الرجل الذي تحدث عنه تاركوفسكي: رجل يتعرض لحادث في الشارع فتقطع ذراعه، وحين يتجمع المارة حوله بانتظار وصول سيارة الإسعاف، يخرج الرجل منديلاً، ويحجب ذراعه من نظرات الآخرين إليه...

لكنّ حكاية علي البصراوي، كانت تغويني طوال الوقت للكتابة عنها، وعلى الرغم من أنها مثقلة بالأسى والعتمة مع مشاهد قليلة من سينما العالم الثالث التي تحاول استجداء عواطف مشاهدي الغرب، غير أنها أكدت لي في كثير من الأحيان على شعرية الوجه الإنساني المخبأ كجوهرة تحت ملايين الأطنان من زبالة هذه الحياة التافهة. وربما لكوني شاعراً، وأعيش لاجئاً في مثل هذا المكان، زريبة الأبقار، أملك قلباً قاسياً، أو ربما دماغاً لا يخلو من حكمة العبث السخيفة... دماغٌ يحاول أن يُعبّر بكلمات شحيحة، عن غضبه وشغفه بجوهر الرعب الإنساني، في آن واحد. لكنني كلما التفتُّ إلى شجرة، أو تأملت ليلة مليئة بذئاب الشك، تفتّق في قلبي ينبوع من الحزن الطفولي الساذج. أنا أعتقد بأن على الكتابة أن لا تعرج بسبب العاطفة المتواضعة التي تفوح من قمصان الجموع البشرية، والتي تتشابه، كمجموعة من المراحيض في حمام واحد. لكن حكاية علي، تسللت إلى دمي، وتمكنت من حلب دموعي لليالٍ عديدة. لقد بكيت على قلبي المتحجر، وبكيت لأن العالم أنقى وأجمل مما هو عليه بكثير.

حين وصل علي البصراوي إلى محطة اللاجئين في العام الماضي، حدثت ضجة كبيرة. أقام النزلاء حفلة صاخبة من الضحك والسخرية، حول ما كانت تحويه حقيبته الرصاصية. حقيبة سفر تصميمها يعود إلى خمسينيات القرن الماضي. وحال وصول علي، استدعى المسؤولون الشرطة التي حجزته ثلاثة أيام ثم أطلقت سراحه، لكنها لم تُرجع له الحقيبة إلا بعد ثلاثة أشهر. أثناءها تم فحص الحقيبة في مختبرات العاصمة. ومدير المحطة صدمه خبرُ إعادة الحقيبة بجميع محتوياتها.

في تسعينيات القرن المنصرم، كان علي يعيش مع إخوته السبعة الذين يكبرونه سناً في أحد الأحياء البائسة في البصرة. كان والده حارساً ليلياً لبضعة محلات تجارية في وسط المدينة، وكانت أمه، مثل أغلب الأمهات العراقيات، عبارة عن كائن صُبّ على رأسه وحولهُ الحزن والظلم والوحشية. يسهل للغاية نفي وجود الله عند معرفة يوم واحد من حياة أم عراقية. قد تبدو هذه المشاعر مجرد عاطفة رومانسية ساذجة. لكن لو كانت هناك كاميرات خفية تعرض للعالم ما يحدث للمرأة في بيوت الكراهية العراقية، لتكلم الحجر، شاتماً وجوده ومن أوجده. أخوة علي كانوا قد ورثوا عن أبيهم الإدمان على تحميل الأم كل مصائب ومشاكل الفقر والأقدار. كانت تضرب من أجل أتفه الأسباب. وكانت الأم تعاتب دوماً ربها الذي لم يرزقها ببنت، تعاونها في أمور البيت وتعطف عليها. لم ينس علي بسهولة، ذلك اليوم الذي واصل فيه الأخ الأكبر لَكمَ ورَفسَ المرأة المسكينة إلى أن غابت عن الوعي، لأنها لم توقظه كي يذهب إلى السوق بحثاً عن عمل. كان رد فعل الأم الوحيد، على ما تتلقاه من عنف وإهانة، هو الجلوس قرب دولاب الملابس القديم والبكاء، ومناشدة الأولياء الصالحين لتخليصها من ظلمها. كان علي صبياً آنذاك. وكانت الأم تضمه إلى صدرها وتنتحب. ربما كانت تحضن ولداً سيكبر ليضربها.

يقول علي إنها حين تتعب من البكاء كانت تخرج من دولاب الملابس، حقيبتها الصغيرة. الشيء الوحيد الذي تملكه، حقيبة سفر قديمة، فيها مشط خشبي، ومرآة، وصورة للإمام علي، وقرآن ملفوف بقطعة قماش خضراء، وصورة لها بالأبيض والأسود، حين كانت شابة، تجلس مع أبي علي الكورنيش. كانت تفك فوطة رأسها السوداء، وتبدأ بتمشيط شعرها الأبيض مثل البلهاء ساعة بكاملها، وهي تدندن بلحن أغنية قديمة، تتحدث عن الحنين إلى الأم.

لكن ربما لقي دعاء المرأة المتواصل لتخليصها من هذه الحياة، آذاناً صاغية لدى شياطين السماء. فقد ماتت فجأة بالسكتة الدماغية. لينتظر

علي بعد موتها سنوات أخرى، قبل أن يحقق انتقامه من أخوته وأبيه كومةِ الخراء الذي يعيش اليوم مشلولاً فوق كرسيه المتحرك.

خطط علي لكل شئ بهدوء ودقة لأكثر من عام. كان القرار هو الهروب إلى إيران أولاً. وفي ليلة الرحيل دخل غرفة أمه، وأخذ حقيبتها ثم تسلل هارباً. كان صديقه عدنان ينتظره في طرف الزقاق وهو يحمل معولاً ومسحاة في شوال. أشعل الصديقان سيجارتين وانطلقا صوب المقبرة. كانت السماء صافيةً، وثمة قمرٌ بحجم الألم ينير القبر الذي نبشه الصديقان. وبقطعة قماش برتقالية، نظف علي عظام أمه ثم وضعها في حقيبتها القديمة.

حمل علي أمه في الحقيبة وهرب إلى إيران. كان سعيداً بانتقامه. متخيلاً وجوه الجميع الممتقعة كما وجوه الموتى حين يكتشفوا الأمر. ولم تفارقه حقيبة العظام طوال رحلته الثانية إلى تركيا عبر الجبال. كان ينام في الوديان مع المهاجرين الآخرين، وهو يحضن الحقيبة بقوة، وحب، وتقديس. كانت حقيبته الغريبة ومبالغته في الحرص عليها، سبباً للتندر والهزء. لكنه لم يكن يأبه لذلك، ولم يكن يفضي بسرّ الحقيبة لأيٍّ كان. عمل طوال عام في اسطنبول في معمل لصناعة البالونات، كي يقدر على مواصلة رحلته في دروب الهجرة السرية. وطوال عام، وعلي، يحدث أمه في الليالي، عن البلد البعيد الذي اختاره للعيش بسلام. وعن رغبته في البدء بحياة جديدة ونسيان العذاب. لكنه صار يعاني بسبب الأم التي حشرها في حقيبة...

وحين حلت أقسى أيام البرد في اسطنبول، كان علي قد اتفق مع مهرب للسفر معه مشياً على الأقدام عبر الحدود التركية اليونانية. فالشتاء هو أفضل الفصول لعبور الحدود، حيث يتكاسل الجنود حراس الحدود عن القيام بدورياتهم اليومية. رغم أن علي كان خائفاً من موضوع النهر الذي سيعبرونه. لكن المهرب طمأنه وأكد له بأن العبور سيكون بواسطة

قارب يكفي الجميع، فلا يمكن السباحة في نهر بارد. رغم ذلك اشترى علي أكياساً من النايلون، وقام بلف عظام أمهَ.

ما أن سارت المجموعة خلف المهرب في الغابة حتى صاح جنود الحدود اليونانيين على المجموعة، وأمروهم بالتوقف. لكن المهرب طلب منهم أن يعدوا خلفه بأقصى سرعة، هاربين في ظلام الغابة، بين الأشجار الكثيفة. تاركين أطراف الأغصان تجرح وجوههم، وتمزق معاطفهم الشتوية. كان علي يركض بأقصى سرعته، وهو يضم الحقيبة إلى صدره، محاولاً أن يلازم المهرب لكي لا يظل طريقه، إلا أن اصطدم في جذع شجرة، ليرتد إلى الخلف ويسقط أرضاً، وتتناثر عظام أمه في ظلام الغابة. انحنى على الأرض، وهو ينزف من مقدمة رأسه، محاولاً جمع ما تناثر من العظام بذعر وإرباك. كان يتلمس العظام بحذر، قبل وضعها في الحقيبة من جديد. مسح الدم من فوق عينيه، وواصل الهرب مترنحاً. كان صياح الجنود يصل من بعيد بين الحين والآخر.

لقد نجت المجموعة من كمين جنود الحدود بإعجوبة، وبفضل ذكاء المهرب، ومعرفته دروب الغابة. لكن شاباً إيرانياً وآخر كردياً تاها في الغابة، وربما أمسك بهما الجنود. أما بقية المجموعة فقد وصلت إلى العاصمة أثينا بسلام. وسلم المهرب من تبقى منهم إلى مهرب يوناني عجوز، لنقلهم عبر البحر إلى إيطاليا.

أثناء مكوث علي في بيت في أثينا لتهريب المهاجرين، فحص ما في الحقيبة. كانت عظام أمه، والمرآة، والمشط الخشبي، وصورة الإمام علي، والقرآن كلها في مكانها. لكن ما كان مفقوداً هو الرأس الذي كان يلامس رأسه ويحنو عليه...

أكيد أن علي سيمضي مع حقيبة العظام إلى مكان آمن يدفنها فيه، ولا أحد غيره يعرف الطريق إليه. وقد يسمع هو وحده إحدى أغاني الأم التي ضاع رأسها في تلك الغابة...

# مجنون ساحة الحرية

قبل أن تحدث المعجزة، وأكتشف الحقيقة التي يرفضها أو يتناسها الآن الجميع، كنا في تلك الأيام التي لا تنسى، نحرس طوال الليل منصة التمثالين.

كانت بحوزتنا أسلحة خفيفة، وثلاثة مدافع هاون، وسبع قاذفات آر بي جي.

رفض وجهاء الحي، وأصحاب الرأي أمراً صادراً من الحكومة الجديدة بإزالة التمثالين. كانت لدينا معلومات أن الجيش سيقتحم الحي ليلاً. كنت أفكر حينها، أن هذه القضية ليست معركتي. لكن خداع النفس كان أهون علي بكثير من عار الهروب. ربما تنشب المعركة في أي لحظة. وربما أفقد حياتي من أجل هذين الشابين الحجريين، اللذين ينتصبان فوق المنصة بحركة ساذجة، وكأنهما على وشك السقوط من أعلى على أنفيهما. من الواضح أن النحات الذي قام بالعمل كان مجرد عامل بناء لا يفقه شيئاً في أمور النحت. لدى الإسلاميين المتشددين فتوى بإزالة جميع التماثيل في البلاد، لأنها أصنام تتعارض مع الشريعة. أما الحكومة الجديدة فقد قررت إزالة كل ما يرمز لفترة النظام الديكتاتوري السابق. رأى أهل الحي ووجهاؤه أن التمثالين لا علاقة لهما بالنظام السابق، ولا بفتاوى التحريم. لم أكن أصدق مثل هذا العبث.

قال أبي إنها معركة رمْزية مصيرية من أجل مستقبل الحي. لا أدري كيف يؤمن أبي بمثل هذه الخرافات، وهو الذي يدرّس العلوم في المدرسة الثانوية. طبعاً هناك عشرات الروايات عن قصة تمثال الشابين. لكن ربما

ما كان جدي يرويه هو أكثر الروايات قرباً من الحقيقة، فصبغة الواقعية في حكاية جدي كانت تضاعف من سذاجة أهالي الحي، على عكس نيته في إظهار طيبة وذكاء وكرم الأهالي . هذا ما كان يدور في ذهني حينها، قبل أن تتغير حياتي إلى الأبد.

ربما من الأفضل أن أعيد لكم بإيجاز صياغة حكاية جدي أولاً، قبل أن أروي ما حدث لي في ليلة المعركة. كان يقول بحزن شديد:

لا أحد يعرف متى ظهر الشابان بالضبط. كأنا بنفس العمر، والطول، وكأنا متشابهين مثل توأمين. ظن أهالي الحي أنهما من تلك الأحياء الغنية البعيدة، لكنهم لم يحزروا إلى أين كأنا يذهبان. كل منهما حمل حقيبة ظهر، وكأنا يرتديان ملابس أنيقة تنم عن ثراء مهذب. وأشد ما لفت انتباه أهالي الحي فيهما الشعر الأشقر والبشرة البيضاء. كان حي الظلمة من أشد أحياء المدينة بؤساً. كان سكنته ذوي أجسام هزيلة، وبشرات متفحمة، توارثوها عن أجدادهم الفلاحين. أهالي الأحياء المجاورة هم من أطلقوا أسم الظلمة على الحي الوحيد الذي لم تصله الكهرباء. وكما أظن، كانت هي المرة الأولى التي شاهد فيها أهالي الحي زواراً من هذا الصنف من البشر. كان الشابان يقطعان في كل صباح احد أزقة الحي باتجاه النهر البعيد، قادمين من جهة الأرض الجرداء التي تفصل بين حي الظلمة وحي العربنجية. كأنا يبتسمان لأطفال الحي نصف العراة بمودة وحنان، ويحييان الكبار بهزة خفيفة من الرأس تنم عن الإحترام. كأنا يتجنبان برك الوحل المنتشرة في الأزقة بتواضع وبساطة. لم يبديا تقززاً ولا تكبراً. وقد اعتبرهما أهالي الحي ملاكين هابطين من السماء. لم يكلمها أحد أو يسألهما أي سؤال محرج، أو يعترض طريقهما، أياً كان السبب. كان الحي مبهوراً بهالة النور التي كانت تشعّ من الشابين. كأنا يسيران بخطوات متزنة، واثقة، كأنهما تعلما المشي في مدرسة خاصة. وضاعف صمتهما من غموض إنسانيتهما. كأنا في غاية الأدب، وقورين، تلفهما مسحة خفيفة من المرح. أحب أهالي الحي الشابين. واعتاد الناس على طلعتهما الصباحية البهية. ويوماً بعد يوم ازداد

تعلق الناس بهذين الشابين الوسيمين، وأصبح قدومهما وذهابهما مثل طلوع الشمس وغروبها. كان الأطفال أول من تعلق بهما. كانوا يتجمعون في ساعة مبكرة من الصباح في أطراف الحي، منتظرين ظهور الشابين من تلك الأرض الجرداء. كانوا يتراهنون بصور السندباد على أي زقاق سيقطعه الشابان اليوم. وحين يصل (الأشقران) تدب السعادة في قلوبهم. كانوا يرافقونهما حتى عبورهما إلى الجهة الأخرى من الحي. يتقافزون حولهما، ويضحكون ويمسون بأطراف أصابعهم بوجل وفرح ملابس الشابين. كانت سعادة الأطفال تتضاعف حين ينحني الشابان برشاقة من دون أن يتوقفا عن المشي، كي يمس الأطفال شعرهما الأشقر. وتعلقت فتيات الحي بـ(الشُّقر). بدأت الحالة كأن عقداً مقدساً وسرياً أبرم بينهما والأهالي .

توالت الأيام من دون أن يجرؤ الطرفان على كسر حاجز الصمت أو الغموض. قبل ظهور الشقر، كان دخول غريب إلى الحي يعني انتحاراً. كانت الفتيات يطللن برؤوسهن من الشرفات والنوافذ، ليملأن عيونهن بوسامة الشابين، مع زفرات حارة كانت تطلقها صدورهن الملتهبة، بالعشق والصبا. وما أن يختفيا حتى تتيه الفتيات في أحلام اليقظة، وهن يستمعن لأغاني العشق من الراديو. فتيات كن يخرجن الراديو إلى الشرفات عند قدوم (الشقر)، فعسى أن تبث حينها الإذاعة أغنية حب. وحيث تصدح أغنية حب تقوم الفتيات برفع صوت المذياع إلى آخره، كأن الأغنية هي رسالة حب شخصية من صاحبة المذياع. وكان الشابان يقابلان كل ذلك بالمزيد من الاحترام، والتواضع، والمودة.

ومرت الأيام... كان جدي يطلق حسرة عميقة وهو يمد حرف الألف في كلمة الأيام.

ماتت عجوز، يقول جدي. وولد خمسون طفلاً في الحي من أمهاتٍ هزيلات وآباء عاطلين عن العمل. ومرّ الصيف وتحسنت أحوال بائعي الخضر. وأرجعت نساء الحي زيادة أجور أزواجهن الذين كانوا يعملون

في كنس الشوارع، وحراسة المدارس، وسط المدينة، إلى بركة (الشقر). ثم سرعان ما كف الأزواج المشككون ببركة الشابين عن الهزء، حين قررت الحكومة إدخال الكهرباء في مطلع الشتاء. أثر كل هذه البركات، قامت النساء بحملة لزراعة الزهور أمام أبواب بيوتهن، كي يتعطر الشقر أثناء مروهما المبارك بحي الظلمة. أما الرجال فردموا البرك الصغيرة كي لا تعيق مرور الشابين. وكانت هناك بارقة أمل على الوجوه أظهرت سمرتها النقية التي كان يغطيها سخام الحزن والبؤس. وأخذ الكل يعتنون بنظافة الأطفال، وخاطوا لهم ملابس جديدة، كما أمروهم أن يكونوا أكثر أدباً عند استقبال الشقر، وعلموهم أغنية لطيفة عن الطيور والربيع ينشدونها أثناء مرافقتهم الشقر. وما عزز كل هذا التقديس والإيمان تسلم مفاجئ لرجل من الحي أحد المناصب الحكومية المهمة. ووعد بتبليط الشوارع ومد أنابيب ماء الشرب. أما الشباب فقالوا للرجل بأن يطالب الحكومة بإيصال خطوط الهاتف إلى حي الظلمة. كما أذكر ما فعله الأهالي حين عرفوا بان جماعة من الأشرار تنوي الاعتداء على الشقر قرب النهر. تباحثوا في بيت المختار ثم أنذروا الأشرار بطردهم مع عائلاتهم من الحي إذا اعتدوا على الشقر. وهكذا تراجع الأشرار.

بعد عامين لا أكثر من ظهور الشقر، تحققت جميع الأماني، مثلما تتحقق المعجزات في الأساطير والحكايات:

تزوجت العوانس، وتم تعبيد الأزقة الموحلة، وشفي كثير من الناس من أمراض مستعصية، ونجح أكثر الأولاد في امتحانات المدرسة، وقبلها كانت نتائجهم فيها تدعو إلى الخجل. أما المعجزة الكبرى، فكانت سقوط الملكية بانقلاب قام به ضباط أبطال حظوا بتأييد الشعب. ومن الواضح أن كل هذا الخير والبهجة جاءا إلى أهالي حي الظلمة، بفضل الشقر. منذ ذلك اليوم ساد الوئام والمحبة بين سكان الحي، وعلى وجه التقريب اختفت العداوة والعنف. والجديد أيضاً أن المدارس صارت مختلطة – للبنين والبنات. كما شيدت الحكومة مستوصفاً قريباً من حي الظلمة،

صرت أبيع اللبلبي الحار أمامه. وقامت الحكومة بعمل منطقي جداً حين غيّرت الاسم من (حي الظلمة) إلى (حي الزهور). واختارت هذا الاسم بعد أن رفع مندوبها، الذي زار الحي تقريراً، ذكر فيه كثرة الزهور، ونظافة الحي أيضاً. ودخل الهاتف إلى كل البيوت تقريباً، كما لوحظ أن عدداً ليس بالقليل من السكان صار يملك سيارة. الجديد الآخر في الحي، أن المسنين يشاركون الآن في حملة محو الأمية، فها هم يواظبون على الدرس، وكشف أسرار الأبجدية، واللغة عموماً. باختصار، أخذت العافية تدب في جسم الحي بعد أن سرى الدواء فيه. لكن السعادة تبخرت في ذاك الصباح المشوؤم حين خرج الأطفال إلى أطراف الحي منتظرين قدوم الأشقرين، صباح الانقلاب العسكري الثاني. طال انتظار الأطفال ولم يقدم الشقر. لحقت بهم الأمهات وجلسن معهم على تلك الأرض الجرداء التي شقت الحكومة وسطها شارعاً عريضاً قطعته في ذلك الصباح الدبابات والسيارات المحملة بالجنود. بعدها جاءهم الباقون من أهالي الحي. وأخذ الكل ينظرون إلى الدبابات في الطريق العام، وهي تنفث دخأنا أسود. وكانت في القلوب مرارة وفي الحناجر غصة، وفي العيون دموع ساخنة...

وقبل أن ينفخ جدي لهب الفانوس ويطلق حسرته الطويلة كان يقول:

غابت الشمس، وحل الظلام من جديد...

بعد منتصف الليل كانت دبابات الحكومة الجديدة تقتحم الحي لإزالة منصة تمثالي الأشقرين بالقوة. وكان شبان ورجال الحي يتخذون من سطوح المنازل والأزقة مواقع قتالية. نشبت معركة طاحنة شاركت فيها حتى النساء. كنت قد تسللت مع ثلاثة أصدقاء من حاملي القاذفات لتدمير دبابة كانت تتحرك وسط الشارع العام. لكن قصف المروحيات أعاق تحركاتنا. اختبأنا خلف سيارة أجرة متوقفة فوق الرصيف. ثم اشتعلت النار في بعض المباني والدكاكين. وبدا أننا سنخسر المعركة لا محالة بسبب قصف المروحيات المتواصل. كسرنا زجاج نافذة التاكسي، واختبأنا في

الداخل، وكان في نيتنا أن نقود السيارة ونفر، عندما اشتعلت فجأة إحدى المروحيات في السماء، وهوت فوق سطوح البيوت. ثم أصابت قذائف مقاتلينا دبابة، وشاهدنا جنود الحكومة ينسحبون بذعر. بعد قليل شاهدنا مجموعة من شبان الحي وهم يندفعون كالمجانين، ويكبرون باسم الله، وهم يزخون الرصاص بطريقة عشوائية، فرحين وغير مكترثين للمعركة.

ترجلنا من سيارة التاكسي حين مر الشبان من قربنا، وفهمنا منهم أن الله قد حقق المعجزة. لقد أخبرنا الشبان أن الشقر قد عادوا إلى الحي وهما الآن يقاتلان بشراسة قوات الحكومة، وإن من أحرق الدبابات وأسقط المروحية هما الشقر لا غيرهما. كبر وهتف رفيقاي مع المجموعة، وهم يعدون باتجاه جنود الحكومة، ويرشقون الرصاص في كل اتجاه. أكيد أن هذا الحي هو مجرد مصحّ عقلي كبير. كنت أشعر بالغضب والكراهية وأنا أتسمر قرب التاكسي، وأراقب الجموع وهي تحتفل بنصر المعجزة. أشعلت سيجارة، وفكرت أن هجر هذا الكهف الذي يسمى حي الظلمة، هو الحل الأمثل لنهاية عذابي. وما أن استدرت خطوة للعودة إلى البيت، حتى سقط فجأة سيل من القذائف فوق أماكن عديدة من الحي. واحدة من هذه القذائف ألقت بي وبحطام التاكسي إلى الجدار القريب. كنت أرى لهب النار يحيط بي من جميع الجهات. لم أكن اشعر بالألم، وكان اختفاء الأصوات من حولي يشعرني بنوع غريب من السلام. لكن حين سحبني الشقر من أسفل حطام السيارة، شاهدتِ قميص أحدهما يتلطخ بدمي. كان أبي يقول إنني كنت فاقداً للوعي حين عثروا علي أمام باب البيت. لكنني متأكد من أن الشقر حملاني في نقالة إسعاف بيضاء اللون، وكأنا طوال الطريق يبتسمان لي، وكنت أمد يدي لملامسة شعرهما الأشقر الجميل.

بعض الشبان من الجيل الجديد في الحي يسمونني اليوم بمجنون ساحة الحرية. قامت الحكومة بزرع بعض الأشجار ووضع المصاطب في مكان تمثال الشقر، وثبتوا لوحة كبيرة كتب عليها اسم الحي الجديد: حي

الحرية. أعرف ما يقوله هؤلاء الحمقى، يدعون أن الشظية التي دخلت في رأسي قد أتلفت عقلي. لكنهم مجرد قرويين مازالوا يعيشون في عصور الظلام. لقد طالبت مراراً وجهاء الحي والأهالي بالتبرع بالأموال من أجل بناء تمثال الشقر، من جديد، والدفاع عن تاريخ الحي. وهذا أقل شيء يمكنني فعله، لرد جميل إنقاذهما لحياتي. ما يثير غضبي أنه حتى أبي لم يعد يؤمن بحكاية الشقر بعد أن حطم الجنود التمثال، وقتلوا العديد من الشبان في تلك الليلة. يدعي الأهالي اليوم أن معجزة ظهور الشقر في تلك الليلة، وقتالهما معنا هو مجرد دعاية رخيصة، أطلقها بعض الشبان لرفع معنويات المقاتلين من الأهالي . وأن جيش الحكومة قضى على المقاومة حتى قبل بزوغ الصباح. لكنني على يقين تام من أن الشقر، هما من حملاني على نقالة الإسعاف البيضاء، وبأصابعي هذه، مسست شعرهما الملائكي.

التقيت قبل أيام برجل غريب، أظنه رجلاً صادقاً، وغير مزيف، مثل أغلب أهالي الحي. جلس قربي على المصطبة في ساحة الحرية. وأخبرني أنه يصدق حكايتي عن ظهور الشقر في تلك الليلة. تحدث لي طويلاً عن ضياع تاريخنا وتراثنا بسبب عملاء الغرب ونسياننا لديننا. وأن الحرية الحقيقة هي أن لا نتحول إلى مسوخ في يد الكفرة. لكن ما لا أفهمه جيداً هو الحزام الواسع الذي لفه الرجل حول خصري صباح هذا اليوم في بيته. أشعر بالحر الشديد بسبب ثقل الحزام. سأجلس أسفل ظل الشجرة... اللعنة.. الأطفال والنساء يحتلون جميع المصاطب...

# كوابيس كارلوس فوينتس

في العراق كان أسمه سليم عبد الحسين، وكان يعمل في البلدية في أعمال التنظيف ضمن المجموعة التي خصصها مدير بلدية العاصمة لتنظيف مخلفات الانفجارات. مات في هولندا في العام ٢٠٠٩، باسم آخر: كارلوس فوينتس.

كان سليم يكنس بملل وقرف، مثل كل يوم أسود، هو وزملاؤه، سوقاً شعبياً انفجرت قربه شاحنة بنزين مفخخة. في السوق احترق الدجاج والخضروات والفواكه والبشر. كانوا يكنسون السوق بحذر وبطء. كانوا يخشون أن يجرفوا مع الأنقاض ما تبقى من أشلاء البشر. لكنهم كانوا يبحثون دائماً على حافظة نقود سالمة، أو ربما سلسة ذهبية، أو خاتم، أو ساعة لم تتوقف عن حساب الزمن. سليم لم يكن محظوظاً مثل زملائه في الحصول على مخلفات ثمينة للموت. كان بحاجة للنقود لشراء فيزا سفر إلى هولندا، والخلاص من جهنم الموت والنار. اللقيةُ الوحيدةُ التي عثر عليها كانت أصبع رجل يحمل خاتماً فضياً ثميناً وبالغ الجمال. وضع سليم حذائه فوق الإصبع، انحنى بحذر، وسحب بتقزز خاتم الفضة. ثم حمل الإصبع، ووضعه في كيس أسود، كانوا يجمعون فيه بقايا الأشلاء. الخاتم صار في أصبع سليم. وكان يتأمل شذرة الخاتم بدهشة وإعجاب، وفي الأخير تخلى عن فكرة بيعه. هل يمكن القول إنه كان يشعر بعلاقة روحية سرية مع الخاتم؟

***

أثناء تقديمه طلب اللجوء في هولندا تقدم أيضاً بطلب تغيير أسمه:

من سليم عبد الحسين إلى كارلوس فوينتس. وكان قد برر للمحقق في دائرة الهجرة طلبه بسبب خشيته من الجماعات الإسلامية المتطرفة. فحكاية طلب لجوئه كانت تتعلق بعمله مترجماً لدى الجيش الأمريكي، وخوفه من الاغتيال بسبب تهمة خيانة الوطن. كان سليم قد أستشار ابن خاله الذي يعيش في فرنسا، حول تغيير اسمه. اتصل به عبر الهاتف الخلوي من دائرة الهجرة، فسليم لم تكن لديه فكرة واضحة عن اسم أجنبي جديد يناسبه. كان ابن الخال، يسحب في شقته، نفساً عميقاً من سيجارة الحشيش حين اتصل به سليم. قال ابن الخال وهو يكتم ضحكة: (اسمع.. أنت محق تماماً، أن تكون من السنغال، أو من الصين، أفضل مئة مرة من أن تحمل في أوربا اسماً عربياً. لكن ليس من المعقول أن يكون اسمك جاك أو ستيفن... أقصد اسماً أوربياً.. ربما تختار أسماً لأسمر... من كوبا أو الأرجنتين، يتناسب مع لون بشرتك الداكن، مثل رغيف الشعير المطبوخ... ها ها ها ها). كان ابن الخال يبحث في كومة الصحف في غرفة المطبخ، وهو يواصل حديثه عبر الهاتف، فقد تذكر أنه قد قرأ قبل يومين أحد الأسماء، ربما كان أسماً أسبانياً في مقال أدبي لم يفهم منه الكثير. شكر سليم ابن خاله بحرارة على الخدمة التي قدمها له، وتمنى له حياة سعيدة في فرنسا العظيمة.

كان كارلوس فوينتس سعيداً جداً باسمه الجديد. أسعده جمال مدينة أمستردام أيضاً. لم يضع فوينتس الوقت. انخرط في كورس تعلم اللغة الهولندية، وقد قطع على نفسه عهداً بأن لا يتحدث بالعربية بعد اليوم، وأن لا يختلط بالعرب، ولا بالعراقيين، مهما كانت ظروف حياته، قال بصوت مسموع:

(كفى بؤساً، وتخلفاً، وموتاً، وخراءً، وبولاً، وبعراناً).

في العام الأول من حياته الجديدة لم يترك فوينتس شيئاً لم يقارنه بأحوال بلده الأول، أو أن يضع أمامه علامة استفهام أو تعجب. كان يسير في الشوارع، وهو يتمتم مع نفسه بتذمر وحسد:

- انظر إلى الشوارع كم هي نظيفة! انظر إلى مقعد المرحاض، يلمع من النظافة! لماذا لا نأكل الطعام مثلهم. نحن نأكل بنهم، وكأن الطعام سيختفي سريعا! لو كانت هذه الفتاة التي ترتدي تنورة قصيرة وتكشف عن ساقيها. تسير الآن في ساحة باب الشرقي، لاختفت عن هذا العالم! يكفي أن تسير عشرة أمتار قبل أن تبتلعها الأرض. لماذا الأشجار خضراء جميلة كأنها مغسولة بالماء كل يوم! لماذا لا نصبح مسالمين مثلهم! نعيش في بيوت كالزرائب بينما بيوتهم، دافئة، آمنة، ملونة! لِمَ يحترمون الكلاب مثل البشر! لماذا نمارس العادة السرية أربع وعشرين ساعة! من أين نأتي بحكومة محترمة مثلهم!

لم يترك كارلوس فوينتس شيئاً، لم يشعر تجاهه بالدهشة والمهانة في الوقت نفسه. من نعومة ورق التواليت في هولندا، إلى بناية البرلمان التي لا تحرسها سوى كاميرات المراقبة!

سارت حياة كارلوس فوينتس مثلما خطط لها، وكان يتقدم كل يوم في عملية دفن هويته وماضيه. وكان يسخر طوال الوقت من المهاجرين والأجانب الآخرين الذي لا يحترمون قوانين الحياة الهولندية ويتذمرون طوال الوقت. كان يصفهم بالجرابيع المتخلفة. يعملون في المطاعم بطرق غير قانونية، لا يدفعون الضرائب، ولا يحترمون أي قانون. همج من العصر الحجري. يكرهون الهولنديين الذين منحوهم خبزهم وبيوتهم. كان يشعر بأنه الوحيد الذي يستحق أن يتبناه هذا البلد الرحيم والمتسامح، وأن على الحكومة الهولندية أن تطرد كل من لا يتعلم اللغة بشكل جيد، وكل شخص يرتكب أبسط مخالفة، حتى لو كانت تتعلق بعبور الشارع بصورة مخالفة لنظام المرور. وليذهبوا ويتغوطوا هناك في بلدانهم المراحيض...

كان كارلوس فوينتس يعمل باستمرار ويدفع الضرائب، ويأبى أن يعيش على المساعدات الاجتماعية، لقد أجاد اللغة الهولندية بفترة زمنية قياسية، أدهشت كل من يعرفه. وتوجت جهود فوينتس في دمج روحه وعقله

بالمجتمع الهولندي بالحصول على صديقة هولندية طيبة القلب، أحبت فوينتس واحترمته. كان وزنها ٩٠ كيلو، ولها ملامح طفولية، تشبه ملامح رسوم الأطفال المتحركة. وكان فوينتس يجهد في معاملتها كرجل متفهم، ومتحرر مثل الرجل الغربي، بل أكثر قليلاً. بالطبع كان يقدم نفسه دوماً للآخرين على أنه مكسيكي الأصل، هاجر والده واستقر في العراق للعمل كمهندس في شركات النفط. وكان يحلو لكارلوس أن يصف الشعب العراقي بأنه شعب همجي، متخلف، لا يعرف ما معنى الإنسانية:

(إنهم مجرد عشائر متوحشة).

وأتاح له زواجه من الهولندية، وإجادته اللغة، وانخراطه في دورات عديدة عن الثقافة والتاريخ الهولندي، وعمله المتواصل، وخلو ملفه من أي مشكلة، أو مخالفة قانونية، أن يحصل على الجنسية الهولندية بوقت قصير جداً، لم يحلم أي واحد من المهاجرين به. وقرر كارلوس فوينتس أن يحتفل كل عام بيوم حصوله على الجنسية الهولندية. كان فوينتس يشعر أن جلده ودمه، قد تبدلا إلى الأبد، ورئتيه تتنفسان الحياة الحقيقية. ولكي يشد من عزيمته كان يردد دائماً:

- أجل، أعطني بلداً يحترمني، لأعبده طوال حياتي وأصلي من أجله.

هكذا كان الحال إلى أن ظهرت مشكلة الأحلام الليلية ولخبطت كل الأمور. أو كما يقال لا تصدأ الأمثلة والحكم القديمة أبداً، ما يصدأ فقط هو الإنسان. لهذا جرت الرياح بما لا تشتهيه سفينة فوينتس. كان أول الأحلام قاسياً وصادماً. فأثناء الحلم عجز عن الكلام بالهولندية. كان يقف أمام صاحب العمل الهولندي ويتحدث معه بلهجة عراقية، مما سبب ضيقاً وألماً فظيعا في رأسه. وكان يفيق وهو يتصبب عرقاً ثم ينفجر بالبكاء. أول الأمر ظن أنها مجرد أحلام عابرة ستزول حتماً. لكن الأحلام كانت تواصل القصف من دون رحمة. شاهد في أحلامه مجموعة من الأطفال في الحي الشعبي الذي ولد فيه، وهم يركضون خلفه، ويسخرون من اسمه الجديد.

كانوا ينادون خلفه ويصفقون: كارلوس الجبان.. كارلوس المنيوك.. كارلوس الزعطوط.

وكانت الأحلام المزعجة تتحول ليلة بعد ليلة إلى كوابيس مرعبة. حلم ذات ليلة بأنه يفجر سيارة وسط مدينة أمستردام. كان واقفاً في قاعة المحكمة وهو يشعر بالعار والخجل. كان القضاة صارمين لم يسمحوا له بالتحدث بالهولندية. كان قصدهم إهانته وتحقيره. جلبوا له مترجماً عراقياً طلب منه أن لا يتكلم بلهجته القروية التي لا يفهمها، وكل هذا كان يزيد من عذابه وحرجه.

راح فوينتس يجلس ساعات في المكتبة يبحث في الكتب التي تتحدث عن الأحلام. عثر في زيارته الأولى على كتاب بعنوان اللغة المنسية لكاتب اسمه إريك فروم. لم يفهم الكثير منه، كما لم تعجبه آراء الكاتب التي كانت غير مفهومة تماماً. فهو لم يكمل حتى دراسته الإعدادية. هذا محض هراء. قال فوينتس وهو يقرأ كتاب فروم: نحن نكون أحراراً خلال النوم، بل أكثر حرية مما نكون عليه خلال اليقظة... بل قد نشبه الملائكة من حيث عدم خضوعنا لقوانين الواقع. خلال النوم يتراجع ملكوت الضرورة ويخلي مكانه لملكوت الحرية وتغدو كينونة ال. أنا . مرجعية الأفكار والمشاعر الوحيدة.

أعاد فوينتس الكتاب وهو يشعر بالصداع. كيف نكون أحراراً ونحن لا نتحكم بأحلامنا؟ ما هذا الكلام الفارغ! سأل فوينتس موظفة المكتبة إذا كانت هناك كتب بسيطة تتحدث عن الأحلام. لم تفهم الموظفة سؤاله بالتحديد، أو أنها أرادت أن تعبر له عن مدى ثقافتها واطلاعها على هذا الموضوع. أخبرته عن كتاب يتحدث عن علاقة الطعام وطرق النوم بالأحلام، وراحت تفيده ببعض المعلومات وتسدي له بضع نصائح، كما دلته على مكتبة لديها مجلات مختصة بعالم الأحلام وأسراره.

كانت زوجة فوينتس قد انتبهت إلى سلوك زوجها الغريب وعاداته في الطعام والنوم، كما تغيرت أوقات دخوله إلى الحمام وخروجه. مثلاً لم

يعد فوينتس يأكل البطاطا التي كان يفضل كل أنواع طهيها. وكان يشتري باستمرار لحوم الطيور، والتي كانت أسعارها في الغالب مرتفعة. بالطبع لم تكن زوجة فوينتس تعلم بأنه قرأ أن تناول أي من الخضروات الذي تنمو داخل الأرض تكون في الغالب مصدر الأحلام التي تتعلق بماضي الإنسان وجذوره. فتناول جذور النباتات له مفعول يختلف عن تناول السمك الذي يعيش في الماء أو فواكه الأشجار. كان فونيتس يجلس إلى المائدة وهو يلوك لقمته مثل البعير. فقد قرأ أن مضغ الطعام بشكل جيد يساعد على التخلص من الكوابيس. لكنه لم يقرأ مثلاً عن لحوم الطيور أي معلومة، إلا أنه خمن بأن أكل طيور السماء قد يجلب أحلاماً أكثر سعادة وتحرراً. كان يزاوج بين مخيلته وخبرة الكتب في جميع محاولاته لـ (دمج الأحلام). في الأخير توصل إلى هذه الفكرة. فقد صار طموحه أكبر من التخلص من الأحلام المزعجة. يجب التحكم بالأحلام لتشذيبها وتنقيتها من كل الهواء الفاسد ودمجها بقوانين الحياة الهولندية النقية. على الأحلام أن تتعلم اللغة الجديدة للبلد كي تتمكن من تخيل صور وأفكار جديدة. يجب أن تختفي كل الوجوه الكالحة والبائسة القديمة. وهكذا ضاعف فوينتس قراءة الكثير من الكتب والمجلات التي تتحدث عن خبايا النوم والأحلام بأكثر من أسلوب وفلسفة. كفّ فوينتس أيضاً عن النوم عارياً، والاحتكاك بعري زوجته. وكان يرتدي أثناء النوم معطفاً سميكاً من الصوف كان سبب الشجار مع زوجته وذهابه إلى الصالة والنوم على الكنبة. العري يسحب النائم إلى منطقة الطفولة، هذا ما قرأه أيضاً. وكان يذهب للاستحمام كل يوم في تمام الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق، وحين يخرج من الحمام يجلس إلى الطاولة في المطبخ ليتناول بضع قطرات من زيت زهور الياسمين. وقبل أن يخلد إلى النوم كان يدون في ورقة، أهم الأغذية المهدئة التي سيشتريها في الغد. دامت الحال أكثر من شهر لكن فوينتس لم يصل إلى نتيجة طيبة. لقد كان صبوراً وذا إرادة لا تقهر، إلى أن أتت أيام راح يقوم فيها بطقوس سرية غامضة. كان يصبغ شعره وأظافر أصابع قدميه بالأخضر، وينام على بطنه، وهو يردد كلمات مبهمة. وفي إحدى الليالي صبغ وجهه

مثل الهنود الحمر، ونام وهو يرتدي بيجامة شفافة، لونها برتقالي، ويضع تحت وسادته ثلاث ريشات منزوعة من طيور مختلفة.

لم تكن كرامة فوينتس تسمح له بأن يطلع زوجته عما كان يحدث له. فقد وجد أنها مشكلته، وقادر على تجاوزها، فهو من تجاوز من قبل أصعب الظروف وأتعسها. بالمقابل كانت زوجته أكثر صبراً على سلوكه الغرائبي. فهي لم تنس طيبته وكرمه. قررت أن تمنحه فرصة أخرى قبل أن تتدخل وتضع حداً لما يجري. في ليلة من ليالي الصيف الجميلة كان كارلوس فوينتس نائماً وهو يرتدي بدلة عسكرية ويضع إلى جانبه بندقية من البلاستيك، من تلك التي يلعب بها الأطفال. وما أن تحول نومه إلى حلم، حتى تحققت للمرة الأولى إحدى أمنياته التي طالما انتظرها. لقد أدرك في الحلم أنه يحلم. هذا ما كان يبحث عنه بالضبط. أن يعمل وعيه داخل الحلم لكنس كل زبالة اللاوعي. وقف في الحلم أمام باب بناية قديمة تبدو وكأنها قد تعرضت في حياتها السابقة لحريق مدمر. وكانت البناية تقع وسط بغداد. وما كان يزعجه رؤيته الأشياء من خلال منظار البندقية التي يحملها بين يديه. اقتحم فوينتس باب البناية وراح يدخل شقةً، تلو أخرى، ويجهز على كل من فيها من دون رحمة. لم ينج من زخّات رصاصه حتى الأطفال. كان هناك صراخ وهلع وفوضى. لكنه كان بارد الأعصاب، وحصد ضحاياه بكل براعة ودقة. خشي أن يفيق قبل أن ينهي مهمته. وفكر: لو كانت عندي رمانات يدوية، لأنهيت العمل بأقصى سرعة في هذه البناية، والتوجه إلى مكان آخر. لكن حدثت مفاجأة صاعقة في الطابق السادس حين اقتحم أولى شققه، ووجد نفسه أمام سليم عبد الحسين! كان سليم يقف قرب النافذة عارياً، وهو يحمل مكنسة ملطخة بالدم. وبيد مرتجفة صوب فوينتس باتجاه رأس سليم الذي أخذ يبتسم، ويردد هازئاً:

- سليم الهولندي، سليم المكسيكي، سليم العراقي، سليم الفرنسي، سليم الهندي، سليم الباكستاني، سليم النيجيري.

انهارت أعصاب فوينتس وتضاعف ذعره. أطلق صرخة مدوية وبدأ يزخ

الرصاص على سليم عبد الحسين، إلا أن هذا قفز من النافذة ولم تنله رصاصة واحدة.

حين أفاقت زوجة فوينتس على أثر الصرخة، وأطلت برأسها من النافذة، كان كارلوس فوينتس ميتاً على الرصيف وبركة دم تكبر ببطء تحت رأسه. ربما سيغفر فوينتس للصحف الهولندية التي كتبت: (انتحار رجل عراقي ليلاً من الطابق السادس)، بدل من أن تكتب (انتحار مواطن هولندي). لكن فوينتس لن يغفر مطلقاً لأخوته الذين أعادوه إلى العراق ودفنوه في مقبرة النجف. غير أن أجمل ما في حكاية فوينتس صورته التي التقطها له أحد هواة التصوير الذي كان يعيش قريباً من مكان الحادث. ألتقط الشاب الصورة من زاوية منخفضة. كانت الجثة قد غطتها الشرطة، ولم يكن يبرز من أسفل الغطاء الأزرق سوى كف يده اليمنى. كانت الصورة بالأسود والأبيض إلا أن فص الخاتم في إصبع كارلوس فوينتس كان يشع باللون الأحمر في مقدمة كادر الصورة، وكأنه شمس في جهنم.

# معرض الجثث

قال لي قبل أن يخرج السكين: بعد دراسة ملف الزبون تكون ملزماً بتقديم نبذة مختصرة عن الطريقة المقترحة التي ستقتل فيها زبونك الأول وطريقة إشهار جثته في المدينة. لكن هذا لا يعني الموافقة على ما ستطرحه في تلك النبذة. سيقوم أحد المختصين بدراسة الطريقة المقترحة لإقرارها، أو اقتراح طريقة أخرى. هذا النظام يطبق على المحترفين أيضاً في كل مراحل عملهم. أريد أن أقول بأن هذا النظام سيبقى سارياً حتى بعد انتهاء مرحلة التدريب والاختبار التي تمر بها. لا تقلق، ففي كل الأحوال ستتلقى أجورك كاملة. لا أريد أن أخوض في جميع التفاصيل الآن. سأطلعك على الأمور بصورة تدريجية. بعد أن تستلم ملف الزبون لا تستطيع طرح الأسئلة بصورة مباشرة كما في السابق، عليك أن تقدم أسئلتك مكتوبة. جميع الأسئلة، واقتراحاتك، ونصوصك ستوثق في ملف خاص بك. لا يمكنك مطلقاً أن تكتب لي عن أمور العمل على بريدي الالكتروني، أو أن تهاتفني. ستكتب أسئلتك على ورق خاص سأقوم بتزويدك به لاحقاً. المهم أن تتفرغ الآن لدراسة ملف الزبون بدقة وصبر. أرجو أن تطمئن أننا لن نتخلى عن التعامل معك حتى إن فشلت في مهمتك الأولى. ستنتقل في حالة الفشل إلى العمل في قسم آخر وبنفس الأجور. لكن علي أن أذكرك مرة أخرى، لن تكون موفقة ومقبولة فكرة التخلي عن العمل بعد أول أجر تستلمه. لهذه الحالة شروط صارمة، وفي حالة موافقة الإدارة على فك الارتباط معك، ستخضع لاختبارات عديدة قد تستغرق وقتاً طويلاً. لدينا في الأرشيف ملفات نحتفظ بها كنماذج من المتعاونين، والعملاء الآخرين، من الذين قرروا إنهاء عقودهم بإرادتهم. في حالة تفكيرك بالأمر سنقدم لك

إحدى هذه النماذج للاطلاع على تجارب الآخرين. أنا على ثقة من قدرتك على مواصلة العمل والاستمتاع فيه. وسترى كيف ستتغير حياتك كلها. تفضل، هذه هي الهدية الأولى، لا تفتحها الآن. إنه أجرك كاملاً. أما الأفلام الوثائقية عن حياة الحيوانات المفترسة يمكنك أن تشتريها وسندفع لك لاحقاً ثمنها. حاول أن تراقب نظرة بقايا عظام الفريسة. تذكر دوماً يا عزيزي أننا لسنا إرهابيين هدفهم إيقاع أكبر عدد من الضحايا لتخويف الآخرين، ولا حتى سفاحين مجانين، نعمل من أجل المال. لا علاقة لنا بالجماعات الإسلامية المتطرفة، ولا بمخابرات دولة مشبوهة، ولا بكل هذه الهلوسات. أنا أعرف أن هناك أسئلة تدور الآن في ذهنك. لكنك ستكتشف تدريجياً أن العالم مشيد من أكثر من طابق، وليس من المنطق أن يصل الجميع إلى كل الطوابق، والسراديب بسهولة. لا تنس المناصب الرفيعة التي تنتظرك داخل نظام المؤسسة، إذا امتلكت مخيلة طازجة، شرسة، صادمة. كل جثة تنجزها هي عمل فني ينتظر منك اللمسة الأخيرة، ولتبزغ مثل جوهرة ثمينة وسط حطام هذا البلد. إشهار الجثة أمام الآخرين هو ذروة الإبداع الذي نبحث عنه، ونحاول دراسته والإفادة منه. أنا لا أطيق شخصياً العملاء ذوي المخيلة المجدبة. لدينا مثلاً عميل أسمه الحركي «سكين إبليس» أتمنى أن يتخلص المسؤولون منه بأسرع وقت. فهذا يظن أن تقطيع أوصال الزبون، وتعليقه على أسلاك الكهرباء في الأحياء الشعبية، هو نهاية الإبداع والابتكار. إنه مجرد مغرور أحمق. أكره طرقه الكلاسيكية. رغم أنه يتحدث عن كلاسيكية جديدة. كل ما يفعله هذا الأرعن هو أنه يصبغ أشلاء الزبون بالألوان ويعلقها بخيوط شفافة. القلب بالأزرق الداكن، المعدة بالأخضر، الكبد والخصيتين بالأصفر. هكذا من دون فهم شعرية البساطة. أنا أحدثك بشيء من التفصيل، ففي عينيك أرى تلك النظرة الحائرة. اهدأ، تنفس بعمق، وأصغ إلى إيقاع روحك السرية بهدوء وصبر. دعني أوضح لك بعض النقاط بطريقة أفضل، فربما تساعدك على التخلص من الأوهام التي تدور في ذهنك. ولأضيع بعض الوقت معك. ما سأقوله قد يكون مجرد انطباعات شخصية، ولربما لعضو آخر في الجماعة رأي مغاير تماماً.

في الواقع أنا أحب الإيجاز والبساطة والصورة الصادمة. خذ مثلاً العميل «الأصم» إنه هادئ وله عين ذكية صافية. وأكثر أعماله الفنية القريبة من قلبي هي تلك المرأة المرضعة. في صباح شتائي ممطر. كان جمع من المارة وسواق السيارات ينظرون إلى تلك المرأة العارية البدينة، وهي ترضع من ثديها الأيسر طفلها العاري أيضاً. وضع المرأة أسفل نخلة ميتة في الجزرة الوسطية لشارع مزدحم. لم يكن هناك أي أثر لجرح أو رصاصة، لا في جسد المرأة، ولا في جسد الطفل. كانت تبدو كأنها حية هي وطفلها تماماً، مثل جدول ماء صاف. إنها العبقرية التي نفتقدها في هذا القرن. كان عليك أن ترى ثديي المرأة الضخمين، ونحول الطفل الذي يبدو كأنه كومة من العظام مطلية بجلد طفولي فاقع البياض. عجز الكل عن معرفة الطريقة التي قتلت بها المرأة وطفلها. أغلبهم تكمن باستخدام سُم سري لم يصنف بعد. لكن عليك أن تقرأ فقط في أرشيف مكتبتنا تلك النبذة المختصرة الشاعرية التي كتبها «الأصم» عن عمله الفني الرائع هذا. هو الآن يحتل منصباً مهماً في مؤسسة الجماعة. إنه يستحق أكثر من ذلك بكثير. عليك أن تفهم جيداً أن هذه البلاد هي فرصة ثمينة أخرى من فرص هذا القرن. ربما لن يدوم عملنا طويلاً. فما أن تستقر أحوال هذا البلد سنغادر مرغمين إلى بلد آخر. لا تقلق، هناك أماكن عديدة مرشحة للعمل. اسمع... كانت لدينا دروس كلاسيكية في الماضي نعرضها على الطلاب الجدد من أمثالك. لكن الأمر تغير الآن كثيراً. أصبح الاعتماد على ديمقراطية المخيلة وعفويتها، وليس التلقين. أنا درست طويلاً، وقرأت الكثير من الكتب المملة التي تبرر ما نقوم به، وقبل أن أتمكن من العمل بطريقة مهنية. كنا ندرس بحوثاً تتحدث عن السلام. دروس مكتوبة ببلاغة مقرفة حقاً. كان هناك الكثير من الأمثلة الساذجة، والتي لا حاجة إليها لتبرير كل شيء. كان أحدهم يكتب عن قضية تتحدث عن أن كل أدوية الصيدلية، بل حتى معجون الأسنان البسيط، قد أنتج بعد التجارب المختبرية على فئران وحيوانات أخرى. إذن لا يمكن تحقيق السلام على هذه الأرض من دون التضحية ببشر المختبرات أيضاً. مثل هذه الدروس القديمة كانت

تبعث الملل واليأس. وجيلكم محظوظ للغاية في عصر الفرص الذهبية هذا. ممثلة سينمائية تلعق البوظة قد تجلب عشرات الصور والأخبار التي تصل حتى إلى أبعد قرية تتضور جوعاً، في هذه الأرض، طاحونة الصراخ والرقص. وهذا يحقق على الأقل ما أسميه بعدالة التعرف على تفاهة العالم، وجوهره الملتبس. فما بالك بجثة معروضة بطريقة مبدعة وسط المدينة. ربما تماديت كثيراً في الحديث معك. لكن دعني أصارحك بأني أشفق عليك. فأنت إما أن تكون أحمقاً أو عبقرياً. وهذا النوع من العملاء يثير فضولي. إن كنت عبقرياً فهذا أمر مسّر. أنا ما زلت أؤمن بالعبقرية، رغم أن أغلب أعضاء الجماعة يتحدث عن التجربة والخبرة. أو إذا كنت أحمقاً فدعني أروي لك وقبل أن أنصرف، حكاية قصيرة ومفيدة عن أحد الحمقى الذين حاولوا أن يلعبوا معنا بسذاجة. حتى لقبه لم يكن يعجبني. «المسمار». بعد أن وافقت اللجنة على الطريقة التي اقترحها المسمار لقتل زبونه، وإشهار جثته في مطعم كبير، انتظرنا النتائج. لكن هذا تأخر طويلاً في إنجاز عمله. التقيت به أكثر من مرة، وسألته عن سبب التأخير. كان يقول إنه لا يريد أن يكرر أسلوب من سبقوه. ويفكر بتحقيق طفرة مبدعة جديدة في العمل. لكن الحقيقة كانت غير ذلك. كان المسمار جبأنا تسربت إلى داخله مشاعر إنسانية تافهة، وأخذ يتساءل مثل كل مريض عن جدوى قتل الآخرين، وعما إذا كان هناك خالق يراقب كل أعمالنا. وهذا كان يعني بداية الهاوية. فكل طفل يولد في هذا العالم هو مجرد احتمال. إما أن يكون طيباً، أو شريراً، حسب تصنيف مدارس التربية الدينية في هذا العالم الأخرق. لكن الأمر مختلف بالنسبة لنا. كل طفل يولد ما هو إلا زيادة في حمولة المركب الذي هو على وشك الغرق. على كل حال، دعني الآن أحكي لك عما حدث للمسمار الذي سار بنفسه صوب حتفه:

كان له قريب يعمل حارساً في المستشفى وسط المدينة. كان المسمار يفكر في التسلل إلى مشرحة الموتى في المستشفى، واختيار جثة بدل أن يصنع جثته بنفسه. وقد تحقق ذلك له بسهولة بعد أن قدم لقريبه

نصف الأجر الذي تلقاه من الجماعة. كانت المشرحة مكتظة بالجثث التي خلفتها تلك الأعمال الإرهابية الساذجة. جثث تمزقت في انفجار سيارات مفخخة، وأخرى قطعت رؤوسها في تصفيات طائفية، وجثث انتفخت في قاع النهر، وأخرى عديدة غبية كانت قد أنجزت بفعل أعمال قتل عشوائية لا تمت إلى الفن بصلة. تسلل المسمار في تلك الليلة إلى مشرحة المستشفى، وراح يبحث عن الجثة المناسبة لإشهارها أمام الجمهور. كان المسمار يبحث عن جثث الأطفال لأنه قدم في تقريره الأول فكرة عن نهاية طفل في السادسة من عمره.

في المشرحة كانت هناك نماذج من جثث أطفال المدارس التي مزقتها السيارات المفخخة، أو المحترقة في أحد الأسواق الشعبية، أو أشلاء مبعثرة بعد قصف الطائرات للبيوت. أخيراً اختار «المسمار» جثة طفل فصلوا رأسه، مع رؤوس عائلته لأسباب طائفية. كانت الجثة نظيفة وبدت حواف الرقبة كأنها أطراف ورقة ممزقة. فكر «المسمار» في عرض هذه الجثة في مطعم وأن يضع على المائدة عيون أفراد عائلته مقدمة في صحون الدم كحساء. ربما كانت فكرة جميلة. لكن قبل كل شيء كان عمله تزويراً وخيانة. فلو كان قد فصل رأس الطفل بنفسه لجاء ذلك عملاً فنياً أصيلاً. لكن أن يقوم بالسرقة من مشرحة الموتى ويعمل بهذه الطريقة الوقحة، هو عار وجبن في الوقت ذاته. لكنه لم يفقه أن العالم اليوم متصل بعضه ببعض بأكثر من نفق ودهليز. كان مرمم الجثث هو الذي قبض على المسمار، وقبل أن يخدع الجمهور المسكين. كان مرمم الجثث في بداية الستين من عمره. رجل عملاق. ازدهر عمله في المشرحة بعد أن تكاثرت الجثث الممزقة في البلاد. كان الناس يقصدونه كي يرمم جثث أبنائهم وذويهم الذين مزقتهم الانفجارات، والقتل العشوائي. كانوا يدفعون بسخاء لكي يعيد أبناءهم إلى صورهم الأولى التي عرفوهم بها. كان مرمم الجثث فنأنا كبيراً حقاً. وكان يعمل بصبر وبحب هائل. اقتاد المسمار في تلك الليلة إلى غرفة جانبية في المشرحة، وأحكم إغلاق الباب. بعد أن حقن المسمار

بحقنة مخدرة، تركته مشلولاً عن الحركة من دون أن يفقد وعيه. مدده على طاولة التشريح، وأوثق يديه وساقيه وكمم فمه. وكان يدندن بأغنية أطفال جميلة بصوته النسائي الغريب، وهو يحضر طاولة عمله. أغنية تحدثت عن طفل يصطاد الضفادع في بركة دم صغيرة. وكان من حين إلى آخر يمسد بحنان شعر المسمار ويهمس في أذنه:

أوه عزيزي.. أوه صديقي... هناك ما هو أغرب من الموت، أن تنظر إلى العالم الذي ينظر إليك، لكن من دون أي إشارة، أو فهم، أو حتى قصد. وكأنك والعالم متحدان بعماوة، مثل الصمت والوحدة. وهناك ما هو أغرب من الموت بقليل: رجل وامرأة يلعبان في السرير، فتأتي أنت لا غيرك. أنت الذي تكتب دوماً قصة حياتك بالخطأ.

وكان مرمم الجثث قد أنهى العمل في ساعة مبكرة من الصباح.

أمام باب وزارة العدل، كانت هناك منصة مثل منصات تماثيل المدينة، مشيدة من عجينة اللحم والعظام. فوق المنصة ينتصب عمود من البرونز، علق عليه جلد المسمار المسلوخ كاملاً ببراعة كبيرة. كان يرفرف مثل علم نصر. وكان يمكنك أن ترى بوضوح في الجزء الأمامي من المنصة العين اليمنى للمسمار مثبتة في عجينة لحمه. كانت لها نظرة تشبه نظرة عينيك التافهة الآن. هل تعرف من هو المرمم. إنه مسؤول أهم قسم في المؤسسة. إنه مسؤول قسم الحقيقة والإبداع.

ثم طعنني بالسكين في بطني، وقال: أنت ترتجف..

# عادة التعري السيئة

للخوف رائحة أيضاً كما تعرفون...

كانت تفوح من الرجل رائحة السمك المدخن وهو يروي لي حكايته. شعرت بأنه صادق ونزيه، لكن هدوءه كان يبدو لي غير حقيقي. لا يحالفنا الحظ كثيراً بلقاء من عنده حكاية ممتعة ومثيرة كحكاية هذا الرجل الأصيل. من الأفضل القول (أصيل) بدلاً من القول (مجنون). فالأصالة أن تحادث الآخرين رغم كوابيس الرعب والألم. السخرية عن طريق الصمت لغة أصيلة أيضاً لكنها أصالة تحفها بعض المخاطر. فالساخر قد يقفز إلى منصة الغرور أيضاً. بينما تواضع المرعوب الذي يفضي بهواجسه وأسراره، بكل خفة ويسر، هو نقاء وشفافية. لا أقصد المتباكي أو الشاكي. كما أظن أن لمغزى حكاية الرجل صلة بهواجسي من سني الشباب الأولى. وكانت مخيلتي قد قادتني إلى دروب التعري، في حين أن الرجل كان ضحية للعبة الزمن القائمة على ضرب بعض المؤخرات البشرية كما تضرب الكرات المطاطية. في الحقيقة لم أزمع الزهد، ولا الخلاعة في أن أكون عارياً باستمرار. فأنا تعريت في مخيلتي وأبديت الآراء والأفكار، ورسمت صوراً فنية وحياتية مثل من يمارس جنساً لذيذاً. فكل شئ مسموح به: المص، العض، التلوي، الشم، الانقضاض، التشنج، الرعشات، الذوبان، الحر والربيع، الجلد والصفع، الفحيح والزحف، التكبر والإذلال، التأوهات والخرمشة، البلوغ والميوعة، والاختفاء. وكم من مرة قلت إن الحقيقة هي القِدر الذي يغلي في داخلي. أن أجوع أو أمرض. افتح غطاءه وأتقيأ. كنت أتعرى لأغازل ذهني مثل من يدلل امرأة. أتعرى للمواساة. أو لعلي كنت أخلط بين فكرة الصدق والجرأة. أو ربما كنت أتعرى كي تتشتت الذكريات المثقلة بالعداء. علي

القول أيضاً إني كنت أتعرى من دون شعور بالذنب أو امتلاك الأمل. أنا أتعرى حراً كي أرفع صليب الحرية. لكنني اليوم أخشى أن يحجب عني هذا النوع من الشعر رغبتي في الهدوء. كلا، ليست في نيتي السكوت. فأنا أخطط لجرائم متخيلة هدفها التسلية لا غير. هي ألعاب دموية صغيرة قد تصلح كدروس إضافية لطلاب المدارس الثانوية مع مادة تأريخ الأحاسيس. أعرف أن القرف بدأ يتسلل إليكم من هذه الهلوسات، فأنتم هنا من أجل سماع حكاية الرجل. إليكم إذاً حكايته كما رواها لي، وكل عام وأنتم بألف خير وسلام، فاليوم هو عيد الموتى في عدد من البلدان.

كان ذلك في الشتاء الماضي. كنت عائداً من جولاتي الروتينية في وسط المدينة. جولات حرة، الغرض منها «تلقيط الرزق» مثلما نقول في البلاد. كنت أجمع ما يمكن الحصول عليه من بعض البارات المنزوية: حديثاً عابراً، كسّاً، بيرة مجانية، سيجارة ميرهوانا، نقاشاً فوضوياً عن أمور السياسة، شجاراً مع سكير آخر، أو ازعاج الآخرين بحجة السكر من أجل التسلية. المهم أن يمر النهار وفيه لمسة إنسانية مهما كانت صغيرة... أنت تعرف... وفي يوم ظهور الذئب تعرفت على فتاة غريبة... يوم الشؤم... هل تؤمن بالوجوه المشؤومة... هناك وجوه تلتقيها شبيهة برموز الأحلام الليلية. أنت فنان ومخيلتك تسهل لك فهم ما أعنيه... أليس كذلك... أنتم الفنانون مزارعو حقول الأحلام. هل يعجبك هذا؟ نعم، أنا أؤمن بالأحلام أكثر من إيماني بالله. الأحلام تدخل فيك وترحل ثم تعود بثمار جديدة. أما الله فهو صحراء شاسعة لا غير. تخيل أن رساماً هندياً في مدينة دلهي يعمل الآن في موضوع ما، يتكون أيضاً في حلم رجل ينام في مدينة تكساس... أوكيه... كسها وكس أمها... لكن هل توافقني الرأي بأن جميع الفنون تلتقي بهذه الطريقة. وربما الحب والتعاسة أيضاً. إذا كتب مثلاً شاعر عن الوحدة في فنلندا، فستكون قصيدته حلم إنسان نائم في بقعة أخرى من الأرض. ولو كان هناك محرك بحث خاص بالأحلام مثل محرك غوغل، لعثر جميع الحالمين على أحلامهم في أعمال فنية. يدخل الحالم كلمة أو بضع كلمات من حلمه إلى محرك بحث الأحلام، فتظهر

آلاف النتائج. وكلما حُصر البحث يصل إلى حلمه، ويعرف أنه ما كان لوحة أو قطعة موسيقية أو جملة في مسرحية. كما سيعرف في أي بلد كان حلمه. نعم، أنت تعرف... ربما الحياة... أوكيه... كسها وكس أمها... كان للفتاة وجه مدهش- بدا كأن إبرة ماكنة الخياطة الكهربائية قد وخزته لساعات طويلة. عشرات الثقوب الصغيرة المتجاورة انتشرت على بشرتها. قالت لي أنها إسبانية. ثم أخبرتني بعد خمس دقائق أن أمها مصرية وأبوها فنلندي. لا تعرف سوى ثلاث كلمات عربية لها علاقة بالأعضاء الجنسية، وشتيمة ضد الله فيها كلمة خراء. العاهرة، شربت ثلاثة أقداح بيرة على حسابي، وذهبت تنتظر في الزاوية المعتمة. ماذا تنتظر برأيك؟

أكيد زباً آخر يصرف عليها بسخاء أكبر. خسرت أنا في ماكنة القمار ٢٠ يورو. شعرت بالإنهاك والجوع. ثم لوحت لصاحبة الوجه المشؤوم بحركة مسرحية ساخرة، وصحت قبل أن أنصرف وكأنني أخاطب جماهيراً غفيرة: تحيا الحياة...

في الطريق إلى البيت، لم يفارق ذهني وجه الفتاة. خُيّل لي أنني التقيتها منذ زمن بعيد، في إحدى الأسواق الشعبية في البلاد. لا ادري لم تصورتها تجلس ملفوفة بعباءة سوداء وتبيع الفلفل الأخضر والأحمر. أنا متأكد من أن ثلاث أو أربع علامات شؤم تضافرت في ذلك اليوم، للإيقاع بي في تلك الورطة. إسمع... لن تصدق ما حدث... كالعادة، ما أن دخلت شقتي، خلعت ملابسي وتعريت تماماً. كنت في طريقي إلى الحمام، حين لمحته يعدو صوبي من غرفة الاستقبال. قفزتُ إلى الحمام وأقفلتُ الباب، كنت مثل شاهد ملاك الموت. كان ذئباً، والله ذئب... لكنك ستقول ربما يكون كلباً... أول الأمر لم يكن هناك حين نظرت من ثقب المفتاح. كنت أرتجف حقاً. عم صمت مرعب لدقائق طويلة. وبعد عدد من مرات النظر من الثقب، تأكدت من أنه ذئب. وصلني لهاثه، ثم رأيته وهو يشم بنطالي ولباسي الداخلي عند باب الشقة. جلس بعدها و أخذ يرمق بحزن باب الحمام.

ذئب في وسط المدينة وفي بناية سكنية وداخل شقتي أنا بالذات!
جلست على مقعد المرحاض، وأخذت أفكر: لا أحد غيري يملك مفتاح الشقة، ثم أني أسكن في الطابق الرابع، وحتى وإن افترضنا أنه... أوكي... طار... ودخل من الشرفة، فباب غرفة الاستقبال المطل على الشرفة مقفل دائماً. تبولت من دون أن أشعر بتدفق البول. كنت كالمشلول، عارياً فوق مقعد المرحاض وفي شقتي ذئب. ما هذا العبث؟

أخذت ألوم نفسي وأشتمها. لم أتعرّ مثل قحبة كلما دخلت شقتي. لو كان هاتفي النقال معي لاتصلت بالشرطة، وانتهى كل شيء. أي كيس قذارة أنا؟ سكير عاطل عن العمل، أجوب البارات لالتقاط رزقي، ومِن مَن؟ من محطمين لا يقلون عفونة عني. من أناس سحب العالم الجديد واللامع البساط من تحت أقدامهم. خذ مثلاً، امرأة بدينة في نهاية الثلاثين من العمر، تبحث عن مضاجعة عابرة مع مهاجر لاجئ لم يبقَ برغي واحد لم يصدأ فيه. نحن الذين من دون مؤخرات مشدودة وشهية. لدينا ثقوب للخراء فقط... كسها وكس أمها... حتى الفتاة التي التقيتها في ذلك اليوم، صاحبة الوجه المطرز بالثقوب لم تقتنع بدعوتي. انتقلت إلى طاولة أخرى وراحت تنتظر زبالة أفضل. لو قبلت دعوتي للنياكة وعادت معي إلى الشقة، لهربت واتصلت بالشرطة أو الجيران. ربما لأكلها الذئب. أي ذئب؟ مستحيل، لابد أن هناك خطأ في تسلسل أمور الواقع أو هي هلوسة، كنت أتكلم بهذا الشكل مع صورتي في المرآة.

نظرت من الثقب مرة أخرى. كان رابضاً في مكانه. لغاية الصباح بقيت ساعات قلائل. فكرت في أن أحدهم سيقلق على غيابي في النهار القادم. أكيد أنها فكرة مضحكة، وغرضي منها مواساة موهومة. فأنا أعيش وحدي منذ سنوات، ولا أعرف سوى فزاعات البارات المنزوية. وهؤلاء يشبهونني. وحيدون يلتقطون رزقهم. وإن لم يحصلوا على شيء، يعودون إلى أسرتهم القذرة ليأكلهم الحزن والليل. الوحيدون الذين يمكنهم أن يطرقوا بابي هم جماعة شهود يهوه. وهؤلاء اختفوا منذ مدة. ربما أصابهم اليأس من

سخريتي المتواصلة من ربهم. أغرقوني بمجلاتهم. رغم أنني كنت استمتع بجملة واحدة من أكداس كتبهم ومجلاتهم. الممتع في تلك المجلة، هي تلك المحاولة اليائسة للوصل بين كشوفات العلم وقصص الكتاب المقدس. كانت تزورني من شهود يهوه فتاتان جميلتان. مخيلتي المريضة كانت تدفعني إلى الترحيب الحار بهما. كنت أظن أن إقامة علاقة جادة معهما يمكن أن تنتهي بمضاجعة حامية. تخيّلْ: فتاتان من شهود يهوه، عاريتان في سريري. واحدة تمص زبي والأخرى تعطي بظرها للساني، وهي تقرأ مقطعاً من الكتاب المقدس. كنا نتحدث عن مواضيع كثيرة. وكان الموضوع الذي أثارني أن جماعة يهوه لا يؤمنون، كما اليهود بعملية نقل الدم. كنت أمزح معهن قائلاً إن الدم لذيذ، وهو شراب مصاصي الدماء. كنت أتكلم معهن عن أهمية الدم. يقول مدير مركز أخلاقيات علم الاحياء في جامعة بنسلفانيا وبكل برود علمي: أهمية الدم في العناية الصحية تضاهي أهمية النفط في قطاع النقل. وحين تستخرج سنوياً البلايين من براميل النفط لسد حاجة البشر إلى الوقود، يسحب من المتبرعين نحو ٩٠ مليون وحدة دم لإنقاذ البشر. هذا الرقم الضخم يعادل كمية الدم الذي يسري في عروق حوالي ٨,٠٠٠,٠٠٠ إنسان. رغم ذلك يبدو أن مخزون الدم لا يكفي. شأنه شأن النفط. والتحذيرات مستمرة من هذا النقص. كان كوكتيل المعلومات العلمية هذه، أو ثرثرتي الجادة، بتعبير أدق، من أجل أن تعرف فتيات يهوه، بأني كنت حقاً إنسأنا مهماً في بلدي، وقبل أن أصل إلى فنلندا ويصيبني العقم. أخبرتهن إنني خبير في اللغة العبرية. وكنت أترجم لوزراة الدفاع وجهاز المخابرات بعض التقارير السرية. وأضفيت أهمية بوليسية وبعض المغامرات على طبيعة مهنتي. كنت أهذي معهن طويلاً، واستعرض ما في مخيلتي أثناء الحوار مازجاً الجد بالهزل. أطرح الأسئلة أيضاً، وأجيب عنها بنفسي، بينما تجلس الفتاتان مثل حمامتي سلام. تبتسمان وكأنهما وصلتا للتو من السماء. لكن ماذا لو تفشى وباء مميت في العالم، واحتاج كل إنسان إلى دم جديد؟ وقبل أن تحزر الفتاة الكبيرة الجواب، كنت أقول مثل خبير يشرح علم الجينات: أكيد أن حرباً

كونية جديدة ستندلع، مع ذلك لا داعي للقلق، ففي حالة نشوب الحرب من أجل الدم، أعتقد أنها ستكون حرباً نظيفة يمنع فيها استخدام أي سلاح تقليدي، أو متطور، ولا حتى سكين لتقشير الفاكهة، فستكون حرباً مثل لعبة كرة القدم الأمريكية، وجنوده سيرتدون ملابس رياضية خفيفة. بالطبع لا فائدة من حرب تسيل فيها الدماء عبثاً، في حين أن العالم بأمس الحاجة اليها، لذا لا تهاون ولا رحمة مع الجندي الذي سيستخدم أي سلاح.. لكن أي حرب هذه؟!... كسها وكس أمها... مهمة الجيوش المتقاتلة ستكون أسر أكبر عدد من جنود العدو. يشتبك الجنود مع بعضهم البعض، ويحاول كل طرف أسر أكبر عدد من جنود العدو ثم نقلهم في شاحنات تنتظر في الخطوط الخلفية. ستكون آخر الحروب، وتنتهي حين يسحب دم آخر إنسان. تنقل الشاحنات أقفاص الجنود الأسرى إلى مختبرات سحب الدم الذي يوزع بعدها بصورة عادلة على المواطنين... ابتعدنا عن الحكاية... هل تصيبك ثرثرتي بالدوار... كسها وكس أمها... أوكيه... كنت أكلم نفسي وأنا أرتعش: الذئب يا ربي... الذئب! لم لا يتزحزح من مكانه. لم لا يذهب على الأقل إلى غرفة المطبخ، ليبحث عن شيء يأكله. الحركة الوحيدة التي كان يقوم بها أثناء تحجره أمام باب الحمام هي شم لباسي الداخلي، بعدها يرمق الباب بعيني قاتل. أكيد أنها كانت فكرة خرائية، خروجي من الغابة والعودة إلى العيش في المدينة. لكن اللعنة على البعوض مصاص الدم. هل تعرف أن أنثى البعوض هي التي تتغذى على دم الإنسان، بينما الذكر لا يحتسي سوى عصارة النباتات ورحيق الأزهار. لقد مكثت أكثر من خمسة شهور في الغابة. أصيد السمك كل يوم في البحيرة القريبة، وفي المساء أترجم كتاباً شيقاً يتحدث عن أصول اللغة العبرية. كنت سعيداً بعزلتي، بهبات الغابة: نسيان لعالم البشر. كنت أشرب النبيذ الأحمر وباعتدال. لكن المصيبة كانت أن جميع المراهم التي طليت بها وجهي وجسدي لم تصد هجمات البعوض. وكيف أشعر بالسكينة وعصابة البعوض تحلق فوق رأسي طوال النهار، مثل هالة المسيح في الرسومات القديمة. في الليل تخترق إناث البعوض الشراشف مثل المدرعات، وتمص دمي بشبق وشراهة.

سخر مني صاحب البيت حين حدثته عن البعوض. قال إن البعوض يحبني كثيراً. أخيرا توجت معاناتي من البعوض بمغص شديد في معدتي. أخبرني الطبيب إنها مجرد خربطة في تناول الطعام، وعليّ بتناول الخضروات. قال أيضاً أن من الأحسن لي العودة إلى المدينة والاختلاط بالناس. واضح أن المعدة تتأثر بحالات العزلة أيضاً. فهمت منه أيضاً إني تحدثت بطريقة غريبة عن نفسي. باختصار كان قصده حاجتي إلى طبيب نفسي. أوكيه... أنا مستمع جيد في أغلب الأحيان وأقدر النصائح. التزمت بالشق الثاني فقط من نصيحة الطبيب وعدت إلى المدينة والاختلاط بحثالات البارات المنزوية. خارج زجاجة الكحول، يكون العالم بحاجة إلى مصارع ثيران. داخل زجاجة الكحول، العالم مسرحية هزلية، بحاجة إلى المزيد من المهرجين... وكسها وكس أمها...

لم يكن في الحمام سوى المنشفة وأكوام من الجوارب والألبسة الداخلية المتسخة. كنت منهكاً وبرداناً. تأكدت من أن ضيفي لا يزال في مكانه. أخذت دوشاً ساخناً. وعدت للتفكير في الأمر. لو كان لي أعداء، ربما كان من المنطقي التفكير في أن العدو المفترض، جاء بالذئب إلى شقتي. لكن كيف يمكن جلب ذئب إلى شقة رجل آخر، بلا معونة من يعمل في حديقة الحيوانات، ومن دون سيارة خاصة بنقل الذئب. ربما يكون ذئباً أليفاً مثل الكلب. أو... ربما أكون قد جننت وأتوهم ما يحدث. هل يمكن لإنسان عاقل أن يصدق ما أرويه لك... لا تقل إنك تصدقني... لكنه... بحق يهوه وعباده وملائكته.. ذئب حقيقي... ربما كان الطبيب محقاً!

غطيت جسدي بالمنشفة وغطست في نوم عميق فوق الجوارب والألبسة الداخلية. وحين أفقت، داهمني صداع شديد، حفر في رأسي مثل جرافة مزمجرة. ربما كان النهار قد انتصف. الجنون الذي لا يصدق أيضاً هو أن الذئب باق في مكانه... خره... ألا يشعر بالجوع، ولِمَ هو جامد مثل أبي الهول! فكرة الجوع انسابت في دماغي مثل أفعى من زئبق. جزعت وأطلقت صرخة عالية. هل أبقى محبوساً في الحمام إلى أن أموت جوعاً،

لكن ألا يموت الذئب من الجوع أيضاً. معلوم أن الذئب يتحمل الجوع أكثر من الإنسان. لكن لدي الماء في الحمام أما هو فلا تفيده بشيء حنفية المطبخ. لكن قد يموت هو من العطش وأنا من الجوع. لا، لا... في المطبخ هناك قدر الحساء على الطاولة. لا أدري إن كان حساء الليلة الماضية سيعجبه. عموماً على الطاولة خبز أيضاً إن رغب...

انتابتني فجأة هستيريا فظيعة، ورحت أضرب على الباب بقوة، وأصرخ طالباً النجدة، ومن حين إلى آخر كنت أرقب ردة فعل الذئب اللعين من الثقب. أين الجيران، هل دخلت عليهم الذئاب... لا، لا .. لا يمكن أن أموت هنا في الحمام. فكرت أنه من الأفضل أن يأكلني على أن أموت بهذه الطريقة البشعة. ولم يأكلني! كنت أرد دائماً على مخاوفي أمام المرآة. ربما أتصارع معه، وأتمكن من الهروب، ربما يكتفي بجرحي. وحتى لو بتر ذراعي فقط، فهذا أفضل من أن أموت متعفناً في الحمام. طششت الماء على وجهي، وبقيت أغسل أسناني، وأدقق في ملامحي أكثر من ربع ساعة. كنت أركل الجدار أو أزمجر وأشتم. ثم جاءتني فكرة... لم لا افتح الباب وأرمي المنشفة وأرى ما سيحصل. لكن يا شجاع... ماذا لو نط بسرعة وتعذر عليك الهرب. قمت بجولة أخرى من الصراخ والضرب على الجدران، استخدمت علب الشامبو حتى تكسرت. جلست منهاراً مرة أخرى فوق مقعد المرحاض. كورت يدي مثل طاسة وشربت من ماء المغسلة، ثم انفجرت بالبكاء. ارتميت فوق بلاط الحمام البارد، منكمشاً على نفسي كمن يرغب عن إيمان وتوق في الاختفاء من هذا العالم.

في ساعة متأخرة من الليلة الثانية، قررت أن أضع نهاية لهذه المهزلة. إما أن يأكلني أو آكله بنفسي. كنت أشعر أن طاقة هائلة وقودها الانتقام قد تحركت في داخلي. سأمزق هذا الذئب التافه والجبان. سأقطعه وأشوي لحمه ورأسه أيضاً... كسها وكس أمها... فتحت باب الحمام ببطء. انتصب الذئب واقفاً. عدوت أنا بكل ما أملكه من قوة وقفزت تجاهه. كانت اللحظة الأخيرة التي أتذكرها هي قفزة الذئب نحوي...

كان ظلاماً بارداً ومخيفاً. ظلاماً أصمّاً. الشئ الوحيد الذي كان يعينني في الظلام تذكري ما حدث في اللحظات الأخيرة. رغم أن رعب اختفاء وجودي كجسد كان يشل محاولتي في أن أكون صبوراً ومنتظراً رحمة الله في ذلك الظلام. ما أعرفه هو أنك حين تموت لا يتبقى أي خيط من ذاكرة، أو أي إدراك للحياة التي عشت فيها، وعلى النقيض من حالتي. رغم أن الموت كعدم مطلق هو مجرد افتراض لا غير. أردت أن أصرخ طالباً النجدة. لكني لم أكن أعرف أين هو فمي وحتى أني لم أعرف كيف يمكنني أن أطلق صرخة. ما هي الآلية أو الحركة التي علي أن أقوم بها كي أصرخ! كيف لي أن أتبين من جديد أين هي قدمي، وكيف يمكن أن أعثر على شعري كي ألمسه. هل أنا ميت؟ كان المأزق الحقيقي في الظلام، لا يتعلق بالاحتفاظ بالخبرة، في القيام بحركة أو أي فعل آخر. الكارثة كانت في اختفاء الأدوات، وضياعها في بحر من الظلام. أنت تدرك خبرة (أن تنظر) لكن من دون وجود طريقة، أو أداة تفعل ذلك من خلالها. لكنني كنت أشعر بالوقت نفسه أنني مازلت موجوداً كنقطة صغيرة من الوعي في مكان ما من هذا العالم. لا أدري كم استغرق ذلك. النقطة الصغيرة اتسعت وأخذ الإحساس بسخونة جلدي، والتنفس، يعودان بتمهل، وبنظام بطيء، كان يتسارع تدريجياً.

يبدو أن رأسي كان قد ارتطم بحافة الكومدينو الصغير، وفقدت الوعي. دم قليل سال. لم يكن هناك أي ذئب في الشقة. لقد اختفى وكأنه قد تبخر. كان باب الشقة مغلقاً، ولم يكن سوى باب الحمام مفتوحاً. ارتديت قميصاً، وأخذت هاتفي النقال من جيب البنطال المرمي على الأرضية، قرب مكان الذئب الذي تلاشى. تجولت بقليل من الحذر في الحجر. لا أحد سواي في البيت. جلست على حافة الكنبة وشغلت جهاز التلفزيون. كانت هناك إعادة لحفل توزيع جوائز الأوسكار، وكان الممثل براد بيت يطوق خصر أنجيلينا جولي، وهو يتحدث عن حظوظه في الفوز بجائزة. لقد قررت العودة إلى الغابة ومحاولة التصدي للبعوض بدل أن تظهر

لي، ولربما، التماسيح.. كسها وكس أمها.. هذا آخر كأس أشربه معك... أنت حقاً رجل غريب، ربما تشبهني قليلاً... لديك قدرة على الإصغاء تثير الشك... أظن أنك... أوكيه... ربما كأس آخر قبل أن أنصرف... كسها وكس أمها... لم أتشرف باسمك... أنا سلمان.

.حسن بلاسم، سعيد بلقائك...

# سوق القصص

كان يرد على دعوات منتقديه من أصدقائه القلة بما قاله الروائي المجري بيلا هامفاش (أنت تتعرف في البيت على العالم، وفي السفر على نفسك...). لم يغادر خالد الحمراني مدينته قط، وها قد بلغ من العمر السابعة والخمسين. بل لم يكتب ولو قصة واحدة لا تدور أحداثها حول السوق الشعبي القريب من سكنه. لقد أصدر حتى الآن، وعلى نفقته الخاصة، ثلاث مجموعات قصصية كان السوق عالمها.

في حوار طريف معه في إحدى الصحف المحلية قال: يمكنك أن تجعل من بائعة السمك في السوق مركبة فضائية تائهة في الكون، أو أن تحول الباذنجان إلى درس في الفلسفة، المهم أن تراقب طويلاً مثل من يتأمل انتحاره من شرفة. كما المهم أن تملك مخيلة غير استعراضية، لكن خبيثة، وفي منتهى الجد، وأن تكون لك روح زاهد يحتضر. هذا السوق الشعبي الذي أكتب عنه، هو بالنسبة لي محيط شاسع، وأنا مجرد فقاعة لا شك في وجودها، لكنها غير مرئية بوضوح. أما جوابه عن سؤال حول قصصه، وكيف أنها متشابهة، مملة، لأن السوق وحده علبتها السحرية، فكان جوابه مباشراً:

القرف بالنسبة لي هو البحث عن تجارب وأماكن جديدة من أجل قول الشيء نفسه. فالعالم كله ينعكس في عيني طفل واحد، أليس كذلك؟ أو حتى في دم دجاجة مذبوحة في سوق شعبي (يضحك الحمراني ثم يكمل حديثه ساخراً) أنا لا أبحث عن نفسي، أريد أن أسبح في بركة واحدة، وأنا متأكد من أنها الكون بأسره...

أفاق خالد الحمراني في صباح ذاك اليوم مثل من خرج من بئر وحول. هرع فوراً يبحث عن القلم الذي أستله من قرب السرير، وكتب بسرعة وشغف أرقاماً على الحائط من دون أن ينهض من سريره. كانت زوجته لاتزال تشخر قربه، والأولاد كانوا نياماً أيضاً. فمنذ أن اشتدت التفجيرات والقتل العشوائي في بغداد، لم يعد أحد في البيت ينهض مبكراً. الأولاد تركوا المدرسة، وهم لا يلعبون إلا لوقت محدود أمام البيت. أما زوجة الحمراني فلم تعد تذهب لزيارة أهلهاولا حتى للتسوق. كانت هناك نقود قليلة جمعها الحمراني من عمله كبائع عصير العنب في شارع الرشيد.

جلس الحمراني على حافة السرير يتأمل الأرقام الخمسة بجدية وريبة. إنها المرة الأولى التي يرى في منامه حلماً يتعلق بالأرقام. ظن أن الأرقام ستختفي حالما ينهض من سريره. لكنه شعر حين أعد الشاي أنها تشع في دماغه مثل خمس جمرات. راقب ريحاً خفيفة صباحية مزعجة تريد فتح نافذة المطبخ الصغيرة. كان جالساً فوق البساط على الأرض، ممدداً ساقيه وهو يرتشف الشاي. حاول جمع صور الحلم من جديد. لكن هذا لم يكن سوى صورة واحدة. ظهر فيها واقفاً أمام حائط عملاق متآكل بفعل الرطوبة، وكانت الأرقام مكتوبة بلون أزرق مشع. شعر بألم فظيع في ركبتيه حين وقف مشدوهاً أمام الحائط. ما الذي تكونه هذه الارقام؟ فكر الحمراني في الأمر، من دون أن يجهد نفسه طويلاً في التفكير بأمر الحائط. فنحن نرد بعض أحلامنا لخبراتنا وتجاربنا في الحياة. الحمراني كان قد كتب من قبل في سيرة حياته السرية، وغير المنشورة عن ذكرى حائط من أيام طفولته. كان يشعر بالخجل من كتابة سيرته، لكنه كان قارئاً مدمناً لما يكتبه الآخرون عن حياتهم (في طفولتي، في العام ١٩٨٣ سقط جناح طائرة حربية إيرانية على الزقاق المجاور. الدفاعات الأرضية أصابتها من بين خمس طائرات أغارت على حقول النفط. جزء آخر من الطائرة سقط في مزرعة للبطيخ الأحمر. كنا نسكن في حي حكومي في مدينة كركوك النفطية. بيوت بنتها الحكومة للمنتسبين إلى الجيش وفق تصميم واحد:

غرفة نوم، وغرفة استقبال، وحمّام، ومرحاض، وحديقة خلفية صغيرة. كان الكبار يتحدثون عن بنت التصق مخها بالجدار، إثر سقوط الجناح الذي سدّ الزقاق، وهدم واجهات بعض البيوت. كل أطفال الحي سمعوا بمخّ البنت. قال ولد في المدرسة إن جسد البنت طار عالياً إلى السماء، من دون رأس، ولم ينزل. بعد حادثة الجناح أخذت أغيّر طريق العودة إلى البيت، وصرت أنعطف إلى ذاك الزقاق. أستجمع أنفاسي ثم أنطلق، قاطعاً الزقاق بأقصى سرعة، لمشاهدة مخّ البنت. لكني لم أره في كل مرة. كنت أزيد من سرعتي من غير أن التفت إلى الجدار الذي التصق فيه مخّ البنت، و كما سمعت كانوا قد أخذوه من هناك. كان الخوف يدفعني إلى الاقتراب من مصدره، والهروب منه في الوقت نفسه).

هل توجد علاقة بين الأرقام، وجناح الطائرة، أو مخ البنت؟ كانت الأرقام هي (٣، ١٤، ٩، ٢، ٢٢) ربما هي رقم هاتف أحدهم. أكيد أنها ليست كذلك، فهي لا تشبه نظام أرقام الهواتف الأرضية، ولا الهواتف النقالة. مجموع الأرقام هو خمسون. أي أنها ليست نبوءة عن العام الذي... سأموت فيه.

أخبر زوجته بحلم الأرقام، وهما يتناولان الفطور مع الأولاد. ابتسمت وهي تقول (خير إنشاء الله، الأرقام بالأحلام يعني فلوس جاية بالطريق، خير إنشاء الله... صحيح أبو فاطمة، إذا تجيبلنا اليوم بدربك من السوق نصف كيلو لحم وكيلو بصل، ها صحيح، ولا تنسى القندرة مال حسن، أنت تعرف. العيد بعد أربعة أيام).

فكر وهو يجوب السوق، ويتأمل فوضاه التي نادراً ما تنتظم، بأن عليه أن يعيد كتابة قصة البرتقال التي أنهاها قبل أسبوع، وأن لا يشتت ذهنه في البحث عن قصة جديدة. أو ربما تفكيره في الأرقام كان يمنعه عن التركيز في غنم سلعة قصصية جديدة. وأنا علي أن أوضح لكم أن قصصه لم تكن شائقة كثيراً لدى غالبية القراء ولا حتى لمن يسمون أنفسهم بعد سقوط الدكتاتور خاصة، بالنخبة المثقفة من الكتاب والفنانين. فالأدب

في البلاد هو أدب مراحل. فمنذ السقوط هناك دعوات لا تتوقف إلى الكتابة بطريقة مفهومة، واقعية، وثائقية، تطبيبية، إنهم يتباكون على قرّاء لا وجود لهم. كما وجدوا أن كتّاب الأزمنة السابقة هم الذي تركوا القراء يهربون. في حين أنه منذ مئات السنين لم يكن هناك في البلاد قراء بالمعنى الواسع للكلمة. لم يكن هناك سوى جياع، وقتلة، وأميين، وجنود، وقرويين، ومصلين، وتائهين، ومظلومين. يبدو أن كُتّابنا قد ملوا من لعبة الكتابة لبعضهم بعض. هم يحملون أيضاً مرحلة الديكتاتورية السابقة مسؤولية شيوع الأدب الغامض وممارسة التجريب بطرق مبالغ فيها، كأن الغموض والتجريب تهمة أو ابتكار بعثي. هم موظفون يبحثون عن دور جديد لهم في هذه المرحلة. إنهم أدباء المراحل الذي يريدون أن يسطوا اليوم على جميع الأدوار. يدعون أنهم عمال بناء سيبنون ما خربته الحرب، وإنهم سياسيون مثقفون، واقتصاديون، وإنهم أطباء جراحون، ومفسرو مصائب، ومحطموا أصنام الدين، والخرافات.

أما الحمراني فهو من الصنف الذي لا يفهم ماتعنيه المراحل، ما يهمه، حسب قوله، جوهر الإنسان الذي لا يمكن للمراحل أن تزيف أو تغير حقيقته. لذا تكون قصص الحمراني، حسب تصنيف أبطال المرحلة الجديدة، قصصاً تجريبية غامضة. ولنأخذ على سبيل المثال قصته: اسم البرتقال. التقط الحمراني قصته هذه، عندما لمح في السوق، فتاة شابة ترتدي عباءة سوداء، وتمزق كيس البرتقال الذي تحمله، لتتدحرج البرتقالات في وحل السوق. صحيح أنه يفترض أول الأمر أن الفتاة الشابة هي إرهابية ستفجر نفسها في السوق. مما يشد القارئ في البداية ويثير فضوله. خاصة أن المرأة في خيال الناس وضمائرهم هي عبارة عن عضو تناسلي ومؤخرة وثديين- كتلة من اللحم الشهي مخصصة للنيك والطبخ. ولربما مثل هذا الانتحار إهانة لفحولتهم. رغم أنه حتى تمزق لحم امرأة يصلح أيضاً لمزحة تتعلق بدغدغة قضيب الرجل. سمع الحمراني ذات يوم من بائع الحلويات مزحة خرائية، يقول بائع الحلويات: بأن صديقاً له

يبيع السمك في سوق شعبي آخر. عثر على كس الانتحارية بين السمك، حين فجرت نفسها في ذلك اليوم بحزام ناسف. في الحقيقة كانت زوجة بائع السمك من عثر على الفرج، حين عاد الرجل ببضاعته إلى البيت. طلبت الزوجة منه تفسيراً منطقياً، لوجود كس شابة صغيرة بين السمك. إنه نوع من الهلوسة الشعبية التي تنبع من تاريخ طويل من العنف والظلم والضياع، وهي ليست سخرية معبرة لمواطنين ينتمون إلى مدينة معاصرة. إنها هلوسة بدائية قبلية تحاول الاختباء خلف ضحك دموي تافه.

لكن الحمراني، سرعان ما كان ينقل قارئه إلى عالم آخر، من خلال الصور التي تظهر فجأة في قصصه، لتغير من مسار السرد، ومن مسار اللغة نفسها. وهذا ما كان يربك القارئ ويحرك نقاد المرحلة الحالية ضده. فهو يقول مثلاً في قصة البرتقال، إن الشابة الإنتحارية التي ترتدي عباءة سوداء كانت تسير قبل أن تصل إلى السوق في طريق ترابي مهجور، عارية تماماً، وهي تحمل شجرة برتقال فوق ظهرها كصليب. ويقول إن آثار السياط كانت تخطط جلد الشابة العارية. الغريب أن الحمراني ينشغل بعد ذلك ومثل رسام انطباعي، في ذكر تفاصيل عن أصابع المرأة، وهي تلتقط حبات البرتقال من الوحل. ربما يكون نقاد الحمراني محقين. فهو الآخر مجرد مروحة هلوسة تدور في كل الفصول.

جلس الحمراني قرب بائع الشاي، الذي كان زبائنه يجلسون أمامه فوق مصطبة خشبية منخفضة على شكل قوس. دخن ثلاثة سجائر مع قدح الشاي. وكانت الأرقام تدور في ذهنه وتُقلقه. كان بائع الشاي يُحدث زبائنه عن دورية الشرطة التي عثرت على ٢٠ رأساً مقطوعاً أمام باب جامع السلام. شغل البائع جهاز التسجيل الصغير، وصدحت أغنية شعبية تتغزل بنهدي فتاة شابة. رجلٌ بَدينٌ يرتدي دشداشةً بيضاء جدث بائع الشاي عن سحبة اليانصيب الأخيرة التي ربحها رجلٌ فقيرٌ يعيش في بيتٍ من صفيح. قال البدين: رزقكم في السماء وأنتم لا تعلمون. ابتسم الحمراني للفكرة التي خطرت بباله. ربما أرسل له من في السماء أرقام الحظ كهدية

من دون مقابل. وقد تكون الأرقام مناسبة للعبة اليانصيب. كان الحمراني يعرف دكأنا في نهاية السوق يبيع أوراق اليانصيب. ولم لا، ليجرب الأرقام في لعبة اليانصيب، ففي الموضوع تسليةٌ وإثارةٌ أيضاً. لكن ماذا لو تحققت المعجزة وربحت ورقة اليانصيب. أكيد سيجهد الناس كي يحلموا ليلاً بالأرقام، وقد يتدخل الأطباء النفسيون لمساعدة الحالمين. ليس غريباً على الحمراني أن يخوض حوارات تافهة مع نفسه. هو يعرف أننا جميعاً، كخرق بشرية، نتخيل ونقول أشياء منحطة، وحتى مفزعة لأنفسنا ليل نهار. المهم أن تتواصل الهلوسة. أن تلدغ أفعى الزمن زوار الحقل الزائلين. أن نكتب طوال حياتنا قصة أو قصيدة واحدة: هذا السوق هو عالمي وقبري وجناحي. أنا بيت الدود الذي يقلقه رقم في حلم.

أمام دكان بيع ورق اليانصيب، تبدد وهم الحمراني الذي اختلقه في ذهنه للتسلية. فكل أنواع هذا الورق كانت تحتاج إلى ستة أو سبعة أرقام، ولم يزوده حلمه إلا بخمسة أرقام، يحاول أن يجد لها مكأنا في فوضى هذا العالم. خمسة أرقام تضاعف من الغموض بدل أن تفتح باباً. شقَّ طريقه وسط زحام السوق، بينما كان الباعة يُحيّونه بأصوات عالية ويمازحونه. كان جميعُهم على علاقة طيبة بهذا الزبون الدائم الذي يتسوق القصص لحفظها في مخازن الورق. وبعدها تبخرت الأرقام الخمسة من ذهنه. راقب رجلاً عجوزاً يبيع صور شخصيات دينية. الميزة الوحيدة التي يشترك فيها جميع أبطال الصور، هي العمامة على الرأس. كما شاهد شاباً يرتدي قميصاً أحمر غريباً، ويحمل مجموعة من بناطيل الجينز، وفي فمه سيجارة. عرض الشاب عليه سروالاً أسود، وقال أنه سيبيعه له بنصف السعر، فهو يريد أن يبيع كل البناطيل من دون ربح، وسيجد عملاً آخر. هذه الطريقة المعروفة في جذب الزبائن يمارسها الشاب منذ أكثر من عامين. إنها الحكاية نفسها عن رخص ثمن بناطيله. وحين يذكره أحدهم بأنه قد سمع قصة بناطيله من قبل، كان الشاب يبتسم ويقول:

هسه تشتري لو ما تشتري...

اشترى الحمراني حذاءً جديداً لابنه الصغير حسن، ثم اشترى كيلواً ونصفاً من البصل. كان يبحث عن بائعي الأكياس الصغار من أجل الحذاء الجديد. أنزلت السماء بضع قطرات كتحذير عن المطر القادم. رفع رأسه إلى السماء حين بللت قطرة ماء ناعمة طرف أنفه. كان آخر ما شاهده، السماء الرصاصية الملبدة بالغيوم، وثلاثة طيور كانت تحلق عالياً، عندما انفجرت الشاحنة المفخخة المركونة قرب السوق، مثل بركان عملاق.

قالوا إن جسده قد تمزق إلى ثلاثة أجزاء. الساقان والجذع في مكان. وذراع بين كومة من الطماطم المتفحمة. والرأس وجزء من الكتف والذراع اليمنى قرب بائع الجينزات الذي تحول بفعل عصف النار والحديد إلى قرد صغير، مرسوم بالفحم، ومن دون ملامح. الغريب أن جميع أقارب الحمراني وأخوته أكدوا أنهم لم يتمكنوا إلا بمشقة كبيرة، من فتح أصابع يد الحمراني اليمنى لتخليصها من فردة حذاء ابنه حسن. فردة الحذاء الأخرى ضاعت في ركام أشلاء السوق. أكيد أن هذه التفاصيل مهينة ولا معنى لها. وربما هي مثل محاولتي في إيجاد رابط ما بين الأرقام الخمسة ويوم جحيم الشاحنة المفخخة. أي رسالة مشفرة كانت هي تلك الأرقام؟

قتل في السوق حينها أكثر من سبعين شخصاً. رقم آخر لا علاقة له بحلم الحمراني. حين تتراكم على شعب أو مجموعة من الناس سنوات طويلة من الحروب، والفزع، والفقر، والدمار، يكون البحث في التفاصيل غير المعقولة، أو حتى التافهة، أمراً شبيهاً بالشعوذة. لكن تبقى دوماً حاجة الإنسان إلى تفسير الأحداث بمنطق آخر، غير منطق العقل البارد الذي يرد النتائج، إلى مصادرها المفترضة، حاجة إنسانية نبيلة. ربما الشعوذة وكتابة القصص أيضاً هي عناق إنساني حزين للغموض.

... ... ...

أكملتُ طلاء جدارن الغرفة باللون الأزرق الفاتح، ولم يتبقّ سوى مكان الأرقام الخمسة المكتوبة بقلم رصاص. تحسنت اليوم الأوضاع في بغداد.

ومازلت أرى في عالم السوق الشاسع كمادة لقصصي. مضى عامان على حلم الأرقام. وعلى كابوس قصة موتي في السوق. حسناً، بضربةٍ أخرى من الفرشاة، ستختفي هذه الأرقام الخمسة خلف الطلاء. لكن ما لا يمكنه أن يختفي هو رعبي الكبير من أحلام الليل وكوابيسه. لا يمكنني أن أصدق أننا حين نموت ليلاً نعود كل صباح نحن أنفسنا، من دون أن يكون قد التصق في أرواحنا غبار سري. لقد حلمت البارحة برأس خروف يتحدث عن الشمس!

# الملحن

جعفر المطلبي: ولد في مدينة العمارة. عام ١٩٧٣: استقال من الحزب الشيوعي وانضم إلى الحزب الحاكم، في العام نفسه أنجبت زوجته الولد الثاني. جعفر عازف عود محترف وملحن أناشيد وطنية مشهور. قتل في انتفاضة ١٩٩١ في مدينة كركوك.

يمكنني أن أحدثك اليوم عن نهايته. هل تشاهد هذه المرأة العجوز التي تصيح بأسعار السمك: إنها أمي. نحن نبيع السمك منذ أن عدنا إلى بغداد، دعني أساعدها في إفراغ صندوق السمك، ثم نذهب إلى مقهى قريب ونتحدث.

...

بعد نهاية الحرب العراقية الإيرانية بدأ أبي يشهر إلحاده بطريقة مخجلة. سبّبَ لنا مشاكل عديدة. ذات مساء عاد إلى البيت وقميصُه ملطّخ بالدم. يبدو أنه نزف من أنفه على أثر لكمة من أحد الأصدقاء. كانوا يلعبون الدومينو في المقهى، حين شرع أبي في إطلاق أقذر الشتائم على الله والنبي. كان يبتكرها ويلحنها أثناء اللعب، كما تعرف كان من أشهر الملحنين. صَفّرَ أبي في البدء بلحن مبتكر على الطريقة العسكرية، ثم أضاف شتيمةً جديدة: مسمار في خصوة أخت الله!

كثيرون انفجروا بالضحك إثر سماعهم ما ابتكرته مخيلة أبي من شتائم، لكنهم سرعان ما يهربون منه مستغفرين ربهم. بعضهم لم يطق لقاءه في الشارع. أخبره أحدهم ذات يوم ممازحاً أنه يتمنى أن يدعسه بشاحنة محملة

بالفولاذ، لكن الجميع كانوا يخشون صِلته بالحكومة. كتب أبي في اليوم التالي تقريراً لمقر الحزب عن أبي علاء الذي لَكَمَهُ، وبعدها بيومين اختفى أبو علاء. كنا نعيش في حيٍّ اسمه القادسية الثانية، وهو عبارة عن بيوت وزعتها الحكومة على نواب الضباط في الجيش، والآخرين القادمين من مدن الجنوب والوسط، وعائلات الأكراد الذين كانوا يعملون مع السلطة. كنا العائلة الوحيدة في الحي التي تعيش بطريقة مختلفة. فكل العائلات تعيش على رواتب الجيش والحزب والأمن إلا نحن. فقد كنا نعيش على ألحان أبي للأناشيد الوطنية. كان الأبُ أكبرُ منزلةً من المختار وعضو الفرقة الحزبية، وكان الرئيسُ نفسُهُ قد قلّده أوسمةَ الشجاعة لأكثر من مرة على أناشيده عن الحرب. لقد ظلت عالقةً في ذاكرة الشعب حتى يومنا هذا.

إسمع خويه، سأختصر لك السالفة، بعد انتهاء الحرب بعام، تعرض أبي إلى ما تُسمونه في الجرائد بالنضوب الإبداعي، لم يتمكن من وضع لحنٍ جديد للقصائد الكثيرة التي كانت تصله من شعراء مشهورين تتغنى بعظمة الرئيس. مرت شهور، ثم مر عام، وهو عاجزٌ عن وضع لحنٍ جديدٍ واحد. هل تعرف ما لذي فعله خلال تلك الفترة، أخذ يكتبُ قصائدَ فسقٍ وكفر قصيرةً بنفسه، وراح يُلحّنها. في مساء شتوي دافئ، كنا نُشاهد التلفزيون حين وصلنا صوتُ أبي وهو يغنّي لحنَه الجديد عن نساءِ النبيّ وشبقهن. فجأة نطّ أخي الكبير. أخرج من دولاب الملابس مسدسَ أبي، وركب فوق صدره وهو يضع المسدس في فمه. كاد أن يقتلَه لولا أمي التي شقت ثوبها معرّيةً صدرها وهي تصرخ. تسمّر أخي للحظات وهو يُحدق في ثديي أمي الضخمتين اللتين تدلّتا فوق بطنها مثل حيوان أفرغت منه أحشاؤه. كانت هذه هي المرة الأولى التي نشاهدُ فيها صدر أمي ونحن في ذلك السن. دخلتُ إلى المرحاض، وفرّ أخي من مشهد الأم إلى خارج البيت. كانت أميّة، لكنها أكثر ذكاء من أبي الذي كانت تعتني بهِ بطريقة غريبة. دلّلته كما لو كان إبناً. كانت القابلة المأذونة في حيّ القادسية وقد أحبّها الناس كثيراً. قرر أبي كتابةَ تقريرٍ عن أخي إلى مقر الحزب. لكنهم

لم يستجيبوا له. رائحة أبي صارت تفوح في الحي والوسط الفني. قالوا إن جعفر المطلبي صار مجنوناً. وتجنّبَهُ أصدقاؤه. سافر إلى بغداد و تقدم بطلب للإذاعة والتلفزيون، كي يعيدوا بث الأناشيد الحربية التي لحنها.. على الأقل نشيد واحد في الأسبوع. رفضوا طلبه وأخبروه إن أناشيده غير مناسبة اليوم، فهم يبثون الأناشيد مرتين فقط: أثناء الاحتفال بذكرى اندلاع الحرب وذكرى توقفها. أراد أبي أن يستعيد ماضيه وشهرته بكل وسيلة. حاول مقابلةَ الرئيس لكنه فشل، تقدم بطلب إلى دائرة السينما والمسرح لعمل فلم وثائقي عن أناشيدِه وألحانه، لكن طلبه قوبل بالإهمال أيضاً. أثناء كل هذه المحاولات كان قد انتهى من وضع عشرةِ ألحان لقصائدَ في شتم الله والوجود، كما كانت هناك أغنية جميلة عن الخلفاء الأربعة. أدركْنا إنه قد جُنّ فعلاً، حين أخذ يتردد على الاستوديوهات، في محاولة منه لتسجيل أناشيد الكفر بصوته. بالطبع قوبل طلبه بالرفض القاطع، وبعضهم طرده وهدده بالقتل. أخيراً قرر أبي أن يقوم بتسجيل أناشيده على شريطٍ في البيت. وضع جهاز التسجيل أمامه وأخذ ينشد ويعزف على آلة العود. كانت نسخة صوتية رديئة بالطبع، لكنها كانت مفهومة. أسمعها إيأنا عند فطور الصباح، كنا نخشى أن يعرف الناس بأمر هذا الشريط، أردنا الحصول عليه وإتلافه بأية طريقة، لكنه لم يكن يتركه للحظة يفارق جيب معطفه، وحين ينام كان يدس الشريط في جيب عمله في الوسادة.

لا داعٍ اليوم كي نخبئ هذه النسخة، فالآخرون بحاجة إليها، فالله تقدم الآن أكثر من اللازم، سوية مع القتلة واللصوص. قد تكون ردة فعل الشارع هستيرية. لكن دعنا نُطلق رصاصة في الهواء. تفضل، أنت صحفي، ويمكنك أن تفيد وتستفيد منها. عرض عليّ مغنٍّ شاب أن يقوم بإعادة تسجيلها وغنائها في استوديوهات حديثة، لكني رفضت. يجب أن تبقى هذه الألحان كما سجلها أبي بنفسه كدليل على حكايته، يمكنُ نسخها فقط، الناس ينسون بسرعة حكايات هذا الواقع. حين ترويها لهم بعد زمن، يظنون أنها حكايات من نسج الخيال. خذ مثلاً، جارنا في السوق،

أبو صادق بائع البصل، حين يروي اليوم حكايته عن معركة نهر جاسم مع الإيرانيين، تبدو حكايتُه وكأنها فيلم رعب هوليودي من نسج خياله.

هرب جيش الحكومة ودخلت ميليشات البيشمركة الكردية إلى كركوك، استقبل أهل المدينة الانتفاضة بفرح كبير. كانت هناك فوضى عارمة، ورصاصٌ، وجثث، ودبكات، وأغان في كل مكان. لم نتمكن نحن من الهرب. كان المنتفضون قد أحرقوا بيوت كل أحياء الحكومة وبيوت منتسبي الحزب، وقتلوا ومثلوا بجثث البعثيين والشرطة والأمن. لم نتمكن من الهرب وحوصرنا في البيت. اقتحمت مجموعة من الشبان الباب المحصّن بمكتبة أبي، أخرجونا للشارع لتنفيذ حكم الإعدام بنا. كانت أمي تتضرع وتتوسل إليهم، لكنها لم تشق ثوبها هذه المرة. ماذا... أبي... لا، لا، أبي لم يكن معنا. قبل الانتفاضة بأشهر، أصبح مجنونَ المدينةِ المعروف. كان يطوف الشوارع وهو ينشد ضد الله حاملاً عوده الذي لم يبق فيه وتر واحد. كانت النار قد شبّت في بيتنا، سقطت أمي فاقدة الوعي ونحن نستند إلى جدار البيت الخارجي. وصلت أم طارق جارتنا الكردية في اللحظة الأخيرة وهي تصرخ بوجه الشبان، وتحدثهم بلغتهم، ثم راحت تتوسل إليهم، أن يطلقوا سراحنا. أخبرتهم عن كرم وطيبة أمي، ومساعدتها للنساء الكرديات في إنجاب الأطفال، وسهرها على النساء الحوامل؛ أخبرتهم عن خُبز العباس الذي كانت توزعه أمي على الجيران، وعن شجاعة أخي الكبير، وبأنه كان من أعز أصدقاء ابنها الذي استشهد مع قوات البيشمركة أثناء حملة الأنفال، وهو الذي ساعد ابنَها الشهيد في الهروب من كركوك (هنا كذبت)؛ وبأنني ولد طيب ومسالم، لا أهشُّ ولا أنشّ، وختمت دفاعها بنبرة غاضبة: لا ذنب لهم بما كان يفعله جعفر المطلبي القوّاد، ثم بصقت على الأرض.

دخلنا بيت أم طارق ولم نخرج منه إلى أن دخلت قوات الحرس الجمهوري للمدينة، وحتى انسحاب ميليشيات البيشمركة، وهروب أغلب المنتفضين مع تلك الميلشيات.

عثرنا أخيراً على أبي من دون رأس، وهو مربوطٌ إلى جرّار زراعي بحبل غليظ. كان قد سُحل لنهار كامل في المدينة، ومُثّل بجثّته بطريقة لا يمكنك تخيلها. كان أبي ساعة محاولة إعدامنا، قريباً من مقر الفرقة الحزبية. حيث كانت جثث أعضاء الحزب تملأ ساحة المقر. دخل أبي المقر الفارغ، واتجه إلى غرفة الإعلام، كان أبي يعرف تلك الغرفة جيداً. من تلك الغرفة كانت تُبثّ أناشيده الحماسية من خلال مكبرات الصوت في سطح المقر أثناء حربنا الأولى، ومن هذه المكبرات أيضاً، كان يتحدث أعضاء الحزب للجمهور حين كان يتم إعدام أحد الشبان الهاربين من الجيش أو المتهمين بمساعدة ميليشيات البيشمركة. وضع أبي الشريط في جهاز التسجيل وأخذت مكبرات الصوت تبثُّ أناشيدَهُ ضد الله والوجود على مسامع المنتفضين. كان أبي يحضن آلة العود ويبتسم، حين دخل المنتفضون واقتادوه إلى الخارج. أستميحك العذر يا صديقي، هناكَ تاجرُ سمك سيجلب اليوم بعض شوالات سمك الزوري، عليّ أن اذهب الآن. غداً سأخبرك بسر علاقة أبي مع أم طارق الكردية.

# خنفساء الروث

دكتور، هناك قصص للأطفال، وقصص قصيرة جداً للمرضى الذين لم يعد لديهم الكثير من الوقت. هناك قصص على شاطئ البحر، يعني قصص صيفية للأثداء التي تتشمس، قصص كسولة عن غائط الواقع، قصص للنخبة، للأوقات المملة، للأمهات الحوامل، للسجناء. أنا لا يمكنني أن أكتب قصة، لكني مستعد للتدخل في قضية الأدب، لغرض واحد فقط: من أجل كرامة من هم على حافة الجنون. أما أنا فلست إلا مسماراً في عين مصلوب...

كان الطبيب يقود السيارة لزيارة والدته في مدينة صغيرة قريبة من العاصمة. الطرق زلقة، بعد أن ضربت الثلج شمس البارحة، والتي ظهرت فجأة من خيمة العتمة في هلسنكي. في الصحف ظهرت صورة تلك السيارة محطمة بعد اصطدامها بمقدمة باص مدرسي، احترق فيه تسعة أطفال وجرح آخرون. قتل الطبيب أيضاً. بدت جثته كأن منشاراً كهربائياً شطرها إلى نصفين. كان إنسأنا طيباً امتلك روح زاهد. وكان طبيبي النفسي منذ أكثر من عام ونصف. مؤخرته جميلة جداً. أنا أعرف بم ستفكرون، أيتها الضفادع!

خنفساء الروث التي تعيش في الصحراء الأفريقية تعمل كريات صغيرة من الروث، تضع فيها البيض وتدفنها في الأرض. تعتني به إلى أن يفقس. يقرأ الرجل في موسوعة سميكة عن الحشرات وهو يتحسر على حال البشر. يحلم بأنه أصبح من أجنة الروث المدفونة في الأرض، وأنه الآن داخل بيضة. تخيل أن الألم هو خنفساء عملاقة طيبة صارت أمه.

هذا الصباح استلمتُ مع إعلانات البيتزا والصحف المجانية، من فتحة

الباب، رسالة من المستشفى. غرامة مالية قدرها ٢٧ يورو بسبب عدم حضوري في الموعد المقرر مع الطبيب الجديد، قبل أسبوعين. طيّب، هل أستحق مثل هذه العقوبة؟ بعدها قفز إلى ذهني برغوث آخر: عشر سنوات من دون أن أرفع سماعة الهاتف للسؤال عن أمي وأخوتي الذين أعرف في أي جحيم يحيون. براغيث أخرى من كل صنف وشكل تحبس الهواء في دماغي.

أخذ الرجل يتأمل قلبه الغليظ من زوايا عدة، ولم أخذ في سن مبكرة يغلفه بطبقة سميكة من الأسمنت والحديد. لم يعثر على الجواب، بل محض أحاسيس غامضة لا تعينه في تفسير قسوة قلبه وهروبه المتواصل من الماضي. لكن ألم يرد أن يختار بنفسه حياته ويكون سيّدها. هاهو الآن يسكن في شقة جميلة في هلسنكي، وبعد عام تذهب الصغيرة مريم إلى المدرسة، ولدى زوجته مدخرات من عملها في مطعم البيتزا، وتفكر الآن بفتح مطعم يقدم الأكلات العراقية. تفكيرها جاد هنا: نادلات مطعمها يلبسن زياً هجيناً، عراقياً وآخر للراقصة الشرقية. ديكور المطعم ذو طابع تراثي. وإذا جاءت الموافقة فسيقف أو يبرك جمل حقيقي في إحدى زوايا المطعم. سترافق الطعام وصلات من الموسيقى الشرقية. أما الأرضية فستفرش بسجاد عليه صورة السندباد، أما البخور في المطعم فسيخرج من مصباح قديم يذكر بمصباح علاء الدين. لقد فكرت بكل ما يداعب مخيلة الفنلندي والزبون الغربي عامة عن بلاد ألف ليلة وليلة. مرة سأل روائي فنلندي شاب الرجلَ راسماً على وجهه علامتي تعجب واستفهام كبيرتين:

كيف قرأت كافكا؟ هل قرأته باللغة العربية؟ كيف تعرفت على كافكا بهذه الطريقة؟ شعر الرجل كأنه متهم، والروائي الفنلندي محقق، وكافكا كنز من كنوز الغرب سطا عليه العراقي علي بابا. بمكنة الرجل أن يسأل بالطريقة نفسها أيضاً: هل قرأت كافكا بالفنلندية؟!

دكتور، راقبنا الكوكب (دوعيس توملا) أربع سنوات ضوئية، وتأكد

لنا بأن لا أحد يعيش عليه سوى الستة الذين رصدتهم كاميرات المراقبة الفضائية. المثير للدهشة هو أن هؤلاء لم يبارحوا حدود قريتهم على ضفاف النهر الأحمر. وهذا عبارة عن نهر متجمد، لكننا لا نزال نجهل طبيعة مادته. يبدو لنا كأنه نهر دم متجمد. ويبدو لنا من نتائج المراقبة أن أحد الكائنات الستة هو قائد المجموعة. بيته المنعزل عند جرف النهر، على هيئة كأس، بينما بقية البيوت عبارة عن غرف زجاجية على هيئة فقاعة ماء. البيوتُ متجاورةٌ بخطٍّ مُنحنٍ. طوال تلك الأعوام لم نرصد من طرق عيشهم سوى ما يقومونَ به كل يوم بشكل روتيني صارم. يبقى الخمسة في بيوتهم طوال الوقت بينما يجلس السادسُ من دون حراك على حافة النهر الأحمر. بعدها يخرج الخمسة سوية ويتوجهون إلى السادس. يحيطون به، ثم يسلمونه شيئاً ما غير مرئي. وحين يبتعدون عنه عائدين إلى غرفهم، يعود السادس إلى غرفته أيضاً. يمكثُ بعض الوقت هناك ثم يخرج ويرمي أشياء غير مرئية إلى النهر ثم يعود إلى مكان جلوسه. قررنا أخيراً أن نقضي عليهم بأشعة الليزر ولا نجازف بالاتصال بهم. أظن أن زمن المغامرات قد انقضى. ذلك الزمن الذي سبب اختفاء أرضنا القديمة. لكن المثير للضحك، هو أنه كان بيننا رائد فضاء عجوز غريب الأطوار لا يزال يكتب الشعر. وهذا السلوك المتخلف كما تعرفون كان يمارسه أسلافنا الأوائل على الأرض. كان يقول: هؤلاء الستة هم الله! لكم أن تتصوروا أنه بعد كل هذا التأريخ الطويل للوجود ووصول الإنسان إلى خلود الإنسان بعد انتصاره على الموت، هناك من ظل مؤمنا بالله. ولابد من معاقبة رائد الفضاء وإخضاعه لعلاج نفسي طويل. فهو مصابٌ بداء الإيمان المنقرض في عصرنا هذا، عصر الإبحار الأزلي، عصر الخلود الثاني الخالي من أي هدف أو اتجاه.

لكن في ليلة هادئة وجميلة خرج رائد الفضاء من غرفته للسباحة. ارتدى بدلته وقفز إلى الفضاء، وأخذ يسبح ببطء، ويتأمل النجوم البعيدة. وبعدها بقليل، لم يفعل رائد الفضاء أكثر من قلب حروف اسم الكوكب في ذهنه، وقراءته من جديد: الموت سيعود...

بعد هذا الاكتشاف اللغوي الصغير، والذي اعتبره بعضُهم محض شعوذة، دَبّ الذعر بين سكان المجرّة وعُقدت مؤتمرات عديدة للبحث في الأخطار المحتملة...

دكتور، لهذا كان لابد من عودة كتابة الشعر. فقد حرّكت كلمة الموت مروحة الأحاسيس من جديد...

لا أريد النظر بصفاء وهدوء، لقد تعبت، أريد أن أصرخ. أنا مثلُ أيّ واحد منكم، حشد من القردة الفصامية تعيش في جسد واحد. أنا سمكة تحترق في فرن، بينما المطر ينهمر في الخارج. صورة أخرى وتخرج السموم من فمي. ابتسمي يا أمي لكي ينضج التمر. حسناً، ظننت أن العالم مجرد حلم مشفر، وأني صياد رموز، لكنه بحاجة إلى شبكة صيد ومختبر. لقد خدعتني الكتب قبل أن تخدعني موسوعة الحشرات البشرية. وأخيراً تهاوى الحلم الذي دمرت من أجله حياتي. الآن صار لديّ حطامان: حياتي والحلم. أنا أحبك، يا أمي. وأصلّي من أجل أن يتوقف الله عن تعذيبك بالحزن الشعبي الأسود، وأن يحكم البلاد ملاكٌ ذو مؤخرة جميلة. كان الطبيب قبل أن يحرق باص الأطفال، يعالج كآبتي مرة، وفي أخرى كان يعالج ذهني العِدائيّ المثير للمشاكل. أنا يا أمي لا أنام. هم يريدون تنويمي عنوةً. وأنتم يا أخوتي، أعلن لكم بأني من صنف المرضى المذعورين، من صنف الفئران الكافكوية، سلالة مطاردة إلى الأبد. نأكل بسرعة وخوف، ننام بعيون نصف مغمضة، وأبطال كوابيسنا قطط شريرة ومصائد من أسلاك شائكة. لعلمكم ليس هذا المرض معدياً بل وراثياً. قبل ظهور كافكا كانوا يسمون أسلافنا بمواطن الشر. أرسلوهم إلى المعابد لطرد الشياطين من رؤوسهم.

زوجتي وأصدقائي ورئيس جمعية الدفاع عن المنحوسين. يصلون كلهم كي أنام، وأقبل قسمتي في الحياة. هم محقون إذا شعروا بأنهم أصحاب امتياز. فالنائمونَ هم ملوكٌ يُولدون في النهار، معافون هادئون خارج المستشفى، ولا يعرفون صراخ الولادة. أنا أحسدهم على مثل هذهِ

الطمأنينة وطيبة القلب. أما أنا فيمكن نعتي بعديمِ الثقة، على وزن عديم الأخلاق... فأنا عاجزٌ عن أن أسلم روحي لطلوع النهار خلسة، ومن دون حراسة. أنا عديم الأيمان أيضاً. وأنوي الإعلان عن معركة جديدة مع الصيدلية. لهذا لن أزور الطبيب بعد اليوم. المشكلة أنهم يمنعونك من شرب الكحول حين تتناول حبوبهم، بنات الكيمياء، ومبيدات الحشرات التي يقدمونها لك، ومعها ابتسامة عريضة. الممرضة أعطتني رقم هاتف إطفائيي الانتحار أيضاً. وهل تظنون أنني أمزح، أو لم تسمعوا من قبل بهذه المهنة؟ قالت الممرضة بالحرف الواحد: يمكنك أن تتصل بهذا الرقم، إذا شعرت بأنك مقدم على فعل خطر. هم سيأتون في الحال. لم أصدق حين سمعت بأن هناك سيارة إسعاف لإنقاذ المنتحرين.

لكن هل هو إنقاذ أم فضول لمعرفة قصص التجارب الفاشلة. فأي منتحر يضع رأسه في الإنشوطة، ثم يخرج من جيبه هاتفه الخلوي، ويتلفن إلى الإسعاف... أوكيه... أوكيه... أوكيه... أنا موافق على زيارة الطبيب، لكن بشروط:

أن يأتي بأجوبة أخرى غير التي أعرفها. أريد أجوبة مقنعة عن أزمتي حين أدور فجراً في الشوارع. أريد أن اسأل الطبيب عن تلك الرغبة الدينية الغامضة التي تخضني في مثل هذه الساعة الصباحية المباركة.

شكراً لك سيدتي. هاتي رقم هاتف جماعتك. عيناك جميلتان، وهذه الزهرة الجميلة. أقصد حلقة الأذن. هل هي نرجس؟

كنت أقول للطبيب، قبل أن يقطع إلى نصفين، ويحرق بسيارته الأطفال:

دكتور! هل تعرف أني حين أخرج من البيت، ويلامس وجهي الهواء البارد، تفيق تلك الرغبة. مياهٌ دافئة تصعد من ينابيع مجهولة إلى رأسي. أفقد ثقل جسدي، ثم أشعُر أنني صرت غيمة بوذيّة. كيف أوضح لك الأمر. أنظر، هو ذا طائرُ نورس، يخطف من مجموعة عصافير، قطعة خبز صغيرة، ويصعد بها إلى سطح محطة القطار...

دكتور...! أستطيع أن أسمي مشاعري حينها بالرغبة في التقبيل. أن أقف مثل مُوزعي الصحف المجانية والإعلانات أمام باب المحطة، وأعترض طريق الناس المسرعين. أن أستوقف الناس لتقبيل أياديهم، أحذيتهم، ركبهم، حقائبهم. ولو سمحوا لي أن أعرّي مؤخراتهم لدقائق، ولقبّلتها. اسمحي لي سيدتي أن أُقبّل كُمّ معطفك... أرجوك سيدي تقبل مني هذه القبلة، في ربطة عنقك. قبلات من دون مقابل، قبلات حزينة ومخلصة. ولمرات كثيرة يا دكتور، لا أريد تقبيل الناس فقط، بل آثارَهم على الأرصفة أيضاً: قبلات لأعقاب السجائر، لمُفتاحٍ فقدته عجوز، لقناني البيرة التي خلّفَها السكارى ليلة أمس، لأرقام في وصولات مهملة. قبلات تمتزج فيها غريزة الأمومة بالشبق. مثلما يمتزج الليل بالنهار في رأسي...

دكتور! ثم تنقشعُ فجأة هذه الرغبات تماماً كما يحصل لسماء صافية اقتحمتها عصابة من الغيوم البدينة الوقحة. شيء ما شبيه بالتعذيب يحدث لي كما لو أن سجأنا وحشياً يقلع أظافري. أشعر يا دكتور أن فكي صار فك حيوان، وذيلاً نبت في مؤخرتي. الرعب يا دكتور يعربد في حنجرتي التي جفت وتبحث عن قطرة ماء وأيّاً كان الثمن، حتى لو كان شرف الإنسانية. الظمأ والكره يختلطان في رأسي الذي صار بوقاً ينفخ أناشيد سادية. لذا أريد هذه المرة استرداد قبلاتي المجانية تلك. أريدُ أن أقطع خصيتيّ ذاك الرجل المسرع الذي يشعل سيجارته عند باب المحطة. أريدُ أن أغرز أظافري في وجه ذاك الطفل الذي تدفعه أمّهُ صوب محطة المسافرين. طفلٌ يُعلّمونه السفر والرعب. طفل آخر يا دكتور. فارزةُ أرقٍ أخرى بين الليل والنهار...

دكتور! أنا ولدت في بغداد. جدي فلاح جاء إلى المدينة. جدي كان يظن أن الشوارع هي ممرات مائية في أهوار الجنوب. صدمته سيارةٌ ومات. أبي ظل جندياً إلى أن رحل بالسكتة الدماغية. وأمي لم تكن تقرأ وتكتب. أمي تلطم في الحرب والسلم. وأنا كنتُ أجلس في ظهيرة تموز أقرأ في مطر السياب. إخوتي صاروا شرطة، ومساجين، ومصلين. إذن من المفروض

(حسب شروط الأصالة) أن أكتب روايةً واقعية عن سيرة الماء، واللطم، وأحفاد عليٍّ بن أبي طالب. أن أخصص وقتي لدراسة التراث، لفهم مساعي القمل الذي يهرش فروة رأسي. جدي جاء إلى المدينة ليحمل صورة الزعيم. جدي الذي هرب من الجوع والبعوض.

دكتور... أنت تعرف أن هناك نوعان من السموم. الطبيعي والمصّنع. وهي تُصنف حسب مصادرها أو طبيعتها الكيمياوية. منها التي تسمى الكاوية، وأخرى المهيجة، وهناك سُم الأعصاب، وسُم الدم. الكاوية تتلف الأنسجة مباشرة. والمهيجة تحرق الأغشية المخاطية. سُم الدم يمنع وصول الأوكسجين إلى الدم. كما أعرف أن السموم تصل الجسم عادة عن طريق البلع، أو الاستنشاق، أو اللسع، أو المص. الدفلة الحمراء، وعين الديك، والخروع، والداثورة، واللحلاح، والشوكران هي أنواع من النباتات والأعشاب السامة. أما اللسع واللدغ فهو من اختصاص العقارب، والأفاعي، والسمك اللساع، والسمندر، وبعض الضفادع، مثل ضفدع الطين. ومن أهم أعراض التسمم، وهي تختلف فيما بينها حسب زمن مكوث السم في الجسد، انبعاث رائحة في الفم تشبه رائحة الكحول. أنت يا دكتور تعرف أحسن. لكن اسمح لي أن أكمل كلامي. أنا ولدت بهذه العاهة، رائحة تفوح من فمي منذ الطفولة، وهي هذا اللسان العفن والسليط. أما الأعراض الأخرى التي جاءتني بها حياتي، فهي اتساع وانقباض حدقة العين، حرقة في الحلق. غثيان، وقيء، وإسهال، وتشنجات، وهذيان، وازرقاق في الجلد، وخلل في مشاعر الحب، وإغماء، أو نوم عميق كما السبات أو إضراب بدني. وفي حالة التسمم بدواء يمكن شوي تفاحة وتناولها إلى حين أخذ المسموم إلى المستشفى. لكن خل التفاح يستخدم ضد التسمم بسمكة متعفنة، أو الفسيخ، أو السادرين المعلب، ويكون شربه بعد إفراغ المعدة بالتقيؤ، ولا داعي للفزع من لسعة نحلة أو بعوضة. تُنزع الإبرة، ويدلك مكان اللسعة بالثوم، أو ورق الكراث، أو الحبقل. أما لسعة الإنسان لأخيه الإنسان فهي بالتأكيد نهاية مؤسفة، نواسي فيها المصاب المحتضر. ولا حاجة حينها

إلى أشياء كثيرة، بل مجرد إشعال شمعة صغيرة، لطرد الشياطين التي تتهيأ لنهش جسد الميت. أو الإسراع بالنفخ في فم المحتضر. وهذا يعينه في تلك اللحظات على اكتشاف الركام الهائل من الأوهام التي عاشها.

دكتور! أجلس في المقهى ساعات وساعات، حتى تؤلمني مؤخرتي. الفتاة التي تنحني فوق أوراقها وتكتب، خرجت لتدخن سيجارة في باب المقهى. سقط القلم أثناء نهوضها. أحببت القلم بكل نقاء وإخلاص. قلم يرقد غاضباً قرب ساق الكرسي. قلم فتاة جميلة ذهبت لتدخن سيجارة، يرقد وحيداً كارهاً حياته القصيرة. كل حركة يا دكتور، كل أشارة مهما كانت بسيطة أو تافهة تسبب لي صداع الحب. لذا أحاول أن أبدو كحاقد بالغريزة. لكن ما معنى ذلك؟ لا أدري. لدي، كما ترى، حركات مدمن على الكحول الذي كف عن أن يجلب له المسرة. ألا تلاحظ ذلك! تخجلني فكرة تسرب قصص حبي الصغيرة هذه إلى الآخرين. مرة أخبرت صديقاً بأني أفكر بأزرار قميص شخص يجلس في المقهى، وأكثر مما أفكر في حروب البلاد. لم أكن أتظاهر بقول الشعر أو بالجنون. لكن نظرته إليّ تشبه الشتيمة.

دكتور! أكيد أنك لم تسمع بقصة السمكة المسمومة. هل تظن أنني مجنون أحدثك عن السموم من دون سبب. في بداية سنوات الحصار الاقتصادي، في سنة ١٩٩١، انتشرت في بلادنا قصة الأب والسمكة. كان قد اشترى سمكة كبيرة مع بعض الخضار والطرشي. شوى السمكة بنفسه. وأعد السلطات. ثم أكل مع بناته الست بعيون دامعة وقلب مرتجف. بالطبع لم تعرف بناته أن الأب قد سمم السمكة. لم يجد الرجل حلاً آخر كي لا تصبح البنات بغايا. كان يبيع الأكياس البلاستيكية في السوق. وما كان يكسبه لم يكف للعيش. رحل وهو موقن من أن زوجته الراقدة في مقبرة النجف ستفهم. شأن ناس كثيرين لم يُردوا أن يسموا تلك جريمة. أما أنا فكنت أفكر في أحلام اليقظة. أحلام بنات الرجل وهن يأكلن سمكة أبيهن اللذيذة. لا أدري أن كان للآخرين أحلام يقظة حين يأكلون بصمت.

أنا أعرف أن لا وقت محدد لأحلام اليقظة، وهذه هي ميزتها على أحلام النوم الخاضعة للنظام لكن ليس الديمقراطي. إنها من امتيازات جمهورية أحلام اليقظة. كانت قصة الرجل نذيراً أفزع الناس في سنوات الحصار الأولى. لم يكن مسموماً ذيل السمكة الذي تجمع فوقه الذباب في حاوية الزبل. أخذته قطة سمينة، وأطعمت به صغارها، على سطح تلك الدار. كم أتمنى أن تكون هناك مثل هذه القطة حقاً. كل مأساة لا تتخللها تفاصيل مخترعة بطريقة مبالغ فيها وبكائية، لا تستحق أن تمثل على خشبة مسرح التراجيديات الكبرى. والآن يا دكتور هل فهمت قصدي؟ ذيل السمكة هو فارزة أخرى. هناك فارزة شوكية في دماغي تمنعني من النوم. أنت محق. لك يا دكتور! الكلام الآن. الناس لم يتكلموا آنذاك عن نوع السم في السمكة، بل تحدثوا طويلاً عن قضية الجوع وشرف البنات...

دكتور.. تريد القول إن بمكنة العالم أن يكون أبيض مثل قميصك. أوكيه، دكتور. وإن الإنسان فارزة بين كلمتي ولادة وموت. لكني أستحلفك بشرف مهنتك الإنسانية، أن تخبرني بمعنى هذه الجملة البيضاء الفارغة، وهل أن الفارزة ضرورية إلى هذا الحد؟

دكتور! فارزة أخرى من فضلك. اسمح لي أن اذهب إلى الحمام. سأحدثك يا دكتور حين أعود عن فارزة أخرى أسمها: الوحشة. لكن دعني الآن أفرغ أمعائي. أشعر أنني شربت برميلاً من الوحل...

دكتور... هل تعرف أن أنواعاً من الفئران تبدأ بقضم ذيلها حين تجوع. والفأرة الأهم التي عرفتها وأعانتني في أن أتنبئ بمصيري هي فأرة كافكا. هل قرأتها يا دكتور، باللغة الفنلندية؟ كيف سأترجمها لك. هي من سموم كافكا القصيرة جداً وعنوانها حكاية صغيرة:

قالت الفأرة، يا للأسف! يزداد العالم ضيقاً كل يوم. كان كبيراً من قبل حتى أني خفت، وركضت، ركضت، وسررت حين رأيت أخيراً، الجدران تظهر في الأفق من كل جهة، غير أن هذه الجدران الطويلة تركض سريعاً كي

يلتقي بعضها ببعض، وإذا بي في آخر غرفة، كما أني أرى هناك مصيدة سوف أسقط فيها.

(كان عليك أن تبدلي الاتجاه)

قال لها القط وهو يمزقها.

شكرا دكتور...

والآن يا دكتور! أخرجني من كرة الروث، أرجوك.

# تلك الابتسامة المشؤومة

قفز إلى ذهنه قول (ينبغي حماية الجسد وليس الأفكار(*))، وهو جالس على مقعد مرحاض في أحد المطاعم الصينية. حدسَ أن ذهنه يريد حلّ اللغز: لماذا تلك الابتسامة اللعينة حين استيقظ صباحاً. خرج من التواليت وطلب قدح شاي أخضر. كان قد غادر البيت مبكراً قبل نهوض زوجته وابنته. من المطعم بعث إلى الزوجة رسالة هاتفية كتب فيها أنه خرج للتمشي قليلاً، وسيعود بعد ساعة. هاهي الساعة تنقضي. تذكر أنها طلبت منه بالأمس أن يشتري في يوم الاثنين مكنسة كهربائية جديدة. انتبه أثناء ذلك إلى عجوزين جالستين في زاوية من المطعم، تحلان معاً كلمات متقاطعة في جريدة. إحداهما تمسك القلم، والثانية تفكر واضعة أصبعها على أنفها. البارحة تعطلت المكنسة الكهربائية أثناء تنظيفه غرفة الصغيرة. شاهد الآن انعكاس ابتسامته في قدح الشاي، والتي صارت بلون أخضر. أخذ يفكر بقضية الأفكار والجسد وهو يراقب المرأتين. كان قد شاهد، قبل دخوله المطعم، مجموعة من الأطفال يقفون عند أشارة المرور منتظرين الضوء الأخضر. وقفوا في صفين، وكانت هنالك معلمتان. واحدة في المقدمة وأخرى في المؤخرة. خمن عدد الصغار: ١٢ تلميذاً من فصيل الأمل القادم - حرك ذهنه ذيله فرحاً. سوف لن يكونوا سوى أطباء، ومهندسين، وقتلة، وشعراء، وكحولين، وعاطلين عن العمل. إثنا عشر طفلاً هما الغلاف الجديد لحكاية قديمة. تقدم ذهنه ببطء وأخذ يشم جيفة ميت. هؤلاء هم أبناؤنا وزوار قبورنا- قال. إثنتا عشرة فكرة تعبر الشارع مرحة نشطة. إنهم طاحونة المستقبل. نهض وتوجه إلى الحمام

---

*) من أقوال ألبير كامو.

مرة أخرى. غسل وجهه للمرة العاشرة لكن الابتسامة مازالت عالقة فيه. لو لم يكن قد تعرض من قبل إلى نكبات فنطازية، لقال وهو يحدق في المرآة كأي رجل عاقل: غير معقول! لكنه اعتاد على المفاجئات، وعملته تجاربه عدم إضاعة الوقت في البحث عن أسباب مآزقه، بل البحث عن مخرج الطوارئ. خمن ذهنه أن الابتسامة كانت قد انتقلت إلى الرجل من حلم سابق. كان حلماً سينمائياً ساذجاً لا صلة له بذاكرته أبداً: قبّلها من شفتيها. حاول صعود السلم لكنه جلس عند أوله. ابتسم وأسند رأسه إلى الجدار. نظفت أسنانها في المطبخ. نادته بصوت مرتفع كي يأتي بشرشف السرير. أرادت أن تغسله. لكنه كان ينزل حينها إلى بئر مثل ريشة تترنح في الهواء. كان بعيداً عن الضوء، ميتاً لم يسمع نداءها الأخير. المرأة ماتت بعد حادثة السلم، بأربع سنوات. وجدوها نائمة على مائدة المطبخ وفي يدها عود تنظيف الأسنان، وعليه قطعة لحم بحجم نملة.

هل نقول إن أشعة الشمس كانت تدخل من النافذة، أم أن المطر كان يضرب زجاج النافذة، بعد أن نظفت المرأة أسنانها جيداً. الحلم نفسه يتكرر كل ليلة. هناك حاجة إلى شيء من تلك الموسيقى الكلاسيكية. أين اختفت حكايات الموت الصغيرة تلك. يا لها من سذاجة أبدية في قصص موتنا الجميل. تلك القصص الصغيرة المدببة، مثل عود تنظيف الأسنان. لِمَ ابتكرنا كل هذه الأشكال المعقدة لحكايات الجثة. كان ظل عملاق يطرح هذه الأسئلة على الرجل في الحلم.

في الصباح أفاق الرجل مبتسماً. رأى بعدها ابتسامته في المرآة. يبدو أنها ظلت عالقة بعد الحلم. قال مرة في حوار غير مألوف مع أحد أعضاء جمعية الدفاع عن المنحوسين:

- لم أرد أن تراني زوجتي وابنتي وأنا أبتسم بغباء، ومن دون سبب. كانت ابتسامة تافهة. كانت عريضة لكنها لم تكشف عن أسناني المهشمة. كانت شفتاي مضمومتين مثل شفتي المهرج. دعكت وجهي بالماء والصابون،

لكن الابتسامة ظلت عالقة. غسلت أسناني ثلاث مرات، لكنها ظلت ملتصقة مثل حبر ثابت. فكرت: قد تزول مع مطلع النهار، وكما يذوب الثلج في صباح مشمس. لا أدري كيف خطرت ببالي مثل هذه الأفكار. ثم فجأة شعرت بحر شديد، رغم أن الفصل كان شتاء. ارتديت قميصاً رياضياً خفيفاً، كان مرسوماً على ظهره غراب أسود يقف على كرة للعبة السلة، رسمت عليها خارطة العالم. ارتديت سروال جينز نظيفاً، ثم معطفي الشتوي الأسود، وعقدت العزم على حل لغز تلك الابتسامة. الزوجة والبنت تحملتا الكثير. خوفي عليهما من الجنون، فكوارثي متواصلة في هذا العالم. أنا لست منحوساً، إذن كُفّوا عن لصق هذا النعت السخيف بي.

كان الثلج يهبط متراقصاً. كان رائعاً وجميلاً. لأول مرة كانت السماء بمثل هذا السخاء، حين تخلت لي عن كل هذه الجواهر.أحاسيس مثل هذه كنت قد عرفتها من قبل. تستفيق وتشم صباحاً ثم تفكر:

الحياة مازالت تلائمني.

إنها لحظات حزن مقنعة، تتخفى في أثواب وروائح شتى. أنت تسكر، فتبكي. وتظن أنك أزحت حجراً كبيراً، كان يسد مجاري يومك الذي كان قد انقضى بضربة موجعة. مرّ بقربي رجل لا أعرفه يرتدي معطفاً شتوياً ثقيلاً، ويلفُّ رقبته بوشاح صوفيّ، وعلى رأسه قبعة سوداء تكوّمت فوقها ندف الثلج. ظل ينظر ويلتفت مبتسماً إلي عندما سار في الاتجاه المعاكس. أردت أن أبادله الابتسامة. مررت أصابعي على شفتي. إذن لم أكن بحاجة إلى ابتسامة جديدة. اكتفيت بالالتفات إليه بسرعة، لأقدم له بالمقابل ابتسامتي الحلمية تلك.

دخلت إلى مطعم صيني لاحتساء الشاي، والتأكد في المرآة من الابتسامة. شاهدت عجوزين سحاقيتين تحلان الكلمات المتقاطعة. وأرسلت إلى زوجتي رسالة ثانية عبر هاتفي أخبرها، بأنني سأتأخر قليلاً في العودة، وسأذهب مباشرة إلى الأسواق لشراء المكنسة الكهربائية. كان

علي أن أعثر على حلٍّ، للغز الابتسامة اللعينة. فكرت في الذهاب إلى المستشفى. ربما أنا مريض، وما الابتسامة إلا جرس إنذار. لكن بدل ذلك وجدت نفسي داخل دار السينما وأقطع تذكرة. كنت أشعر بحمى مقرفة تنتشر في الجسم. كانت هناك فتيات تحت ملصق كبير لفيلم الأسبوع المقبل. أبرز ما فيه أنياب دراكولا، والدم الذي يقطر من زاويتي فمه. كانت هناك ابتسامة على وجه هذا الوحش. الفتيات جلسن كما لو أنهن في الصف الدراسي. كلهن ألقين عليّ نظرات جامدة، يشوبها شيء من الخوف. ابتسمن بعدها على التوالي من اليمين إلى اليسار. كنت أجلس أمامهن. أدرت لهن ظهري، بعد أن خلعت معطفي، كي يشاهدن بوضوح كرة السلة والغراب. لا تسألني لم فعلت ذلك. هل لديك أنت جواب على الابتسامة اللعينة هذه؟ أردت أن أكون ودوداً مع الفتيات، وأخذت أكتفي بهز رأسي لهن على التوالي من اليسار إلى اليمين. ثم تأكدت في مرايا صالة الانتظار من ملامح وجهي. أعترف باني كنت قانعاً إلى حد ما بابتسامتي الجديدة هذه. على الأقل لست مرغماً كالآخرين على شدّ عضلات الوجه من أجل الابتسام. نسيت أن أقول لك إن إحدى العجوزين المثليتين، قالت لي بأن احتفظ بهذه الابتسامة الجميلة، فالفنلنديون في الشتاء متجهمون، وملامحهم كئيبة، تزيد من عتمة الشتاء ووحشته.

كان فيلماً بكائياً مقرفاً متسارع الإيقاع. أحرقت البطلة بيتها على زوجها وأطفالها. وهي تصرخ الآن وتنحب مثل مجنونة أمام النيران، والجيران حولها يضعون أصابعهم على أفواههم كأنهم على وشك التقيؤ. السيدة الأنيقة التي تجلس قربي كان وجهها غارقاً بالدموع. التفتت ببطء صوبي، ثم تمتمت بهلع:

خنزير!

ألتفتُ إليها وأنا غير مصدّق، ثم التفتت، لكن هذه المرة بوقاحة، وهي غارقة بدموعها التي شوّهت ماكياجها. أخذت تنقل بصرها مثل المخبولة

بين مصيبة بطلة الفيلم وبين وجهي البشوش. كانَ يبدو أنها مشمئزة تريد أن تصفعني بسبب ابتسامتي. أردت أن اشرح لها الأمر:

أنا لا أبتسم على ما حصل للمرأة وبيتها، سيدتي! (رغم أنها قحبة مثلك) أنا أفقت اليوم، وهذه الابتسامة قد فرضت عليّ!

تجاهلت المرأة، وحاولت التظاهر بالشفقة على حال امرأة الفيلم التي أخذت مسدساً من حزامها، وأطلقت النار على رأسها، وسط جموع الناس الذين سرعان ما تفرقوا، عندما وصلت سيارات الإطفاء.

حين أضيئت أنوار الصالة، نهضت السيدة الأنيقة وشتمتني هذه المرة بصوت عال:

حيوان، ابن عاهرة !

التفت الجمهور ناحيتنا. لكنهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم ظلوا يبتسمون، وهم يحدقون في وجهي. هل يبتسمون من الشتيمة، أم من الغراب فوق الكرة، أم لأنني جابهت شتائم المرأة بابتسامتي الباردة؟ لابدّ من التخلص بأسرع ما يمكن من هذه الابتسامة. اتصلت بي زوجتي، لكني كذبت حين قلت لها بأنني ما زلت أبحث عن مكنسة كهربائية مناسبة.

استمر الثلج بالهطول، وزاد من تألقه، حين هبت ريح خفيفة، وتركته يهطل منحرفاً. شعرت بالخوف والارتباك عندما تصورت أن هذه الابتسامة قد تظهر أثناء وقوع إحدى المصائب. ماذا لو دهست حافلةٌ أحدهم الآن، وخرجت مصارينه من مؤخرته. أكيد سيكون هناك جمهور مرعوب. ماذا لو انتبهوا إلى ابتسامتي وأنا أشاركهم هذه الفرجة المجانية. من دون شك سيشبعونني ضرباً. كيف سأشرح لهم أن لا علاقة لابتسامتي بما حدث. أو من سيحتمل أن تبتسم في وجهه مثلاً، وطفله الرضيع بين يديه يموت جوعاً. يمكنك أن تفسر له بهدوء بأنك تبتسم ساخراً من الحياة التي أخرجت هذا الطفل من دون سبب، ولتأخذه برفسة في المعدة، ومن

دون سبب أيضاً. لكن ألا يطعنك أب الطفل وأمه بالسكين ويمزقان هذا الحيوان غليظ القلب. هرولت باتجاه بار قريب. ينبغي حماية الجسد وليس الأفكار. إن تفقد السيطرة على التحكم بالإيماءات الجماعية المتوارثة التي توحدنا في الفزع والسعادة!!

شعرت بمغص في المعدة حين دخلت البار الذي كان مزدحماً بصورة مريبة. الفنلنديون مبكرون جداً في كرع الكحول. دخولي إلى البار صار حفلة من الابتسامات، لكنها تبددت تدريجياً، وتحولت إلى ضحكات وتعليقات متفرقة، كانت بالأحرى شتائم سريعة. لم أفهم، أول الأمر، سبب تردد النادل عندما طلبت بيرة. قال بعدها:

عليك أن تحتسي بيرتك بسرعة وتنصرف.

التفت بدوري ناحية الزبائن غاضباً، على مثل هذا الاستقبال غير الودي.

أي بار هذا؟ قلتها بصوت عال.

لكنني كما تعرفون كنت أبتسم رغماً عني. ربما أصابهم الظن بأني مجرد حيوان أليف تجاوز حصته المقررة. كان هناك أربعة شبان حليقو الرؤوس، ارتدوا المعاطف الجلدية السوداء. عندها فقط، أدركت حينها أنه بار للنازيين الجدد. كانوا يسخرون من جرأتي أو حماقتي. كانوا يلتفتون ناحيتي بين كأس وأخرى، مطلقين النكات والشتائم القبيحة. ثم وقف أحدهم وأخرج قضيبه، ولوح به في وجهي. ثم انفجر الجميع بالضحك ومعهم النادل.

فكرت بأن أتمالك نفسي، أشرب البيرة سريعاً، ثم أهرب من هذه المصيدة القذرة. لكني كنت غبياً: تصنعت الشجاعة واللامبالاة. جلست هناك وكأنني قبطان يبتسم في سفينته. لكن النادل، ابن القحبة هذا، طلب مني مغادرة المكان فوراً خشية المشاكل. بالطبع سررت لهذا الطرد. وهكذا تركت بار النازيين مثل فأر مفزوع.

اليوم هو الأحد، وأنا كنت أظنه يوم الاثنين. تذكرت ذلك أخيراً، وفكرت بأن زوجتي غاضبة حين كانت تسمعني، وتقرأ رسائلي الهاتفية. أي أسواق هذه التي تفتح أبوابها يوم الأحد. والآن أي كذبة أخرى يمكن أن اختلق للتستر على كذبتي الأولى. فكرت أن أعود إلى البيت، وأعترف لزوجتي بكل شيء. ستكون الابتسامة الدليل على صدقي. لكن مشاعري كانت متضاربة. بعدها دخلت إلى دكان صغير، واشتريت ست زجاجات بيرة، وذهبت إلى الحديقة العامة. هل أنا سيء الحظ حقاً، أم أنني خلقت عن طريق الخطأ.

كانت الشوارع فارغة. والريح تعبث بالأشياء، تزحزحها، وتحدث ضجيجاً .

قلبت الريح لافتة أسعار كانت مركونة قرب مطعم مغلق. ثم جاءت بعلبة كرتونية كبيرة كانت تتطاير كأنها نصف جسد ممزق. كانت هناك علب سجائر فارغة تتراكض. دندنتُ لا شعورياً بلحن. أردت الغناء لكني لم أعرف أي أغنية سأختار. لم تكن في رأسي أي كلمات لأية أغنية. داهمني فزع خفيف: هل شُفطت كلمات الأغاني من ذاكرتي إلى هذه الدرجة. لم أقدر إلا على ابتكار بعض الألحان الصغيرة. واصلت الدندنة على أمل أن أعثر على كلمة بعد قليل. لكن دموعاً غبية نزلت بدل الكلمات. جاءت الريح بكيس أبيض فارغ مر سريعاً قرب أذني وأطفأ اللحن. لقد أفزعني. دار الكيس حول نفسه عند تقاطع الشارع وكأنه يريد أن يحدد الاتجاه الذي سينطلق فيه. أرتفع قليلاً حائراً ثم هبط مترنحاً على الإسفلت. سَحَلته الريح رغماً عنه هذه المرة، وتركته قرب النفايات التي تجمعت عند فوهة بالوعة الشارع.

وصلت إلى الحديقة مفكراً بالكذبة على زوجتي. أكيد أنها واثقة بأنني على موعد مع امرأة. هي تغلي الآن غضباً، وتحشر ملابسي في حقيبة، استعداداً لطردي.

خُيّل لي أول الأمر، وأنا أنظر من خلال الأشجار الكثيفة، بأن الريح قد حملت أكياساً سوداء أخرى. لكنها في الحقيقة حملت أولئك الشبان الأربعة حليقي الرؤوس. بغريزة حيوانية شعرت بالخطر. شممت روائحهم حين اقتربوا مني، وقفت أنا من دون سبب للتبول، خلف شجرة عملاقة. أحاطني اثنان من اليمين وآخران من اليسار. بدوا كأنهم الملائكة الحراس. أخرجوا عتلاتهم وتبولوا بشدة جميعاً مثل حمير لم تتبول منذ سنوات. كانوا يتبولون وهم يرمقونني بنظرة جامدة، وساخرة بسبب قضيبي الذي لم تنزل منه قطرة واحدة، من شدة الخوف. كنت فريسة سهلة وجبانة. كان ضجيج بولهم المتدفق بجنون، يملأ وحده المكان، مثل شلال يهدر في العتمة، بعدها هدأت الريح، أو أنها تواطأت لفسح المجال أمام معزوفة البول وروائحه، التي كانت تصعد إلى دماغي مثل غازات الأعصاب السامة، أو لعل الريح كانت تشتهي أن تهب السماء فرجة مجانية.

انتهى كل شيء بسرعة خاطفة. بالوا دفعة واحدة كل غرائز الحيوان الممكنة في دقائق معدودات وأشبعوني ضرباً. ثم ركضوا وكأن الريح حملتهم وأخفتهم بين طيات ثوبها الوقور، ثم عادت للعمل بعد أن أدى الشباب مهمتهم على خير وجه.

كنت أنزف من أذني، ومنخريّ، وأسناني، وعيني، ومن منخري روحي المسدودين أيضاً. حاولت النهوض. تمنيت لو أن هذه الريح العبدة بطاعتها العمياء وولائها للسماء، أن تحملني أنا الآخر. لكنها لم تفعل. كانت تحمل كل شيء عدا جسدي الفارغ الذي ظل ينزف قرب الشجرة كما لو أن ما حدث كان من رواية هزلية مليئة بالمآزق التافهة. شاهدت أكياساً فارغة من كل لون وشكل. كانت تحلق فوقي بسرعة جنونية وكأنها تقدم لي عرضاً خاصاً من بقايا العظام، والأزمان، والأماكن.

كما بدا لم تكن راضية عني، ونافخها أيضاً. مرّ كيس رصاصي اللون ممزق، عرفت أنه عباءة أمي. مر دماغ محترق لكن بأجنحة عملاقة. مرّ سرب من الأسماك حاملاً فُتاتاً من لحم بنت صغيرة. مرّت أفاعي الحصار

الطائرة ملتفة حول طعامها من البشر والأحلام. مرّت جميع ألبسة زوجتي الداخلية وكان أحدها يقطر دماً، والآخر منياً، والذي يليه حبراً، وهكذا. مرّت دفاتري القديمة تصفق بأغلفتها. عقارب في زجاجة مرّت. قمصاني الصيفية. الأدوية الفاسدة، وعلب حليب الأطفال. الخبز مرّ بجناحين من خراء. مرّت قصائد وهي تتبول على نفسها مثل أطفال معوقين. مع كلابهم الوحشية مرّ الجنود، حراس الحدود التي عبرتها مشياً. أخي الأحول يلبس عمامة الأمام. مرّت أصابعي مقطوعة ومدماة. مرّت ابنتي مريم في عربة أطفال، وهي ممسوخة من فرط حبي لها. مرّت زوجتي وهي تعزف على بوق يخرج صوتاً كطائر البوم.

مرّت حياتي ورقةً، ورقة. مرّت مآزقي ورقةً، ورقة. ولم ينته مرورهما حتى بعد أن أغمضت عيني. كان قد هيمن علي الألم والدوار. ومرّت الأوراق في العتمة بيضاء ورقةً، ورقة.

في المساء كان الرجل يتمدد فوق السرير في المستشفى، وهو يبتسم لزوجته وابنته التي كانت تحمل زهوراً جميلة.

- لماذا تبتسم هكذا يا أبي؟

سألته مريم بدهشة.

# أغنية الماعز

كان الناس ينتظرون في طوابير، ليرووا حكاياتهم. تدخلت الشرطة لتنظيم الأمور. أغلق الشارع العام المحاذي لمبنى الأذاعة أمام حركة السيارات. وهناك انتشر النشالون وباعة السجائر المتجولون. وكانت شديدة المخاوف من أن يندس إرهابي بين الناس ويحيل كل هذه الحكايات إلى عجينة من اللحم والنار.

تأسس راديو (الذاكرة) بعد سقوط الدكتاتور. ومنذ البدء أخذت الأدارة بنهج وثائقي لبرامجها. لا نشرة أخبار ولا أغان، مجرد تقارير وثائقية وبرامج تنبش في ماضي البلاد. وجاءت الراديو شهرة كبيرة بعد الأعلان عن خبر تسجيل برنامج جديد بعنوان (حكاياتهم بأصواتهم). وتوافدت الحشود على بناية الإذاعة من كل أنحاء البلاد. كانت الفكرة بسيطة: أختيار حكايات وتسجيلها بأصوات أصحابها ومن دون ذكر للأسماء الحقيقية ثم يختار المستمعون أفضل ثلاث حكايات تنتظرها جائزة مالية ثمينة.

أفلحتُ في ملء إستمارة الترشيح والدخول إلى مبنى الإذاعة بعد مشقة كبيرة. ولأكثر من من مرة نشب الشجار بسبب الزحام. عجائز وشبان ومراهقون، موظفون وطلبة وعاطلون عن العمل، جاءوا كلهم كي يرووا حكاياتهم. انتظرنا تحت المطر أكثر من ٤ ساعات. بعضهم كان كتوماً. آخرون كانوا يتفاخرون بحكاياتهم. شاهدت رجلاً من دون ذراعين ولحيته تكاد تصل إلى سرته. كان غارقاً في التفكير وكأنه تمثال يوناني متآكل. لاحظت قلق الشاب الوسيم الذي كان معه. سمعت من شيوعي عذّبوه في السبعينيات في سجون البعث، بأن لدى الرجل الملتحي حكاية مرشحة

للفوز إلا أنه لم يأت من أجل الجائزة. إنه مجرد مجنون لكن مرافقه، وهو من أقربائه، يطمع بالجائزة. كان ذو اللحية الطويلة معلماً. ذهب إلى الشرطة يوما للإبلاغ عن جاره الذي كان يتاجر بالآثار المسروقة من المتحف. شكرته الشرطة على تعاونه. وبهذه الصورة أراح المعلم ضميره وعاد إلى مدرسته. رفعت الشرطة تقريراً لوزارة الدفاع مفاده أن بيت هذا المعلم هو وكر لتنظيم (القاعدة). كانت الشرطة شريكة لمهرب الآثار. أرسلت وزارة الدفاع تقريرها إلى الجيش الامريكي الذي حلقت مروحياته في سماء بغداد وقصفت بيت المعلم. قتلت زوجته وأولاده الأربعة وأمه العجوز. المعلم نجا من الموت. لكن دماغه تعطل وفقد ذراعيه.

أما أنا فكانت تغلي في ذاكرتي أكثر من عشرين حكاية عن سنوات أسري الطويلة في إيران. كنت واثقاً من أن واحدة على الأقل ستكون قنبلة المسابقة حقاً.

أدخلوا المجموعة الأولى ثم أعلنوا للحشود في الخارج عن انتهاء استقبال الطلبات في ذلك اليوم. كنا أكثر من ٧٠ شخصاً. أجلسونا في قاعة فسيحة تشبه مطاعم الطلبة في الكليات. أخبرنا رجل يرتدي بدلة أنيقة بأننا سنستمع أولا إلى حكايتين كي نتعرف على طبيعة البرنامج. كما تكلم عن قانونية العقد الذي سنوقعه مع الاذاعة.

خفتت الأضاءة تدريجياً وحل الصمت في القاعة وكأننا في صالة سينما. أشعل معظم المشاركين سجائرهم. غرقنا في سحابة كثيفة من الدخان وأخذنا نستمع إلى قصة امرأة شابة. كان صوتها يصلنا صافياً من كل أركان القاعة. استمعنا إلى حكاية زوجها الشرطي الذي اختطفته جماعة اسلامية لمدة طويلة، وكيف أرجع القتلة جثته متعفنة ومن دون رأس أثناء الاقتتال الطائفي. وحين أضيئت القاعة من جديد دبت الفوضى. كان الجميع يتحدثون سوية مثل حشد من الزنابير. هزأ كثيرون من حكاية المرأة. أدعوا أنهم يملكون من الحكايات ماهو أغرب وأقسى وأكثر جنوناً.

لمحت عجوزاً شارفت على التسعين تهز يدها ساخرة وهي تمتم: هي هاي سالفة.. سالفتي لو حكيتها على الصخر... كان تفطر من القهر...

عاد الرجل الأنيق ودعا المشاركين إلى الهدوء. أوضح بكلمات بسيطة بأن أفضل القصص لاتعني الأكثر رعباً أو حزناً، المهم هو الصدق وأسلوب الحكي ثم قال بأنه ليس من الضروري أن تكون القصص عن الحرب والقتل. أنا انزعجت من هذا الكلام. وما لاحظته أن غالبية المشاركين لم تكترث لأقوال هذا الرجل. همس في أذني رجل بحجم الفيل: ضراط اللي يقوله هذا أبو رباط... السالفة هيّه سالفة... لو زينة لو ضراط...

خفتت الأضاءة من جديد. ورحنا نصغي للحكاية الثانية:

وجدوها تطعمني الخراء. طوال أسبوع وهي تخلطه لي مع الرز والبطاطا المهروسة والحساء. كنت طفلاً شاحباً في الثالثة من العمر. هددها أبي بالطلاق لكنها لم تكترث. تحجر قلبها إلى الأبد. لم تغفر لي فعلتي أبداً، ولا أنا نسيت قسوتها. عندما ماتت بسرطان الرحم كانت أعاصير الحياة قد حملتني بعيداً جداً. هربت بعد حادثة البراميل من البلاد ذليلاً، مكسوراً، مشدوهاً من شدة الفزع. في الليل ودعت أبي. سار معي إلى المقبرة. قرأنا سورة الفاتحة عند قبر عمي. تعانقنا ثم دس في يدي رزمة من النقود. قبلت يده واختفيت.

كنا نعيش في حي فقير في كركوك. لم تكن في الحي مجار للمياه. حفر الناس في بيوتهم بالوعة كلفتها ثلاثة دنانير (حفر بالوعة وليس بناء). كان الكردي نوزاد، بائع الخضروات، هو المختص الوحيد في الحي في حفر بالوعة الخراء تلك. وحين مات نوزاد تولى ابنه مصطفى العمل. عثروا على نوزاد متفحماً في دكانه بعد أن شب الحريق فيه ليلاً. لا أحد يعرف مالذي كان يفعله نوزاد في تلك الليلة. زعم بعضهم أنه كان يدخن الحشيش. أبي لم يصدق هذا الكلام. ولكل أشكال المصائب كانت هناك حكمته الأثيرة (كل شيء مكتوب علينا في هذه الدنيا الفانية). وهكذا صدقت

في طفولتي بأن (حياتنا) مركونة في الكتب المدرسية ودكان بائع الجرائد. أراد الأب إنقاذ طفولتي بما يملكه من نقاء ومحبة. كان ممتناً من الناس والحياة بطريقة تحيرني لغاية اليوم. كان مثل قديس في مسلخ بشري. كانت الكوارث تقصفنا مرة كل عامين. إلا أن الأب لم يرد أن يصدق بأن هناك مثل هذه اللعنة الغامضة التي يأتي الزمن بها. ربما ردها إلى القدر المكتوب. كنا عرضة للقصف من كل الجهات - من المجهول، من الواقع، من الله، من الناس وحتى الموتى كانوا يقصفوننا بالعذاب. حاول أبي دفن جريمتي بشتى السبل. على الأقل شطبها من ذاكرة أمي. لكنه فشل. استسلم أخيراً. وترك المهمة لجرّافة الزمن، فعلّها تردم الكارثة.

ربما أنا أصغر قاتل في العالم. قاتل لايتذكر شيئاً من جريمته التي لم تكن لدي وعلى الاقل، سوى حكاية. مجرد حكاية لتسلية الناس في كل وقت. وما لاحظته أن كل واحد كان يكتب ويلحن وينشد حكاية جريمتي على هواه. آنذاك لم يكن أبي يعمل في صناعة الطرشي. كان سائق دبابة. وكانت الحرب في عامها الأول. وكانت أمي تلح على أبي كي تنجب طفلاً ثالثاً. كان يرفض بسبب الحرب التي أفزعته. أحوالنا كانت ماشية: يرسل أبي كل شهر ما يكفي للأكل واللبس وإيجار البيت. وكانت أمي تقضي وقتها إما في النوم أو في زيارة زوجة عمي، للحديث عن أسعار الأقمشة ورعونة الرجال.

في الصيف تنتقل أمي إلى منطقة الأحلام. لا تسمع ولا تتكلم ولا حتى تبصر. كان القيظ يُذيب روحها. في كل ظهيرة تستحم ثم تنام في غرفتها عارية. مثل حورية ميتة. وحين يقدم الليل تستعيد شيئاً من الحيوية تماماً وكأنها أفاقت من غيبوبة. تشاهد المسلسل الدرامي في التلفزيون وبرنامج تقليد الرئيس أنواط الشجاعة للجنود الأبطال. وتفكر عسى أن يظهر أبي بينهم.

في ظهيرة أحد الأيام غفت أمي فاتحة ساقيها وذراعيها لهواء المروحة

السقفية. تسللنا أنا وأخي الذي يصغرني بعام إلى باحة البيت. لم يكن في الباحة سوى شجرة تين يتيمة وبالوعة الخراء تلك. أذكر أن أمي كانت تبكي تحت شجرة التين كلما مات لنا قريب أو نزلت علينا مصيبة. كانت فوهة البالوعة مغطاة بصينية طعام قديمة مسنودة بحجر كبير. كنا نزيحه، أنا وأخي، بصعوبة. ثم نبدأ برمي الحصى في البالوعة. كانت لعبتنا المفضلة. جارتنا أم علاء عملت لنا زوارق ورقية كنا نتركها على سطح بحيرة الخراء.

قالوا إني دفعت أخي في البالوعة ثم هربت إلى سطح البيت مختبأً في قفص الدجاج. ولما كبرت سألتهم: ربما سقط، وأنا هربت بسبب الخوف؟ قالوا: أنت اعترفت بنفسك. ربما حققوا معي مثل شرطة الدكتاتور. أنا لا أذكر أي شيء. لكنهم يقولون ويحكون، وكأنهم يتمتعون بمشاهدة أحد الإفلام. كان الجيران كلهم قد شاركوا في كرنفال جحيم البالوعة. لم يعثروا على تلك السيارة التي كانت تأتي مرة في الشهر وتفرغ بالوعات الحي. استعانوا بكل شيء. بالقدور والأواني الأخرى وبدلوٍ كبير لتفريغ الخراء من البالوعة. كانت عملية شاقة ومقرزة وكأنه مشهد تعذيب بالحركة البطيئة. كان القيظ والروائح الكريهة يضاعف من التعب وهول الصدمة. وقبل أن تغرب الشمس، أخرجوه، طفلاً كفنُهُ الخراء.

تأخر أبي في العودة من الجبهة. كتب عمي رسالة له ثم تكفل بمراسيم دفن أخي. دفنّاهُ في مقبرة الأطفال على التل. ربما هي أجمل مقبرة في العالم. في الربيع كانت تنبت هناك أزهار برية من كل لون وشكل. وتبدو المقبرة من بعيد وكأنها شجرة عملاقة ملونة. مقبرة يفوح عطرها بقوة وينتشر إلى عشرة كيلومترات. بعدها بأسبوع دفعت جارتنا أم علاء الباب وشاهدت أمي. كانت في ذهول من شدة الحزن. وضعت الخراء في طاسة صغيرة. وأخذت ببطء شديد تخلط الخراء بملعقة من البلاستيك، بالطعام، وتملأ به فمي ودموعها تسيل...

أرسلني أبي إلى عمي كي أعيش معه. وهكذا أصبحت لاجئاً من

صنف آخر. كنت أحل ضيفاً على بيتنا كل يوم جمعة. تصحبني زوجة عمي كي ترقب أمي. صرت مثل الكرة التي تتقاذفها الأقدام. هكذا مرت ست سنوات وأنا أسعى إلى أن أفقه مايحدث حولي. كان علي أن أتعلم ما تعنيه أحاسيسهم وكلماتهم وسلسلة جمر في رقبتي. كنت أحبو فوق بساط من السكاكين. وكانت البالوعة فزاعة طفولتي. سمعت في أكثر من مناسبة بأن الحياة تتقدم، تسير، تبحر، وربما تزحف. حياتنا كانت تتفجر مثل المفرقعات النارية. وتتناثر في سماء الله. كاتب الأقدار ومدفع القصف العظيم. قضيت سنوات طفولتي ومراهقتي وأنا أراقب الجميع مثل قناص يختبأ في العتمة. أراقب وأرمي. كنت أطلق على كوابيس حياتي كوابيساً أخرى - كوابيسي المتخيلة. ابتكرت صوراً ذهنية لتعذيب أمي والآخرين. ورسمت في دفتر مدرسي شاحنات عملاقة تسحق رؤوس الاطفال. مازلت أذكر صورة الرئيس المطبوعة على غلاف الدفتر. ارتدى فيها بدلة عسكرية وهو يبتسم. وقد كتب أسفل الصورة: القلم والبندقية فوهة واحدة.

كانت هناك عربة نفط يجرها حمار. تأتي إلى أزقة الحي شتاءاً. كان الأطفال يتبعون صاحب العربة، منتظرين أن ينتصب زب الحمار، المخيف. كنت أغمض عيني. وأتخيل زب الحمار، الغليظ والأسود، يدخل من أذن أمي اليمنى ليخرج من اليسرى. وهي تصرخ وتستغيث من شدة الوجع.

قبل أن تنتهي الحرب بعام، فقد أبي ساقه اليسرى وخصيتيه. وهذه الحال أرغمت أمي على ان أعود إلى البيت. قرر أبي أن يعود إلى مهنة أبيه وأجداده: صناعة الطرشي. يقولون إن جدي كان أشهر بائع طرشي في مدينة النجف. الملك نفسه، زاره ثلاث مرات. عدت إلى البيت وصرت ساق أبي وذراعيه وخادمه المطيع. وكنت سعيداً، فأبي معجزة من الطيبة. رغم كل ما عاناه في حياته. ظل مخلصاً لروحه. التي لم يشوهها الألم. ركّب ساقاً صناعية وضاعف من طاقة الحب. كان يدلل أمي ويغمرها بالهدايا- قلادات ذهب وخواتم وألبسة داخلية مطرزة بالورود.

قام أبي بتبليط باحة البيت وعمل غطاءاً كونكريتياً لفوهة البالوعة. لم تبق سوى فسحة لشجرة التين التي أماتتها المياه المخمرة للطرشي. تحتها بكت أمي آخر مرة حين بلغت السادسة عشرة من العمر. قامت الحكومة في بغداد بشق طريق للخط السريع وأزالت المقبرة القديمة. كان قبر والدها هناك. واستمر حزننا زمناً طويلاً على ضياع عظام الجد.

كانت الباحة مليئة ببرامل التخمير البلاستيكية. وأكوام من شوالات الخيار والباذنجان والفلفل الأخضر والأحمر والزيتون واللهانة والقرنبيط. وأكياس الملح والسكر والبهارات وقناني الخل وعلب الدبس. كانت هناك قدور طبخ كبيرة. الماء يغلي فيها طوال الوقت. نضيف إليها البهارات ثم خيار الماء والباذنجان والقرنابيط واللهانة والجزر. لم يكن أبي ماهراً كأبيه وجدّه. وراح يجرب طرقاً جديدة. كان قد قضى شطراً كبيراً من حياته في الدبابة. نسي الكثير من الوصفات السرية لعمل الطرشي. أضاعت الدبابة عليه زنّه ومهنة أسلافه.

أجلس قبالة أمي ساعات ونحن نقطع الباذنجان أو نحشو الخيار بالثوم أو الكرفس. كان لسانها، مسموماً مثل أفعى. ولم يعد الصيف يؤلمها. تحولت إلى بقرة سمينة حرقتها الشمس. سليطة اللسان. وتدخن بإفراط. نبتت في قلبها أعشاب مسمومة. كان الناس يرثون لحالها بكلمات مسمومة أيضاً: المسكينة.. لا زب ولا أولاد... بس غراب البين. الغراب هو أنا. ومعه كل رموز الشؤم. كان أبي مشغولاً طوال الوقت بأمور الحسابات والتعامل مع الدكاكين في السوق ونقل البراميل بسيارة الشحن القديمة. ينهار أبي من التعب بعد مغيب الشمس. يتعشى ويصلي ويروي لنا مشاكل الطرشي. ينزع ساقه الاصطناعية. ويدخل السرير ليدغدغ امرأته الشمطاء بأصابعه.

حين اندلعت حرب الخليج الثانية كان علي الالتحاق بخدمة الجيش. جلس أبي وعمي يتشاوران في أمور خدمتي العسكرية. لم يشاهد عمي

أهوال جبهات الحرب الأولى. كان يعمل في مديرية الأمن في مركز المدينة. اتخذ أبي قراره: لن أعطيه للموت. كيف لهم أن يقتلوا ابني الوحيد. تشاجر عمي معه. شرح له موقفه من دائرته الأمنية. ابن اخيه هارب من خدمة العلم (تريدهم يعدمونا إحنا والنسوان؟). أصر أبي على موقفه. هددنا عمي بأنه سيلقي القبض بنفسه علي إن لم ألتحق بالجيش. لكن أبي طرده من البيت. وقال له (اسمع.. صحيح أنا رجل مسالم.. لكن هذا ابني... قطعة من جسدي.. إن فعلت ذلك... ساذبحك من الوريد إلى الوريد...). كان عمي سكرأنا ليلتها. وهائجاً مثل ثور، غادر وهو يشتم صارخاً. قام أبي وصلى ركعتين. وسرعان ما استعاد هدوءه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... إنه أخي... مجرد كلام سكر.. أنا أعرفه... قلبه أبيض...

بقيت سجين البيت ثلاثة أشهر. كانت الشرطة العسكرية وكل أجهزة الامن تملأ الشوارع. قرر أبي ألّا أعمل في النهار كي لا ينتبه إليّ الجيران. أخرج ليلاً إلى الباحة مثل اللص وفي يدي فانوس. أجلس قرب شوالات الباذنجان والخيار والفلفل. وأنهمك في العمل والتفكير في حياتي. كنت أخلط العرق بالماء في علبة حليب فارغة لئلا أزعج أبي. أقضي الليل وأنا أسكر والمزة من كل أصناف طرشي سائق الدبابة. يسري الكحول في دمي فأحبو مثل طفل إلى البالوعة. الصق أذني بالغطاء الكنوكريتي وأصغي. أسمعه يضحك. أغمض عيني. فأتخيل لمس كتفه العاري. جلده ساخن من كثرة اللعب والتعب. لم أعد أذكر وجهه. صورته الفوتوغرافية الوحيدة مع أمي. هي تمنع الكل من الأقتراب منها. تخبئها في دولاب الملابس. تضع الصورة في علبة خشبية صغيرة مرسوم عليها طاووس.

عند ساعات الفجر الأولى ينهض أبي. غالباً ما كان يجدني نائماً في مكاني. يضع يده على جبيني. فأفيق من لمسة يده. (أدخل ابني... صليلك ركعتين... وادعو ربك يوفقك) لم يكن غافلاً عن شربي العرق. لكن الدين لم يكن بالنسبة له أحاديث نبي ولا شريعة ولا مُحرّمات. الدين هو حب الخير، هذا كلامه لكل من يناقشه في مسألة الحلال والحرام وأمور

الشريعة. لن أنسى أبداً ذلك اليوم الذي انهار فيه باكياً في ساحة اللعب بالكرة. أخاف الأطفال. وأنا خجلت وإرتبكت بسبب بكائه. كان رفاق حزب البعث قد أعدموا ثلاثة شبان كرد قريباً من ساحة الكرة. ربطوهم إلى أعمدة خشبية ورموهم بالرصاص أمام مرأى جميع سكان الحي. قبلها خطبوا من مكبر الصوت: (هؤلاء الخونة المخربين لايستحقون أن يأكلوا ويشربوا ويتنفسوا من ماء وهواء وخيرات هذا البلد)، وكعادة رفاق الحزب أخذوا الجثث وتركوا أعمدة الخشب في مكانها كي يتذكر الجميع ما حدث. جاء أبي إلى الساحة لاصطحابي إلى السينما كان مولعاً بالأفلام الهندية. وحين تأمل الهدف الذي ينقصه العارضة الخشبية أدرك أننا أخذنا الأعمدة الثلاثة وعملنا منها عوارضَ للأهداف. كانت آثار الدم الذي يبس على الخشب. انهار ابي حين سمع أحد الأولاد يقول: عمو.. ناقص عارضة وحدة.. يمكن يعدمون بعد واحد.. وناخذ الخشبة مالته..

في مساء صيفي قُصِفنا من جديد. طرق عمي الباب بعصبية. كانت أمي تعد النقود وتضعها في زجاجة معجون طماطم فارغة. أنا وأبي كنا نلعب الشطرنج. كان يمكنه أن يغلبني بسهولة. لكنه كان يتسلى بفرحتي وأنا أقتل جنوده أولاً. قدمهم وبقية البيادق لي من دون غطاء وكقرابين. أبقى على ملكه ووزيره فقط. ثم أخذ يفتك ببيادقي بوزيره الأسود ويحكم بالموت على ملكي.

خرج أبي للباحة لاستقبال عمي. لفت أمي فوطتها ولحقت به. وقفوا جميعهم قرب البالوعة وراحوا يتناقشون بعصبية لكن بصوت خفيض. راقبتهم من خلف زجاج الشباك. كنت دائخاً من سكرة الأمس. أنتظرت قدوم الليل لأسكر من جديد. هرولت أمي لجلب شيء من الأغراض أسفل السلم. تعاون أبي وعمي على أفراغ برميل مليء بطرشي القرنابيط. عادت أمي بمطرقة ومسمار. طرح أبي البرميل أرضا، وأخذ، يحدث فيه ثقوباً عشوائية بالمسمار. لم يكن يحمل ساقه الاصطناعية. كان يقفز على ساق واحدة وهو يدور حول البرميل كأنه يلعب أو يرقص. أوقف عمي

السيارة أمام باب البيت ونقلوا إليها براميل الطرشي. دخل أبي الغرفة وهو يتصبب عرقا:

- اسمع ابني... ماكو وقت... عمك عنده معلومات أن الأمن والحزب راح يفتشون من الفجر كل البيوت... عمك عنده أصدقاء أوفياء بقرية العوران... ابقالك هناك كم يوم... منّا لمن الأمور تهدأ...

دخلت البرميل الفارغ. أحكمت أمي غلق الغطاء. وحملني أبي وعمي إلى السيارة.

كان أبي محقاً. إنه أخوه ويعرف قلبه. قاد عمي السيارة في الشوراع مثل المجنون لينقذ حياتي. تمكن من الوصول إلى أطراف المدينة بسلام. لكن جميع المعابر المؤدية إلى الأقضية والقرى، كانت تحرسها نقاط تفتيش عسكرية. الحل الوحيد أمامه هو التوجه إلى الطرق المهجورة. اختار طريق مزارع الحنطة شرق المدينة. ذُعرُ عمي ربما أنساه الطرق المناسبة. حتى الطفل في المدينة كان يعرف سلسة التلال الصخرية الوعرة بعد مزارع الحنطة. ربما كانت صور تعذيب الناس في دائرته الأمنية تشتت ذهنه. لعله تخيل جماعته يذيبونه في أحواض حامض الكبريت (ضابط أمن يهرب ابن أخيه في برميل طرشي) كان يقود السيارة في مزارع الحنطة مسيطراً بالكاد على المقود. المطبات كسرت ضلوعي والغبار الذي تثيره السيارة يدخل من الثقوب في البرميل بدل الهواء. كانت رائحة البرميل مثل جيفة القطط الميتة في مزبلة الحي. هل كان عمي يقلع الأظافر ويفقأ العيون ويحرق الجلود بمكواة في أقبيه دائرة الأمن؟! ربما قادته أرواح المعذبين إلى الهاوية، ربما هي روحي الشريرة. ولعلها الروح التي كتبت كل شيء، فان، غامض، في هذه الدنيا الزائلة.

سبعة براميل تقبع في ظلام أسفل المنحدر مثل حيوانات نائمة. انقلبت السيارة بعد أن حاول عمي اجتياز التل الصخري الثاني. تدحرجت البراميل مع السيارة إلى الهاوية. قضيت الليل غائباً عن الوعي في جوف

البرميل. في ساعات الصباح الأولى. كانت أشعة الشمس تتسرب من ثقوب البرميل، وكأنها خيوط أنفاس ممدودة إلى غريق. كان الدم يملأ فمي، ويداي ترتعشان. كنت فريسة الإثنين: الألم والرعب. رحت أرقب أشعة الشمس وهي تتشابك بغرابة في البرميل. أردت التخلص من الفوضى التي لحقت بوعيي. شعرت كأني دخنت طناً من الماريهوانا: سمكة تفيق في علبة سردين. دودة ميتة في جوف بئر مهجور. جنين متعفن سُحقت عظامه في رحم على شكل برميل. إلى أن استقرت في ذهني صورة أخي النازل إلى قاع البالوعة وأنا أغوص وراءه.

كان ثغاء الماعز يصلني ضعيفاً أول الأمر، وكأنها فرقة إنشاد تتدرب على الغناء. تثغو عنزة ثم أخرى ثم كل العنزات سوية وكأنها وصلت إلى الميلودي المناسب. وقبل أن يصيح الراعي على القطيع، وتنطح عنزة البرميل، تحرك شعاع وسقط في بؤبؤ عيني. تبولت على نفسي في جوف البرميل، مشدوهاً من قسوة العالم الذي سأعود اليه.

# الحفرة

كنت أحشر في الكيس آخر قطع من الشوكلاتة. كما ملأت بها جيوبي. أخذت بضع قناني ماء من المخزن. هناك عدد كاف من معلبات سمك السلمون. خبأتها تحت أكداس ورق التواليت. وما أن توجهت إلى الباب الخارجي حتى اقتحمَ المكان ثلاثة مسلحين ملثمين. أطلقت النار فسقط أحدهم. هربت من الباب الخلفي إلى الشارع العام. لكن الإثنين أخذا يطارداني. قفزت سياج ملعب كرة القدم المحلي وعدوت صوب الحديقة العامة. وما إن بلغت نهاية الحديقة من جهة بناية متحف التاريخ الطبيعي سقطت في حفرة هناك...

- إسمعْ ... لا تخف!

أفزعني صوته المبحوح.

- من أنت؟

سألته والخوف يشلني.

. هل شعرت بألم؟

. لا...

. أمر إعتيادي. انها السلسلة!

تبدد الظلام بعد أن أشعل شمعة.

. خذ نفساً عميقاً! لاتقلق!

ثم أطلق ضحكة كريهة كلها غرور وهزء.

كانت بشرته داكنة وخشنة مثل قرص من خبز الشعير. عجوز هرم.

جذعه عار، يجلس على تخت صغير وعلى فخذيه شرشف قذر وبجواره شوالات وأشياء رخيصة وقديمة. لولا حركة رأسه كما لو أنها من فلم كرتوني، لكان يبدو مثل متسول عاد. كان يميل برأسه شمالاً ويميناً: سلحفاة من حكاية خرافية.

- من أنت؟ هل سقطت في الحفرة!

- آه، طبعاً... سقطت... أنا أعيش هنا.

. لديك ماء؟

. الماء مقطوع! سيعود قريباً... عندي ماريهوانا...

. ماريهوانا؟ هل أنت مع الحكومة أم المعارضة؟

. أنا مع ثقب أمك...

. أرجوك! هل المكان آمن؟

أشعل سجارة ماريهونا وقدّمَها لي. أخذت نفساً عميقاً وحدقت فيه. كان مثيراً للريبة. دخن بقية السيجارة وشغّل الراديو على محطة تبث أغنية بلغة غريبة. بدت كأنها إيقاعات أفريقية دينية.

. هل أنت أجنبي؟

. ألا يمكنك تمييز لهجتي... أنا أتحدث بلغتك يارجل! أما أنت فلا يمكنك أن تتحدث بلغتي لأني قبلك في الحفرة... لكنك ستتحدث بلغة من سيسقط في المرة القادمة!

. أووف يارجل. أنا أكره طريقة كلامك.

أشاح بوجهه ومال برقبته السلحفاتية إلى الأمام وأشعل شمعة أخرى. وضحَ المكان أكثر. كانت هناك جثة. تفحصتها على لهب الشمعة وفي فمي مذاق مر. كانت جثة جندي وبالقرب منه بندقية قديمة. فخذاه ممزقتان. ربما أصيب بشظية حادة. مظهره مظهر جندي من زمن قديم.

. صحيح، هو جندي روسي.

قرأ أفكاري وعلى وجهه ابتسامة متكلفة.

. وما كان يفعله في بلدنا! عمِل في السفارة؟

. سقط في الغابة أثناء الحرب الشتوية بين روسيا وفنلندا...

. أنت مجنون حقا!

. إسمع، لا صبر عندي لأمثالك، أردت أن أكون لطيفاً معك، لكن ها إنك أخذت تثير أعصابي... مزاجي اليوم خرائي...

أخذت أتفحص الحفرة. كانت تشبه البئر. جدرانها طينية رطبة، لكن رائحة زكية هادئة كانت تفوح من مسامات الطين. ربما رائحة زهور! رفعت الشمعة إلى أعلى كي أعرف عمق الحفرة التي تراءت من فوهتها أضواء الحديقة العامة.

. هل تؤمن بالله؟

سأل بصوته المقرف.

. نحن في رعايته دوما! أدعوه يارجل كي ينجينا من مصائب حياتنا...

كوّر كفيه بهيئة بوق وراح يصرخ بهستيريا:

. يا صاحب المعجزات، يا قدير، يا مراقب، يا الله يا كبير، دع زرافة أو قرداً على أن يكون طوله متراً وثمانين سنتميتراً... دع شيئاً غير الإنسان يهوي في الحفرة... دع شجرة يابسة تسقط في الحفرة، إرم لنا بأربع أفاع كي نصنع منها حبلاً...

كأن خبال هذا العجوز السلحفاتي كان ما ينقصني! ماشيته في الحديث عن دعائه الساخر وقلت لو أن رجلاً آخر سقط في الحفرة لكان سهلاً الخروج منها، فهي ليست عميقة...

. كلامك صحيح، وهذا هو رجل ثالث!

كان يشير إلى الجندي الروسي.

. لكنه ميت...

. ميت هنا، لكن ليس في حفرة أخرى...

استل العجوز فجأة سكيناً. راقبته بحذر. فقد يهاجمني. زحف على ركبتيه صوب جثة الجندي، وراح يقطع من لحمها ويأكل. لم يلتفت لي تماماً كما لو أني لم أكن معه.

-٢-

في تلك الليلة، حملت مسدسي وذهبت إلى الدكان. أغلقته حين انتشر القتل والسلب في العاصمة. كنت أتردد على الدكان حين يتعذر الحصول على الطعام والماء من الدكاكين القريبة من منزلنا. انهار الاقتصاد بسرعة. وتدهورت الأمور بسبب الاضرابات العامة. كانت هناك بوادر انتفاضة. وانتشرت الفوضى إثر إستقالة الحكومة. وبدأت أولى الاحتجاجات في العاصمة. وخلال بضعة أيام عصف بالبلاد الفزع والضياع. أفواج من البشر احتلت جميع المباني الحكومية. شكلوا لجأنا مؤقتة وسعوا إلى إدارة شؤون الناس. لكن الأمور ساءت فجأة. قيل إن أصحاب رؤوس الأموال هم الذين دعموا العصابات المنظمة التي تمكنت من السيطرة على الجزء الشمالي من البلاد. الأثرياء وأنصار الحكومة الهاربة كانوا على يقين من أن جماعات الأيمان الجديدة ستصل إلى دفة الحكم وتصبح البلاد معابد ظلامية. هذا ماقاله المتحدث باسم إقليم الشمال، كما هدد بانفصال الإقليم. لم يكترث المتطرفون من الجماعات الإيمانية لخطب الساسة والثوار. كانوا يعملون بصمت، وفي عملية خاطفة سيطروا على قاعدة الصواريخ النووية في البلاد. لقد ضيعنا الإنسان، وسنعود إلى حكمة الخالق. كان هذا شعارهم الجديد.

أما الجيش فقاتل على أكثر من جبهة. في مدينة الميناء الكبير قتل

بنيران رشاشاتهم أكثر من ٥٠ شخصاً أراد السطو على بنك المدينة المركزي. أخذ الناس يتصدون للجيش الذي صار في أعينهم عدو التغيير. كان السلاح كثيراً. وقيل إن جارنا الجنوبي كان من أعطاه المدنيين. بقي هناك عقلاء في العاصمة يدعون إلى الهدوء و الخروج من العاصفة التي اكتسحت البلاد. وقام الجيش بمحاصرة قاعدة الصواريخ وراح يتفاوض مع زعيم المتطرفين الذي كان يقيم بين قبائل مسلحة في بلد آخر. كان عقيداً طرد من الجيش بسبب افكاره المتطرفة. يقال أيضاً إنه وشم على جبينه: (تطهير الأرض من الشياطين).

مضغ العجوز اللحم وعاد إلى مكانه وكأنه انتهى من أكل سندويتش. مسح فمه بالمنشفة القذرة واستل كتاباً وراح يقرأ. أخرجت الشوكلاتة والتهمها بعصبية. كان العجوز كريهاً ومقززاً حقاً.

رفع رأسه عن الكتاب:

. إسمع ، سآتي لك بالآخر... أنا من الجن!

قالها ومد يده كي أصافحه.

رمقته بنظرة متفحصة.

ماذا قال جدي وهو يحتضر. ظل يهذي قبالة شجرة الرمان (كل مايمكن القيام به في هذا العالم هو مص رمانة والتحديق في الشجرة...).

لكم أردت أن أنهض وأركل العجوز. انتبهت إلى نظراته الحاقدة لي وابتسامته التي تكشف عن الاستخفاف بي ثم قال:

. يبدو أنك أكثر شجاعة من هذا الروسي وأقل قرفاً... إسمعْ، أنا لا أكترث لك وزوار الحفرة! لا أبحث في قصصكم عن شيء سوى التسلية... حين تقضي حياتك في هذه السلسلة اللامتناهية تكون متعة اللعب هي الحل الوحيد للبقاء. تعساء أمثال هذا الروسي والذين يذكرونني بعبث اللعبة. رومانسية الرعب تحول السلسلة في ذهني إلى مجرد مشنقة...

صاحبنا الروسي هذا، ما إن سقط في الحفرة أرعبه أني فيها. صوّب بندقيته إلى رأسي. وحين أخبرته بأني من الجن، كاد يفقد صوابه. كانت لديه رصاصة واحدة. وإذا لم تقتلني سيموت هو من الرعب، وإذا لم يطلقها سيبقى سجين شكوكه!

. طيب، وماذا حدث؟

. ها ها ها، قلت له إني أعرف كل أسرار حياته. ولكي أزيد من خوفه قلت إني أعرف نيكولاي، أصغر أولاد عمته. اضطرب الجندي حين سمع الإسم. تكلمت عن اغتصابه ونيكولاي لفتاة في القرية. انهارت أعصابه وأطلق الرصاصة على رأسي. إنها سلسلة تافهة محشوة بقصصنا البشرية. هل تؤمن بمثل هذا القول: (نحن مجرد ظلال غرائبية في هذا العالم). كلام تافه، أليس كذلك. الحياة جميلة ياصديقي. تمتع بها ولاتغتم. أنا كنت أعلّم الشعر في بغداد. أظن أنها ستمطر. قد نعرف في يوم ما أحد الأسرار أو المنافذ... لا فرق هنا. المهم هو موسيقى السلسلة...

صرخت:

- أنت تأكل من الجثة. يا لك من عجوز مقرف!

. ههههههه... أنت ستأكلني أيضاً، وسيأكلونك أو يستخدمونك مادة لبطارياتهم أو لشرابهم...

ضربته على وجهه وأنا أصرخ من جديد:

. لو لم تكن هرماً لحطمت جمجتك أيها السافل!

لم يكترث لكلامي. وكل ما قاله إنه لا داع لأنزعج، فهو سيترك الحفرة قريباً وسأسقط أنا في حفرة أخرى من زمان آخر. وقال إنه سيبقي عندي كتابه. كان كتاباً كله هلوسات. فيه شروحات مفصلة عن طاقة سرية مستخرجة من الحشرات، لخلق أعضاء إضافية تقوّي الكبد والبنكرياس والقلب وكل مضخات الجسم.

قبل تركه الحفرة أخبرني العجوز أنه من بغداد وعاش في زمن الخلافة العباسية. كان معلماً ومؤلفاً ومخترعاً. اقترح على الخليفة إضاءة أزقة المدينة بالقناديل. وكان قد أشرف قبلها على إضاءة المساجد. لصوص بغداد انزعجوا من قناديله. طاردوه بعد صلاة الفجر. وكان مشغولاً بتوسيع خطة إضاءة المنازل بطرق حديثة. وعلى مقربة من داره تعثر صاحب القناديل بثوبه وسقط في الحفرة...

ومما قاله لي هذا البغدادي: إن كل زوار هذه الحفرة يتعلمون بسرعة، قراءة ومعرفة أحداث الماضي والحاضر والمستقبل. وإن مبتكري هذه اللعبة يقومون بتجارب لفهم (المصادفة). وكانت هناك شائعات عن أنهم عاجزون عن السيطرة على هذه اللعبة المتدحرجة بلا توقف على منحنيات الزمان. قال أيضاً: من يبحث عن مخرج هنا عليه أن يطور فن اللعب ايضاً. وإلا بقي شبحاً مثلي سعيداً باللعبة... ها ها ها... لقد سئمتُ من محاولة فك الرموز. هناك خصمان في كل لعبة. كل واحد لديه شفرته الخاصة. إنه قتال دام متكرر ومقرف! والباقي هو الذاكرة. التي يعجوزن عن محوها بسهولة. في زمنك أنت، كانت التجارب على الذاكرة في بداياتها. لقد واصل العلماء العمل لأكثر من قرن ونصف بعد المحاولات الأولى التي كان الغرض منها إكتشاف مراكز الذاكرة في مخ الجرذي. لكنه تبين أن الجرذان تتذكر ما تعلمته بالرغم من أن أمخاخها كانت قد دمِّرت في المختبر تماماً. لكانت تلك تجارباً مذهلة لو طبقت على الإنسان. هل الذاكرة ورقة رابحة في هذه اللعبة التي تمارس بجنون إلى النهاية، أم أن تكتفي بالرقص؟... وكل من يسقط هنا يصبح وجبة طعام أو مصدراً لإشباع غرائز أو طاقة لمنظومات أخرى. نحن الذين... تباً، من نحن؟ لا أحد يدري...

مات العجوز وتركني حائراً حقاً. كان النهار قد طلع، وسقطت ندف الثلج من فوهة الحفرة. بدت جثة الروسي صورة شبحية. أردت العثور على

أزمان وجودي المبعثرة في أمكنة أظنها متخيلة. وكان وعيي يتحرك كما عربة على سكة الموت في مدينة للألعاب. راقبت ندف الثلج المترنحة. وكان الجندي وصورته قد اختفيا. عيناي كانتا مفتوحتين ودماغي نائماً. ربما أنا في سبات منذ مئات السنين. تخيلت صورة لخلية ميتة! أحقاً أنا موجود في دماغي فحسب أم في كل خلايا جسدي؟ فاحت رائحة الزهور بقوة في الحفرة. أغمضت عيني لكن فتاة صغيرة سقطت في الحفرة! كانت تحمل على ظهرها حقيبة إلكترونية مربوطة بأحزمة عديدة حول صدرها، وعلى فخذيها مربوطة عناقيد معدنية فسفورية، ومسكت بيدها شيئاً يشبه المقياس الإلكتروني.

. من أنت؟!

سألتني لاهثة. كانت هناك جروح تشوّه وجهها الجميل..

. أنا جني... ماالذي حدث لك؟

شعرت بأن صوتي كما لو أنه يعود إلى أزمان قديمة.

أجابت:

- كان يطاردني (روبوت) تحليل الدم!

كانت تمص إصبعها المتورم بهيئة فطر.

. أمر عاد...

قلت بلامبالاة ثم زحفتُ صوب جثة العجوز.

# نافذة الطابق الخامس

كلاهما في العقد الخامس. مصابان بسرطان القولون. أما أنا فبسرطان الرئة. كنا نزلاء مستشفى مدينة الطب وسط بغداد. البارحة أخذوا الحاج صابر. المسكين، مات وتخلص من العذاب. جاءت المنظفة وغيّرت شراشف سريره. راقبناها أنا وسلوان حين رتبت السرير بعناية. فتشت دولابه الصغير. أخرجت بضع مناشف وكيس برتقال كانت قد جلبته بالأمس ابنته فاطمة. قدمته المنظفة لنا. قال لها سلوان إنه لا يأكل برتقالات رجل ميت. ثم سألها بعصبية عن الطبيب وهل سيمر على الردهة.

. لا يوجد ولا طبيب واحد... الجميع في قسم الطوارئ.. ألا تشاهد المجزرة من نافذة قصرك!

كعادتها، ردت عليه بقسوة.

كان لدى سلوان كرسي هزاز خاص به. جلبه من البيت. يضعه قرب النافذة ويتأمل ليل نهار ساحة قسم الطوارئ. كنا في الطابق الخامس. لم تكن الساحة تهدأ. سيارات الإسعاف والأخرى الخصوصية تدخل وتخرج بجنون. تأتي أحيأنا عربات تجرها الحمير والخيول، محملة بأجساد مفرومة لاتميز فيها الميت من الحي. كان عاماً أسود. حرب أهلية. دخلاء من الخارج. مخابرات دولية. مغامرون. كانوا يشقون سوية نهر الجحيم في بغداد.

الأطباء يتفقدوننا وصدرياتهم ملطخة بالدم. المستشفى ضخمة، يرقد فيها مئات المرضى. سلوان اتهم الأطباء بالتقصير في العناية بالمرضى.

أخبروه أنهم لايمكنهم التفرج على قسم الطوارئ، فليس هناك عدد كاف من الأطباء المسعفين. إنها حالة استثنائية. البلد يتمزق. لم يقتنع سلوان بسهولة. حملهم مسوؤلية تدهور صحة زميله في سرطان القولون. كان هذا طياراً متقاعداً يئن طوال الوقت، أكثر من مرة توسل إليهم أن ينهوا حياته. سلوان كان فزعاً من قولونه. فقريباً سيصل مرحلة ضياع الطيار في وادي الألم. كنا محاصرين بين أنين الطيار ومشاهد النافذة الدامية. كانت مغلقة. لم نسمع صراخ الجرحى ولطم الناس في ساحة الطوارئ. كنا نسمع أنين الطيار وحده وكأنه موسيقى مقابر تصاحب شاشة النافذة.

حالة سلوان النفسية ساءت بإستمرار. صار مثل الأطرش. الوحيد الذي كان يتكلم. لم يسمع سوى حفيف شبح الموت وهو يقترب منه. عرفت أنه عمل طوال حياته نجّاراً. زوجته الأولى كانت عاقراً. تزوج وهو في نهاية الاربعين من امرأة شابة. أفرحته بولد جميل. زوجتاه كانتا تزورانه بأنتظام. كانتا تجلسان على حافة السرير مثل غرابين متخاصمين. وكان سلوان يوزع شتائمه عليهما بالتساوي، ومن دون أن يفهم كلمة مما تقولانه. كان غارقاً في لجج يأسه وكأنه حطام سفينة.

في ذلك اليوم كان سلوان في أقصى التوتر. استفاق عند الفجر. كانت قد وصلت وجبة من (القرابين البشرية) مع أول خيط ضوء وصل إلى أرض عباد الله: نسف انتحاري نفسه في الجامع أثناء صلاة الفجر. أشعل سلوان سيجارة وظل يروح ويجيء في الردهة وهو يتمتم مع نفسه. دخلت الممرضة وطلبت منه أن يطفيء السيجارة. أحدث فوضى عارمة وشتم الأطباء والانتحاريين والسرطان، ولعن مراراً أنين الطيار الذي يسبب له، كما قال، الأرق. لم يطفيء السيجارة إلا بعد أن أيقظ صياحه الجميع. نهضتُ من فراشي، وجلبت من المطبخ أبريق الشاي. جلسنا سوية قرب النافذة نحتسي الشاي مع البسكويت. لم يكن عدد المصلين كبيراً. وهدأت الساحة تقريباً عدا المطر الذي يهطل عليها. أردت أن أهدئ من روعه لكن الكلمات تبعثرت في فمي. أما هو فظل يشتم الديكتاتور الأخير، وأنا

لعنت، بدوري، الاحتلال. سأل عن وشم العقرب فوق يدي، فأخبرته أنه من مخلفات المراهقة. كنا شلة من الأصدقاء، اجتمعنا في ليلة سكر في خرابة وقررنا أن يَشِمَ كل واحد منا عقرباً ونكون عصابة باسم العقرب. ابتسم سلوان، وتبدد فجأة مزاجه المتعكر وراح يخبرني هو الآخر ذكرياته عن العقارب. قال إنه عاش في طفولته في قرية كانت مليئة بالافاعي والعقارب السامة. تحدث عن بنت تدعى بروين، وظل يكرر وصفه للطفولة بأنها غير حقيقية.

(تعالي بروين، شوفي... هذا عقرب أسود!)

بروين تسرق زجاجة معجون طماطم فارغة، كانت أمها تملؤها بالماء وتضعها في الثلاجة. وأستلُّ أنا الأربطة من بساطيل أبي العسكرية القديمة المركونة أسفل السلم. نلتقي في ركن الزقاق ونعبر حقول الحنطة البعيدة. نملأ زجاجة بالماء من الجداول في الوادي، ونبدأ رحلة البحث عن العقارب. لم يكن البحث صعباً، فقد كنا نميز بسهولة حفرة العقارب بحكم حجمها الصغير. كانت عبارة عن ثقوب دائرية شبه منحرفة في الأرض ودائماً هناك على حواف الثقب تراب الحفر. العملية كالآتي: نسكب من الزجاجة الماء في حفرة العقرب وسرعان ما تمتلئ الحفرة بالماء. عموماً يكفي التبول على الحفرة كي تخرج العقارب.كنا نتبول حين ينفد الماء. وكانت هناك تقنيتان لنا وللعقرب الذي سيختنق إذا كان في الحفرة ويحاول الخروج، لكنه حين يشعر بوجودنا، يخرج رأسه فقط. حينها نحفر بسرعة بملعقة من تحت العقرب ونرميه بعيداً عن ثقبه. ونجد أن الفزع قد أصابه بسبب هجومنا الكاسح. يريد العثور على مأمن تحت صخرة أو ثقب لكن هيهات، فنحن أطبقنا عليه ودفعناه إلى بيته االجديد - زجاجة معجون الطماطم.. في هذا البيت سيرى الأهوال والعجائب. نسد الفوهة بالكيس البلاستيكي ونربطه بقيطان بسطال أبي.

- بروين هذا واحد...

- أووه... إنه أصفر مرة أخرى!

كنا نبحث عن واحد أسود، بسبب ندرته. لتكون المعركة ممتعة بين عقربين أصفر وأسود.

تمشى سلوان حتى سرير الطيار وعاد، ثم حدق في عيني للحظات:

. أعدمت الحكومة والد بروين لتعاونه مع قوات البيشمركة الكردية!

. هل لديك علكة!

قلت وأنا أراقب أصابع يده المتوترة.

هز رأسه بالنفي وراح إلى سريره. ثم سحب سلوان بطانيته فوق رأسه. بقيت أنا أفكر في طفولتي ثم أخذت بأحوال زوجتي وطفلي. العملية الجراحية بعد أسبوع. سيستأصلون قطعة من رئتي. لا أدري إن كنت سأنجو. كم أنا متلهف للعودة إلى الكتابة! لا يوجد مكان رائع أشتاق إليه كأروقة الجامعة. كنت أعد أطروحة ماجستير في أدب الفانتازيا. أثارني خلو أدب البلاد من هذا الفن الكتابي المميز. شغفي الكبير بالدراسة والكتابة والذي يفسرونه في بيتنا بحكاية السرّة. عند ولادتي، وبطلب من أبي، دفنت أختي الكبيرة سرّتي في ساحة مدرستها الابتدائية. ويعلل أبي فشل أخي عادل في دراسته بأن أمي دفنت سرّته في حديقة المنزل. كنت أمازح عادل بالقول: بدل أن تصير عالم نبات أو فلاحاً، ها أنت قد صرت عاطلاً.

. نحن لا ندري... سمعتك ألف مرة تقول إن هذا العالم متناقض وغامض، وربما هناك علاقة بين الحديقة والنحس الذي يرافقني!

ثم يطلق ضحكة وهو يقسم أن أبي أخبر بحكاية دفن السرة جميع الأقارب والجيران وزملاءه في العمل.

زارنا الطبيب في فترة ما بعد الظهر. كان شاباً مرحاً، قام بمعجزة حين انتزع ابتسامة من سلوان. ربت على كتفه ووعده بأن الطبيب المختص سيأتي في القريب. بعدها عاد سلوان إلى فرجة النافذة. سمعته يتمتم

مع نفسه ثانيةً. أخذ أنين الطيار يتصاعد من جديد، متوسلاً بنبرة طفولية بأن يخلصه أحدهم من حياته. خرج سلوان عن طوره. وراح يعنف الطيار بالكلام ويسخر منه ثم يتهمه: كم من الناس قتلتهم بطائرتك الحربية! ها إنك محظوظ، تختبئ في المستشفى، بينما يغتالون زملائك، يذبحونهم واحداً واحداً...

كان سلوان محقاً. لكن لا يحق له أن يزيد من عذاب الطيار. كانت قد بدأت حملة منظمة لاغتيال الطيارين بعد سقوط بغداد. يقولون إن المخابرات الإيرانية تنتقم منهم بسبب طلعاتهم أثناء حرب الخليج الأولى. تدخلت الممرضة لمساعدة الطيار وحذرت سلوان من قيامه بمثل هذا التصرفات. سلوان والطيار كأنا أقدم نزلاء الردهة. حينما جئت إلى هنا كأنا صديقين حميمين يتبادلان الحديث والنكات طوال الوقت. لكن ما أن انهارت صحة الطيار حتى جُنّ سلوان. فالطيار كان في جوفه - صورة من قولونه.

في المساء جلس قرب سرير الطيار. كأنا يتهامسان. أنا كنت راقداً في سريري أطالع في كتاب إيتالو كالفينو (بالومار). كان السيد بالومار يفكر (ماالعمل للتوصل إلى معاينة شئ ما بمعزل عن الأنا؟ من هو صاحب العينين اللتين تنظران؟ يسود الاعتقاد عادة بأن الأنا هو الشخص الذي يطل من شرفة عينيه كما يطل المرء من حافة نافذة وينظر إلى العالم الذي يترامى باتساعه هناك أمام ناظريه) رمقني سلوان بنظرة غريبة ثم عاد يتهامس مع رفيقه. نهض هو يضع يده على كتف الطيار، وكأنه يطمئنه على أمر ما. بعد قليل قرّب الكرسي المتحرك من السرير، وطلب مني أن أساعده كي يجلس الطيار فيه. بعدها دفع سلوان الكرسي إلى النافذة. عدت إلى سريري وطفقتُ أراقبهما. ظننت أن الطيار يريد المشاركة في الفرجة. اقترب سلوان من سريري. أراد ان يقول شيئاً، لكنه تراجع ثم أخذ يدور حول نفسه وهو غارق في التفكير. انتابني الشك في سلوكه. كان وجهه شاحباً وبدا كأن الموت على وشك أن يخطفه.

أظن أن لمثل هذه الفرجة سلطة قاهرة. فهي شكل من أشكال الجاذبية تجاه فعل الجريمة. الذهن يدمن أيضاً ويقتات على فطائس الفزع. ربما ذهني هو مجرد ضبع يبحث عن فطيسة. لقد تحجرت في سريري، مثل تماثيل بغداد - شاحبة، أنهكتها النافورات التي تقذف الدم. أرجع سلوان كرسي الطيار قليلاً إلى الوراء. حمل كرسياً، وبثلاث ضربات عنيفة متتالية هشم زجاج النافذة. قرّب بعدها كرسي الطيار من أطار النافذة ثم عاد إلى سريره وغاص فيه.

تسلق الطيار، بصعوبة، حافة النافذة. كان يصرخ من الألم، فشظايا الزجاج مزقت كفيه. دفع جسده بمشقة خارج النافذة، فهوى فوق ساحة المعركة الدامية.

# المسيح العراقي

كنا نعسكر في مدرسة بنات. قالوا إنهم ذاهبون للنوم في الملجأ. دانيال المسيحي أخذ بطانيته وفرشها بعيداً في ساحة المدرسة المكشوفة.

(طبعاً.. المسيح أبو علج مسودن) علّق جندي، بطول النخلة، والخبز اليابس يملأ فمه.

. لو يمكن ميريد ينام وية المسلمين!

عقّب جندي آخر.

هؤلاء شبان قردة. لايعرفون حقيقة دانيال. شغلهم الشاغل ممارسة العادة السرية فوق رحلات البنات. صاروخ واحد ويصيرون عيورة متفحمة. في مثل هذه الحروب العبثية موهبة دانيال هي طوق نجاة. كنا معاً في حرب الكويت. لولا قدراته المدهشة، لما نجونا. باستثناء كآبته، لايمكن اعتبار دانيال من طينة البشر. إنه نسمة هواء عذبة.

فرشت بطانيتي قربه، واستلقيت على ظهري، مثله، محدقاً في السماء.

(نم يا صديقي علي.. نم.. ماكو أي علامة الليلة.. نم..)

ثم شخر في الحال.

دانيال كان يعلك طوال الوقت. عمده الجنود بلقب (المسيح أبو علج) مرات كثيرة خُيّل لي أن علكة دانيال كانت بمثابة بطارية لشحن شاشة دماغه. كان حلم حياته العمل في وحدة الرادار. أنهى دراسته المتوسطة وتقدم بطلب للتطوع في القوة الجوية. رُفض طلبه، ربما لأن والده كان

قيادياً شيوعياً في السبعينيات. كان عشقه لجهاز الرادار يضاهي عشق الآخرين للنساء أو كرة القدم. جمع صور الرادارات وكان يتكلم عن الإشارات والذبذبات كما محادثة عاشقين عاريين في مزرعة عنب. أذكر قوله لي في الحرب الماضية (الإنسان يا علي، أقدر جهاز رادار مقارنة بالحيوانات الأخرى... كل مايحتاجه هو أن يتمرن على إخراج الروح واعادتها مثل الشهيق والزفير). دانيال وشم أيضاً على ذراعه اليمنى معادلة رياضية تخص الرادار:

$$P_r = \frac{P_t G_t A_r \sigma F^4}{(4\pi)^2 R^4}$$

بعد أن تبددت آمال المسيح في الانضمام إلى القوة الجوية، تطوع في صفوف الوحدات الطبية العسكرية. لكنه لم يتخل عن عشقه للرادار. ومن كان يعرفه، لا يستغرب أبداً من هذا العشق. فالمسيح، أبو علج، هو نفسه، كان أغرب رادار في العالم. أتذكر تلك الأيام المرعبة أثناء حربنا في الكويت. كان الجنود المذعورون، مثل فراخ البط، يتبعونه، أينما ذهب. كانت طائرات التحالف تقصف خنادقنا من دون أن نتمكن من إطلاق رصاصة واحدة. وكأننا كنا نحارب قوة سماوية عُليا. كل ماكنا نفعله هو حفر المزيد من الخنادق والتحرك من مكان إلى آخر مثل الجرذان. عسكرنا أخيراً قرب الصحراء. ولم يتبقّ لنا سوى الإيمان بالله وقدرات دانيال المسيحي. في إحدى الليالي كنا نأكل في الخندق مع بقية الجنود. حين أخذ دانيال يتذمر من ألم في معدته. توقف الجنود عن الأكل، وحملوا أسلحتهم وأستعدوا للوقوف وهم ينظرون سوية إلى فم دانيال:

. أريد أن استريح في ظل خزان الماء الكبير.

نطق المسيح أخيراً.

لحقه الجنود، وهم يتدافعون ويحاولون أن يلتصقوا به، وكأنه درع ضد الصواريخ. جلسوا حوله في ظل الخزان. بعد ٣٥ دقيقة فقط. سقطت ثلاث قذائف فوق الخندق. لم تكن المرة الوحيدة. لقد أنقذت تكهنات

المسيح العديد من الجنود. ما كان يحدث في تلك الحرب برفقة دانيال كان يشبه حكايات الرسوم المتحركة. بلمح البصر يصبح الواقع مطاطاً. ينتهي التماسك، ويبدأ الهذيان. كيف يمكن التفكير مثلاً في تلك الحكة المستمرة في خصيتي المسيح التي تكهنت بسقوط المروحية الأمريكية فوق مقر الضباط. وهل يمكن تصديق أن ثلاث عطسات متتالية للمسيح تكشف عن هجوم جنوني بالصواريخ. وكانوا قد أطلقوها فوقنا من جهة البحر. كنا جنوداً خرفان. نخوض حروباً هزلية.

سمعت شائعات كثيرة تقول إنه قد رفعت تقارير عدة إلى القيادات العليا عن قصة المسيح. لكن الفوضى في تلك الايام وهزيمة جيشنا وسحقه مثل الذباب حالت دون اهتمام السلطات. كثيرة هي الأقاويل عن شغف الرئيس بالمشعوذين والسحرة وأصحاب القدرات الخارقة. يزعمون أن تلك الكتب، وما أكثرها، التي ترجمت في البلاد بشكل مفاجئ عن علم الباراسايكلوجيا في الثمانينات كانت بإيعاز من الرئيس. فهو قد سمع بأن الدول المتقدمة كانت تطور قدرات التخاطر وتستغله في عمليات التجسس. وبظن الرئيس أن العلم والشعوذة هما شيء واحد وإن اختلفت طرقهما في فك الأسرار. لم يكن المسيح مغتراً بقدرته في التنبؤ ولا اعتبارها أمراً غريباً. كان يحدثنا بقصص عن قدرات الإنسان على التنبؤ عبر تأريخه. ما انتبهت إليه أن كآبة دانيال السوداء قضت على مسرته من أن يمتلك مثل هذه الموهبة. وحتى شغفه بالرادار لم يجلب له المسرة. كانت افكاره عن السعادة غامضة. فهمت منه أن عتمة الذات كانت تخيفه. وقد ظن أن موهبته مجرد دليل آخر على مدى عجزنا وضآلتنا في هذا العالم الغامض. أخبرني أنه قرأ في سن مبكرة قصة لكاتب عراقي. كانت شخصية الكاتب ساخرة وخائفة في الوقت نفسه. البطل في القصة كان قد بلعه كوسج بعد معركة شرسة في نهر الزمن المتخيل: يجلس البطل في العتمة أسيراً هناك ويفكر وحيداً: كيف بالإمكان التوفيق بين حياتي الخاصة وإدراكي لعالم ينهار أمامي (*)

*) هكذا قال إنغمار برغمان في أحد الحوارات معه.

سؤال أرهق حياتي. ظل يؤرقني مثل جرح مفتوح - يقول المسيح.

حين استيقظنا في اليوم التالي كانت القوات الأمريكية على مشارف بغداد. وبعد ساعات أسقطوا تمثال الديكتاتور. كانت صدمة سوريالية. ارتدينا ملابسنا المدنية وعدنا إلى أهلنا. كانت مجرد حرب عميان أخرى. لا أحد من كتيبتنا أطلق رصاصة واحدة. التقيت دانيال بعد الحرب مرات عدة. عاد للعيش مع أمه العجوز. وبعد أن حلت الفوضى في البلاد، زرته في بيتهم في بغداد. كنت أريد الكلام معه عن عودتنا للجيش. قال إنه كره الديكتاتور، لكنه لن يساهم في جيش تحت وصاية المحتل. بعدها لم ألتق به. أما أنا فعدت إلى الجيش. وعاد دانيال إلى العناية بأمه. كانت أختاه قد هاجرتا إلى كندا منذ زمن طويل. وتسرب بقية الأقارب من البلد تباعاً. طفشتهم الحروب وجنون التعصب الديني. من عائلته الكبيرة بقيت الأم فقط. عرفت بأن دانيال كان يقضي في البيت جل وقته بقراءة الروايات والموسوعات العلمية، ويتابع الأخبار ويرعى أمه التي فقدت السمع والبصر والذاكرة. الشيخوخة فصلتها عن العالم. العجوز لم تسيطر على فضلاتها. كان المسيح يغير حفاظتها وأكياس البول كل بضع ساعات. موت أمه كان يعني انقطاع الخيط الذي يشده بالمكان. لم يكن ينوي أن يهاجر. توسلتهُ أخته الكبيرة في رسالة مطولة، بأن يهرب من البلد. لكن المسيح يشبه أمه في عنادها. كلاهما رفض غواية الشيطان. الانفصال عن فردوسها الضائع.

بعد قداس يوم أحد اصطحب المسيح أمه إلى مطعم شعبي مشهور بكبابه. أعجبته نظافة المطعم وتخصيصهم مقاعدَ للأطفال. لقد تغير المكان كثيراً. لم يتذكر متى كانت آخر مرة كان فيها هنا. اختار المسيح طاولة فارغة في الزاوية وأعان أمه على الجلوس. أثاره مرح النادل. كان يمزج أسماء الأكلات الشعبية بأدوات الموت اليومية. وكان الزبائن يضحكون ويحبونه. يصيح منادياً على طلب: نفر كباب مفخخة يضوي الدماغ والبطن... واحد تشريب انشطاري... تمن ويابسة صاروخية...

طلب المسيح نفر ونص كباب وأوصى على الفلفل الحار وقدح لبن

وزجاجة عصير باردة. عاد النادل بالطلبات وألقى على مسامع المسيح نكتة شعبية عن الفضول. ابتسم المسيح للمجاملة. حمل أصابع أمه برفق وتركهما تتلمسان الكباب الحار والطماطة المشوية. أعادهما إلى مكانهما على طرف الطاولة. عمل لها لقمة لذيذة. ودسها في فمها وهو يبتسم لها بمحبة إلهية كبيرة.

استأذن شاب في الجلوس إلى طاولة المسيح. ضخامة جسده وقسوة ملامحه لم تمنع من تخمين عمره: مقبل على العشرين. طلب نفر كباب وأوصى على المزيد من البصل. كانت وسامته ملفتة للنظر. وكان يحك رقبته مثل من فيه جرب. وعيناه لا تستقران على مكان. قرب دانيال صحن السلطة من أصابع العجوز وتركها تمس الخضرة في الصحن. حضّر لها لقمة أخرى. راقبهما الشاب خلسة. بدا غريب الأطوار. ظل يلوك لقمته ببطء وجاهد في بلعها والدموع تنبثق من عينيه الجميلتين. انتبه دانيال إليه. أمال رأسه للأمام. وسأل إن كان بأمكانه المساعدة. كرر سؤاله. لكن الشاب لم يرفع عينيه عن الطبق وبدا كأنه لم يسمع دانيال. واصل المضغ ودموعه تهطل. استل منديلاً ومسح دموعه ونظف أنفه. جال ببصره في أرجاء المطعم. ثم حدق في عيني المسيح. تبدلت ملامحه الباكية متكشفة عن وجه آخر. بدا وكأنه نزع قناعاً عن وجهه. مسك بطرف سترته وأزاحها قليلا كمن يعرض صدره:

- إنه حزام ناسف.. كلمة واحدة منك.. وأفجر نفسي

قالها الشاب وألقى نظرة مهددة صوب العجوز.

قتلت أنا بنيران صديقة. كنا في دورية مشتركة مع القوات الأمريكية. فُتحت علينا ليلاً من بيت في تلك القرية. رد الأمريكان بهستيريا وظنوا أننا نطلق النار صوبهم. تلقيت ثلاث رصاصات في الرأس. التقيت بالمسيح في عالمنا الجديد. وكنت في غاية السعادة. روى لي كيف أنه كان منقاداً لذلك الشاب في مطعم الكباب، بطريقة لايمكن تفسيرها. لم يكن الرعب

وحده ما شلّه بل الرغبة الغامضة التي انتابت المسيح حينها في الخلاص. استمر للحظات يحدق في وجه الشاب. عندها أمال الأخير رأسه وطلب من المسيح النهوض معه إلى تواليت المطعم. لم يتزحزح أول الأمر من مكانه وكأنه تحجر ثم قبل رأس أمه ونهض.

اقتاده الشابُ إلى المرحاض. وارى الباب واحتفظ بطرف أصبعه فوق زر الحزام الناسف وبيده الأخرى استل مسدساً من حزامه. صوبه إلى رأس دانيال. كان الشاب يعانق المسيح ويلف ذراعيه حوله بسبب ضيق المكان، وقد لخص مايريده: أن يتبادلا الحزام، مقابل حياة العجوز.

كان الشاب في حالة هيستيرية وسيطر بالكاد على نفسه. قال إن هناك من سيصور الإنفجار خارج المطعم. وإن لم ينسف نفسه فإنهم سيقتلونه. لم يرد دانيال عليه بكلمة. وراحا يتصببان عرقاً. حاول زبون دفع باب المرحاض. فتنحنح الشاب. ثم كرر وعده للمسيح بإخراج العجوز من المطعم بأمان، وإذا لم ينسف المسيح نفسه فإنه سيقتل العجوز. مرت نصف دقيقة من الصمت. ثم وافق بإيماءة من رأسه وهو يحدق ذاهلاً في عيني الشاب. طلب الشاب منه أن يفك الحزام ويلفه حول نفسه. كان الأمر صعباً لضيق المكان. انسحب الشاب بحذر، تاركا المسيح في المرحاض وحوله الحزام الناسف. اتجه مسرعاً صوب العجوز في زاوية الصالة. ربت على كتفها بلطف ومسك يدها. قامت معه مثل الطفل. كان الزحام أخذ يشتد في المطعم، ويتعالى الضجيج. الأفواه تضحك. وأصوات الملاعق تنطلق وكأنها حرب بالسيوف.

خرّ المسيح منهاراً على ركبيته. راح يتنفس بصعوبة ثم تدفق البول في بنطاله. فتح باب المرحاض وزحف نحو الصالة. التقاه شخصٌ عند باب التواليت، فولى هارباً وهو يصرخ: انتحاري... انتحاري...

وسط هلع الناس والأطفال وهم يدوسون فوق بعضهم بعض، لمح المسيح كرسي أمه فارغاً. فضغط على الزر...

# أرنب المنطقة الخضراء

قبل ظهور البيضة، كنت اقرأ كتاباً في الدين أو القانون وأنام. ومثل (أرنبي) أنشط في ساعات الفجر وعند الغروب. أما صلصال فيسهر حتى ساعة متأخرة من الليل. يفيق كل يوم عند منتصف النهار، وقبل أن يغادر سريره يفتح اللاب توب ويدخل الفيس بوك. يتفقد أمور الردود الجديدة حول نقاش الليل، ثم يذهب للاستحمام. يدخل بعدها للمطبخ، يشغل الراديو، يستمع إلى نشرة الأخبار وهو يقلي البيض ويعد القهوة. يحمل فطوره إلى الحديقة ويجلس إلى الطاولة أسفل المظلة. يأكل ويشرب ويدخن وهو يراقبني:

(صباح الخير حجار، ماهي أخبار الزهور..)

(الحرارة مرتفعة هذا العام..سيكون نموها ضعيفاً)

أقول له وأنا أشذب شجيرة الورود.

يشعل صلصال سجارة ثانية ويرمق (أرنبي) بابتسامة ساخرة.

لم أفهم سر أنزعاجه من الأرنب. جاءت به العجوز أم دلع. قالت إنها عثرت عليه في الحديقة العامة. قررنا الاحتفاظ به حتى تتفقد أم دلع صاحبه وتعثر عليه. مضى شهر على وجود الأرنب معنا. وشهران على وجودي مع صلصال في هذه الفيلا الفاخرة في شمال المنطقة الخضراء. إنها فيلا معزولة تحيط بها أسوار عالية وبوابتها مجهزة بحماية الكترونية صارمة. لا ندري متى ستحل ساعة الصفر. صلصال محترف. وأنا يسمونني (فرخ البط) فهذه هي عمليتي الأولى.

يزورنا السيد (سلمان) كل اسبوع مرة. يتفقد أحوالنا، ويطمئننا على الأمور. يجلب سلمان معه بضعة زجاجات كحول وحشيش. يحكي لنا في كل مرة نكتة تافهة عن السياسة ويذكرنا بسرية واهمية العملية. سلمان هذا كان متحالفاً مع صلصال ولا يفشي لي الكثير من الأسرار. وكلاهما كان يحاول تعرية ضعفي وقلة خبرتي! لم أعرهما اهتماماً كبيراً. كنت غارقاً في مرارة حياتي، واشتهي أن يموت العالم بضربة قاضية.

العجوز أم دلع كانت تأتي يومين في الأسبوع. تجلب لنا السجائر وتطبخ وتنظف البيت. في إحدى المرات تحرش بها صلصال. مسك مؤخرتها وهي تطبخ الدوملة. ضربته على أنفه بملعقة الطعام فسال الدم منه. تاب صلصال عنها ولم يعد يكلمها. كانت امرأة خمسينية نشيطة، أنجبت تسعة أولاد، وتدعي أنها تكره الرجال وتقول عنهم إنهم مجرد عيوره حقيرة أنانية. زوجها كان يعمل في شركة الكهرباء الوطنية. سقط من قمة عمود النور ومات. كان سكيراً، وكانت تسميه: الجربوع أبو العرق!

شيدتُ للأرنب، قفصاً في زاوية الحديقة. واعتنيت به جيداً. أعرف أن الأرانب حيوانات حسساسة وبحاجة للعناية بنظافتها وطعامها. قرأت عن ذلك في سنوات دراستي في الثانوية. حل علي إلهام القراءة في سن الرابعة عشر. في البدء قرأت الكثير من الروايات الروسية المترجمة والشعر العربي الكلاسيكي. ثم سرعان ما شعرت بالضجر. جارنا كان موظفاً في وزراة الزراعة. في إحدى المرات كنت ألعب مع ابنه سلام على سطح بيتهم. كان هناك صندوق خشبي كبير تكومت فوقه أغراض قديمة. أفشى لي سلام بسر. كان الصندوق مكتظاً بكتب عن المحاصيل الزراعية وطرق الري وموسوعات عديدة عن النباتات والحشرات وأسفل الكتب كانت هناك مجلات „سكسية" عديدة لممثلات تركيات. أعطاني سلام مجلة وأخذت أنا كتاباً عن أصناف أشجار النخيل في البلاد. لم أكن بعدها بحاجة لسلام. كنت أتسلل من بيتنا إلى سطح بيتهم لزيارة المكتبة الصندوق. آخذ كتاباً ومجلة وأعيد ما استعرته من قبل. صرت بعدها مولعاً بكتب

الحيوان والنبات ورحت أبحث عن كل كتاب جديد يصل إلى المكتبات حتى دخولي الجيش. كانت متعتي من قراءة الكتب مربكة! كنتُ أشعر بالقلق من كل معلومة جديدة. أختار تفصيلاً معيناً وأبدأ في البحث عن أشكاله ومضامينه الأخرى في دهاليز الكتب. أذكر أنني تتبعت (القبلة) لفترة طويلة من الزمن. أقرأ واقرأ وأشعر بالدوار وكأنني أتذوق ثمرة مخدرة. التجارب أثبتت أن الشّامبانزي يلجأ إلى القبلة للتخفيف من التوتر والإرهاق والخوف. وثبت أن انثى الشّامبانزي تلجأ إلى الذكر وتحضنه وتشرع بتقبيله حين تشعر ان أغراباً دخلوا منطقتهم. ثم بعد بحث طويل أعثر على قبلة أخرى، قبلة استوائية طويلة!! قبلة من قبلات السمكِ الاستوائي الذي يقبل بعضه بعضاً لنصف ساعة أو أكثر ومن دون أنفاس. كانت أيام الظلام في سنوات الحصار الاقتصادي تعني لي أكل الكتب. كان التيار الكهربائي ينقطع ٢٠ ساعة في اليوم. خاصة بعد سلسلة الغارات الجوية الامريكية على قصور الرئيس. أندس أنا في فراشي عند منتصف الليل، وعلى لهب شمعة أعثر على قبلة أخرى: حشرات تسمى (ريدوفيوس) إنها لاتتبادل القبل فيما بينها. واحدتها لا ترضى إلا بفم الإنسان النائم. تدب فوق وجهه إلى أن تصل إلى زاوية من فمه وتستقر هناك وتشرع في التقبيل. هي قبل ينز منها السم قطرات مجهرية. وإذا كان النائم بصحة جيدة ونومه طبيعياً فسيفيق وفي فمه قبلة سامة بحجم أربع حبات مطر كبيرة مجتمعة.

هربت من الخدمة في الجيش. لم أحتمل طويلاً نظام الذل هناك. عملت في ساعت الليل في فرن للصمون. كان لابد من إعالة أمي وأخوتي الخمسة. تلاشت من داخلي رغبة القراءة،وصار العالم بالنسبة لي حيوان خرافي عصي عن الفهم. بعد عام من هروبي سقط النظام وتحررت من خوف عقوبة السجن بسبب الهروب من العسكرية. الحكومة الجديدة الغت ألخدمة الإلزامية. وحين بدأ مسلسل العنف وحز الرؤوس الطائفي، كان في نيتي الهروب من البلاد إلى أوروبا. لكنهم ذبحوا اثنين من إخوتي. كأنا عائدين من العمل في مصنع محلي للأحذية النسائية. سلمهم سائق التاكسي إلى نقطة تفتيش وهمية. اقتادتهم ميليشيا (الله أكبر) إلى مكان

مجهول. فصلوا رؤوسهم بعد أن أحدثوا ثقوباً عديدة في جسديهما بواسطة دريل كهربائي. عثرنا على جثتيهما في مزبلة على حدود العاصمة. انخلعت روحي من مكانها، وهجرت البيت. لم أحتمل شكل الرعب الذي ختمت به وجوه إخوتي وأمي. كنت أشعر بالتيه، ولا أدري ما الذي أريده بعد من هذه الحياة! استأجرت غرفة في فندق قذر. إلى أن جاء لزيارتي ابن عمي وعرض علي العمل مع طائفتنا للانتقام.

كانت النهارات الصيفية طويلة ومملة. صحيح أنها كانت فيلا مريحة مزودة بمسبح وساونا. لكنها بدت لي وكأنها قصر في السراب. صلصال أخذ غرفة في الطابق الثاني. أما أنا اكتفيت بغطاء ووسادة على الكنبة وسط الصالة الواسعة حيث المكتبة. كنت أريد أن تبقى عيوني مفتوحة على الحديقة والبوابة الخارجية للفيلا، تحسبا لأي طارئ. أبهرتني ضخامة المكتبة في الصالة. كانت تضم كتباً عديدة في الدين والقانون المحلي والعالمي. وقد رتبت فوق الرفوف حيوانات مصنوعة من خشب الساج في أشكال وحركات تحاكي الطواطم الأفريقية. وكانت الحيوانات الطوطمية تفصل بين كتب الدين وكتب القانون. ما إن يحل الظلام، حتى آكل لقمة، وأذهب وأغوص في الكنبة. أقلب في البوم سنوات حياتي، ثم أستل كتاباً وأقرأ من دون تركيز. كان العالم في رأسي وكأنه شبكة عنكبوت يصدر منها طنين خافت. طنين حياة تحتضر. أنفاس تكتم. أجنحة رقيقة وبشعة ترفرف للمرة الأخيرة.

قبل ثلاثة أيام من زيارة السيد سلمان الأخيرة عثرت على البيضة. أفقت يومها كالمعتاد فجراً. حملت ماءاً نظيفاً وطعاماً وذهبت لتفقد صاحبي الأرنب. فتحت له باب القفص فخرج نشيطاً إلى الحديقة. كانت هناك بيضة في القفص. حملت البيضة ورحت أتأملها محاولاً فهم هذه المزحة! كانت أصغر من تكون ببيضة دجاجة. شعرتُ بالقلق فتوجهت إلى غرفة صلصال. أيقظته وأخبرته بأمر البيضة. أمسك صلصال في البيضة وراح يحدق فيها للحظات، ثم اطلق ضحكة ساخرة:

- حجار.. أحذرك من أن تلعب معي...

قال وهو يشير بأصبعه إلى عيني.

- ماذا تعني.. لست أنا من وضع البيضة!!

قلت بحزم.

فرك صلصال عينيه، ثم نط فجأة من فراشه كالمسعور وهو يكيل الشتائم لي. توجهنا إلى بوابة الفيلا وتأكدنا من نظام الحماية الإلكتروني. تفقدنا الأسوار وفتشنا الحديقة وكل الغرف. لم تكن هناك أي آثار غير عادية. بيضة في قفص أرنب!! لم يكن أمامنا سوى التفكير بأن أحدهم يسخر منا بهذه الفعلة، تسلل إلى الفيلا ووضع البيضة قرب الأرنب.

((ربما هي مزحة سخيفة من القحبة أم دلع.. تباً لك ولأرنبك..))

قال صلصال ولزم الصمت.

لكن كلانا كان يعرف أن أم دلع مريضة وأنها لم تأتِ لزيارتنا طوال الأسبوع المنصرم. كانت مخاوفنا مضاعفة لأننا من دون أسلحة نارية. لم يكن مسموحاً لنا بحيازة الأسلحة حتى يوم تنفيذ مهمة الأغتيال. كانوا يخشون من عمليات التفتيش، فالمنطقة الخضراء منطقة حكومية ويقطن فيها أغلب رجال الدولة. كنا نعيش في الفيلا على أساس أننا من حماية أحد نواب البرلمان. اعترت صلصال نوبة هيستريا وطلب مني التخلص من الأرنب بذبحه. لكنني رفضت. وأخبرته أنه لا علاقة للأرنب بما يحدث.

((اليس أرنبك المقدس هو من باض هذه البيضة!!))

قال غاضبا وهو يصعد إلى غرفته.

أعددت قهوة وجلست في الحديقة أراقب الأرنب. كان يأكل برازه. يقولون إنه يحصل من فضلاته على فيتامين (ب) الذي تنتجه الكائنات الدقيقة في أمعائه. عاد صلصال بعد قليل وهو يحمل اللاب توب. كان يتمتم مع نفسه وهو يشتم سلمان بين الحين والآخر. ثم قال وهو يتفقد

صفحة الفيس بوك، يجب أن نبقى في يقظة على الدوام. وطلب مني أن أقضي الليلة في غرفته في الطابق الثاني فهي مناسبة لمراقبة مدخل الفيلا وأسوارها.

أطفأنا كل الاضواء وجلسنا في غرفة صلصال ورحنا نتناوب على القيام بجولات تفقدية في الفيلا.

انقضت ليلتان من دون أن تظهر أي علامة مريبة. كانت الفيلا هادئة، وغارقة في الصمت والسكينة. خلال مكوثي في غرفة صلصال فهمت أنه يشترك في الفيس بوك باسم مستعار هو (الحرب والسلام) ويضع في بروفيله تخطيطاً بقلم الفحم لصورة تولوستوي. كان لديه أكثر من ألف صديق، أغلبهم من الكتاب والصحفين والمفكرين. وكان يناقش أفكارهم ويقدم نفسه كمعجب ذكي للآخرين، وكان يبرز آراءه وتحليلاته الخاصة بأمور العنف في البلاد بتواضع وحكمة. مرة استرسل في الحديث عن شخصية وكيل وزارة الثقافة. حدثني عن ثقافته وإنسانيته وذكائه الفريد. لم يكن يهمني حينها الحديث عن وكيل الوزير. قلت له، إن من يعمل في شغلنا عليه الابتعاد عن التواصل بكثرة عبر النت. رمقني بنظرة (المحترف) الهازئ وقال:

((اهتمَّ بأرنبك الذي يبيض سيد حجار!!))

زارنا السيد سلمان أخيراً، وانفجر صلصال غاضباً في وجهه، وأخبره بموضوع بيضة الأرنب. سخر سلمان من حكايتنا. ورفض شكوكنا في أم دلع، وأكد لنا على امانة المرأة فهي تعمل منذ فترة طويلة معهم. لكن صلصال اتهمه بالخيانة. راحا يتشاجران وأنا جالس أراقبهما. فهمت من شجارهما، أن هناك في عالم التصفيات الطائفية والسياسية خيانات عديدة بسبب المصالح. كانت الأحزاب الحاكمة، وفي كثير من المرات، تكشف أوراق القتلة المأجورين لبعضها البعض، مقابل صفقة سياسية على منصب أو التستر على عملية فساد كبيرة. لكن سلمان أنكر كل اتهامات صلصال. وطلب منا الهدوء، فتصفية (الهدف) ستتم بعد يومين. جلسنا في غرفة

المطبخ. وشرح لنا سلمان الخطة بالتفصيل. ثم أخرج من حقيبته مسدسين كاتمين للصوت. وقال إننا سنستلم أجورنا بعد العلملية مباشرة، وبأننا سننتقل بعدها إلى مكان آخر على أطراف العاصمة.

((بيضة أرنب!! ها يافرخ البط.. صاير صاحب نكتة..))

همس سلمان في وجهي قبل أن ينصرف.

سهرت في الليلة الأخيرة مع صلصال حتى ساعة متأخرة من الليل. كنت قلقاً على الأرنب، فأم دلع يبدو أنها ستكون في إجازة طويلة. سيموت الأرنب من الجوع والعطش. صلصال كان مشغولاً كعادته في الفيس بوك. بقيت أنا قرب النافذة أراقب حديقة الفيلا. أخبرني أنه يناقش مع وكيل وزارة الثقافة موضوع العنف الطائفي وجذوره. فهمت منه أن وكيل الوزير هذا كان روائياً في سنوات حكم صدام. وأنه كتب ثلاث روايات تتحدث عن الصوفية. في إحدى الأيام كان برفقة زوجته في حفلة يقيمها مهندس معماري في بيته الثري المطل على نهر دجلة. كانت زوجته فاتنة. جمالها أخاذ وهي مثقفة كزوجها، وكانت مهتمة بالمخطوطات الإسلامية القديمة. كان مدير جهاز الأمن مدعواً للحفلة، وهو من أقارب الرئيس. بعد أن انقضت الحفلة، كلف مدير الأمن شعبة الرقابة في دائرة الأمن بقراءة روايات صاحبنا. وبعد أيام زجوه في السجن بتهمة التحريض على الدولة والحزب. ساوم مدير الأمن زوجة الروائي عن نفسها مقابل حرية زوجها. وحين رفضت مطالبه، ترك مدير الأمن أحد رجاله يغتصب المرأة أمام زوجها. هاجرت الزوجة بعدها إلى فرنسا واختفت هناك. أفرجوا عن الروائي في منتصف التسعينيات. سافر بحثاً عن زوجته. لم يكن لها أي اثر. وحين سقط النظام الديكتاتور عاد إلى البلاد وعُين في منصب وكيل وزارة الثقافة. كانت قصة حياة الوكيل تشبه حبكة الأفلام الهندية. لكنني دهشت من كم التفاصيل التي يعرفها صلصال عن حياة وكيل الوزير. شعرت بأنه معجب بشخصية وثقافة الرجل. سألته عن طائفة وكيل الوزراة. فتجاهل سؤالي. ثم حاولت استدراجه للحديث عن هوية هدفنا!! لكن صلصال رد، بأنه ليس من المسموح لفرخ بط مبتدئ

مثلي أن يعرف مثل هذا الأمر. كانت كل مهمتي هي قيادة السيارة وصلصال هو الذي سيطلق النار من كاتم الصوت.

في صباح اليوم التالي كنا ننتظر أمام كراج سيارات وسط العاصمة. كان من المفروض أن يصل الهدف بسيارة كروان حمراء. وما إن تدخل سيارة الهدف إلى الكراج حتى يترجل صلصال ويتبعه إلى الداخل ويقوم بتصفيته. ثم ننطلق بالسيارة إلى مكاننا الجديد في أطراف العاصمة. لهذا اصطحبت الأرنب معي ووضعته في صندوق السيارة.

وصلت صلصال رسالة س أم س على هاتفه النقال، فامتقع لون وجهه. كان من المفروض أن لا يطول انتظارنا للهدف أكثر من عشرة دقائق. سألته إذا ما كانت الأمور تسير على مايرام. صرخ بشتيمة وهو يلكم فخذه. شعرت بالقلق. ثم مدّ لي بعد تردد هاتفه النقال وأراني صورة أرنب يجلس فوق بيضة. كانت صورة سخيفة بالفوتو شوب.

((هل تعرف من أرسل الصورة!))

هززت رأسي بالنفي.

((وكيل وزير الثقافة))

((ماذا!؟))

((الوكيل هو الهدف ياحجار..))

ترجلت من السيارة ودمي يغلي من حماقة صلصال وكل هلوسات هذه العملية التافهة. مرت أكثر من ربع ساعة ولم يظهر الهدف. أخبرت صلصال بأنني منسحب من العملية. ترجل هو الآخر من السيارة وطلب مني الصبر والانتظار قليلاً، فكلانا في خطر. عاد إلى داخل السيارة وحاول الاتصال بسلمان. تمشيت أنا لدكان قريب لشراء علبة سجائر، ودقات قلبي تنبض بجنون من شدة الغضب. وما أن وصلت الدكان حتى طارت السيارة منفجرة، شبت النار، وتفحم الأرنب وصلصال.

# الكلمات المتقاطعة

*في ذكرى أصدقائي:*
*المهندس داود. ٢٠٠٣*
*الشاعر والطبيب كورش. ٢٠٠٦*
*النحات والمصور باسم. ٢٠٠٧*

يفيق.

صباح مشوش...

يسمعه: الله يخليك راح أموت من العطش!

يجلس على حافة السرير. يشعر بخدرٍ في أطراف جسده. يصب لنفسه كأسَ ماء. يجول بصره في أرجاء الردهة ذاهلاً. يشاهد طيراً يصطدم بزجاج النافذة. ممرضة بدينة تحقن رجلاً من دون ذراع.

. شكراً لك... إنه ماء بارد!

يقول الشرطي الذي في داخله.

مروان صديق عمري كان يقول: أفقي: الإنسان، عمودي: البحر

أعلى قمة جبل في العالم. كلمة من ثلاثة حروف.

واقع غير أليف...

نشروا صورته مبتسما على غلاف المجلة!

كانت صورة التقطت قبل عامين - أثناء حفل تسلمه جائزة أفضل مصمم للكلمات المتقاطعة. جائزة مولها نائب ملياردير في البرلمان. عاد

إلى البلاد بعد تغيير النظام. يقولون إن ولعه الكبير في لعبة الكلمات المتقاطعة طوال غربته الطويلة كان وراء تمويل الجائزة. كانت قيمتها ١٠ آلاف دولار. جائزة أثارت الكثير من مشاعر الحسد عند بعض الصحفيين والأدباء الذين انتقدوها كثيراً وطويلاً. فاز بها مروان عن جدارة. وكما أظن، يمكن أن يقلد مروان لقب شاعر الكلمات المتقاطعة.

وجدت في كلماته المتقاطعة القديمة تعابير مثل (نصف قمر. حيوان نصف خرافي. نفق عمودي.. عشب مسموم. نصف حقيقة...)

أيام زمان، حين كانت عيوننا عدسات مكبرة: القمر عملاق يعتلي قمة سطوح المنازل، أردنا كسره بحجر! أيامها أصبحت ومروان (روحاً واحدة). ففي مساء خريفي أشعلنا النار في برميل الزبالة وأقسمنا على الوفاء لصداقتنا. لعبنا كثيراً، واخترعنا أسرارنا، وشيدنا عالمنا المصنوع من غرابة عالمنا. كنا نتفرج على حروب الكبار في شاشة التلفاز وكيف تأكل جبهاتها آباءنا. الأمهات يخبزن في تنانير الطين، ويجلسن ساعة الغروب، خائفات، يذرفن الدموع. كنا اطفالاً نسرق الحلويات من الدكاكين، ونتسلق الأشجار ونكسر سيقاننا وأذرعنا. كانت الحياة والموت لعبة جري وتسلق وقفز وفرجة وكلمات قذرة سرية ونوم وكوابيس!

كنا نحن الإثنين نطارد التوابيت. ننتظر وصولها على حافة الطريق العام. والحرب كانت في عامها الرابع. التوابيت ملفوفة بالعلم ومربوطة جيداً فوق السيارات القادمة من جبهات القتال. أردنا أن نصبح كباراً، فهم كانوا يقفون عند مرور التابوت رافعين أكفهم بوقار وحزن. وكنا نحيّي الموتى مثلهم. وإذا ما انعطفت سيارة موت في حينا، عدونا وراءها في أزقتنا الموحلة. السائق يبطيء السرعة لئلا يسقط التابوت ثم تختار السيارة باب بيت نائم لتقف قبالته. عندها تخرج نساء البيت وهنّ يصرخن ويرمين أنفسهن في برك الوحل ويلطّخن به شعورهن. كنا نهرع لأخبار الأم قبالة أيّ باب وقفت سيارة الموت. أمي ترد عليّ دائماً: اذهب وأغسل وجهك. أو: اذهب إلى جارتنا أم علي واسألها إن كان لديها قليل من البهارات. وفي المساء تلطم وتبكي أمي مع نساء الحي في بيت المقتول.

جلست مرة مع مروان بانتظار قدوم التابوت. كنا نأكل حبات عبّاد الشمس. انتظرنا طويلاً وكدنا نفقد الأمل ونعود إلى البيت خائبين، لكن لاحت أخيراً سيارة الموت قادمة من الأفق. عدونا خلفها مثل كلاب سعيدة، وكنا نراهن على من يسبق السيارة التي توقفت أخيراً أمام بيت مروان الذي خرجت أمه وهي تصرخ بسعار، شقّتْ ثوبها وارتمت في بركة الوحل. تسمّر باسم الذي كان يقف جواري وهو يحلق بذهول. انتبه إليه أخوه الكبير وسحبه إلى داخل البيت. أما أنا فركضت إلى حضن أمي باكيا بحرقة. قلت: أمي، مات أبو صديقي مروان. قالت: اغسل وجهك واذهب إلى الدكان... اجلب لي نصف كيلو بصل.

. سمعت ماكتبته أنت في الأمس: مزق دوي الانفجار الأول وجه مروان. تناثر زجاج النافذة وسقطت فوقه الدواليب. امتلأ فمه بالدم. بصق أسنانه وراح يصغي بأذن مشوشة إلى صراخ زميلته محررة زاوية (المرأة الجديدة). كانت الأنقاض تحجب عنه رؤيتها. زحفت صارخة فوق الأنقاض (راح أموت... راح أموت) ثم صمتت فجأة وإلى الأبد. نزف مروان طويلاً، قبل أن يستعيد وعيه في المستشفى.

تمام...

مروان كانت له أيام الطفولة أفكار حلوة وممتعة. طلب مني مرة أن أساعده في تجميع الزمن. ذهبنا قريباً من الوادي، وتمددنا على بطوننا ورحنا نحدق بلا حراك في نبتة برية أكثر من ساعة. كنا صامتين كتمثالين من الحجر. كان إعتقاد مروان بأنه إذا حدقنا لساعة واحدة في أي شئ في الطبيعة، نقوم بخزنها في الدماغ. فهناك من يخسر الزمن ونحن نجمعه!

كان انفجاراً مزدوجاً. فجروا أولاً سيارة تاكسي أمام باب بناية المجلة. لولا الحواجز الكونكريتية لانهارت البناية. فالسيارة الثانية كانت شاحنة بطيخ محملة بالمتفجرات. كانت أول دورية شرطة قريبة قد وصلت بعد الانفجار الأول تقل ثلاثة. انتظر القتلة تجمهرَ الناس وفجروا مفخختهم

الثانية. قُتل ٢٥ شخصاً. الشرطيان قُتلا في مكانهما بينما أشتعلت النار في زميلهم الذي راح يجري في كل الاتجاهات إلى أن دخل من باب بناية المجلة وسقط هناك جثة هامدة.

. تقول في نص قديم لك:

(عجينة دم وخراء

وحش

كوكب مثلوم

أفعى إله

الزمان مسكوب في ذلك الزمان)

في سنوات دراستنا الإعدادية كنا ننيك عاهرة كانت تعطينا أحذية زبائنها. كانت تحبنا كأم. ههههههه... تشتري لنا شوكلاتة كثيرة، وتضاجعنا وهي تضحك. وكان مروان يسرق الملاعق والسكاكين من بيتهم ويقدمها هدية لها. كانت مولعة بالسكاكين الصغيرة ومدمنة على لعبة الكلمات المتقاطعة. كنا نسميها (المركب السكران) تيمنا بقصيدة رامبو. وقبل أن ينتهي العام الدراسي، ذهبنا في رحلة مدرسية لاكتشاف الجبال. حاول مروان أصطحاب (المركب السكران) معنا، لكن المدير هدده بالطرد من المدرسة. وفوق صخرة تشبه رأس ثور غاضب مطلة على الوادي جلسنا ندخن ونقرأ في الجريدة. أما الآخرون فذهبوا لاكتشاف مغارة للإنسان القديم. كانت صغيرة وكأنها جحر حيوان، ومليئة بالعناكب. أنا قرأ في الجريدة وهو يدخن، ثم نتبادل الأدوار. كانت جريدة حكومية تافهة من الصفحة السياسية الأولى حتى الصفحة الأخيرة المختصة بغرائب العالم الآخر وكأن عالمنا نحن كان واقعيا أليفا مصنوعاً من صوامل! فوق (رأس الثور) اكتشف مروان لعبته. حلّ الكلمات المتقاطعة في الجريدة بنفس واحد كي يخرج بعدها من حقيبته دفتراً وقلماً وينشغل بتصميم كلماته! دخن ست سجائر وأكمل لعبته الأولى. كانت مترادفات عن الطبيعة.

قال وهو يحدق من فوق الصخرة في قمم الأشجار: إن تصميم هذه اللعبة أسهل بكثير من حلها!

- ربما هو شبيه بهذا العالم !

قلت له وأنا أنفث الدخان، متصنعاً بأني فتى حالم.

- آه يا فيلسوف... - قال ساخراً، ثم أطلق صرخة انتشاء عبثية في وجه الوادي.

أخبرك في تلك الليلة بأن (المركب السكران) كانت قريبته، لم أخف عليك هذا الامر طوال سنوات؟!

افترقنا أثناء الدراسة الجامعية. أنتقلت عائلته إلى جهة أخرى من المدينة. ذهب مروان لدراسة الزراعة حالماً بأن تقوده الأيام إلى قطعة أرض يزرعها بالرمان. و أنا دخلت كلية الأعلام. كنا نتزاور باستمرار. نتبادل الأفكار ونضحك ونشرب كثيراً وندخن، كما كنا نتبادل أخبار (المركب السكران). سمعنا أن قواداً قطع أذنها لأنها سرقت خاتم زبون يعمل في أمن الدولة. ثأرت منه بعد ثلاثة أيام. كان نائماً على بطنه، أدخلت سكيناً طويلة في مؤخرته. حكم عليها بالسجن.

تزوج مروان في السنة الجامعية الأولى. غرام عاصف من أول نظرة. ثمرة حبه مع سلوى كانت طفلتين. وجاءت الثمرة أثناء دراستهما. بعد التخرج جلست سلوى في البيت للعناية بالطفلتين، وراح مروان يبحث عن عمل. لم تكن الأمور سهلة لخريج زراعة حديث العهد. أما أنا فشرعت في نشر مقالاتي الساخرة عن مفارقات التاريخ، وكنت قد كتبتها منذ أيام الدراسة. بعد التخرج عملت مباشرة، في مجلة (البوتقة). وكنا نفرغ تمردنا في الكتابة عن قضايا فكرية واجتماعية. اتصلتُ بزميل لي يعمل في مجلة (ألغاز) الشعبية، وأخبرته عن براعة مروان في تصميم الكلمات المتقاطعة وكتابة الأبراج. مروان غضب مني على كذبتي بأنه يعرف الكتابة عن الأبراج. لكن

لم يكن أمامه خيار غير العمل في المجلة. راح يصميم الكلمات وينبش في كتب الأبراج كي يكتب عنها.

بعث إليك برسالة من الهاتف الخلوي بعنوان برج النار: توائمك كل الابراج. فصيلة دمك تتنفس بالخذلان والسعادة. أنت تشبه الجنود حين تعلّق خوذة اللامبلاة. تمد لسانك في فم المرأة من أجل أن تبرد. الغيمة التي تحترق في سقف الغرفة هي بخار الأرق. تشتري من الدكان دبابيسَ وصوراً ملونة. تعلقها على لحمك حين تستقبل ضيفاً. يصلك الحطب عبر الليل مغلفاً بالكوابيس. حين تستفيق، تستحم مشتعلاً. وتأكل مشتعلاً. تقرأ الصحف مشتعلاً. تدخن سيجارة مشتعلاً. تعثر في كوب القهوة على نبوءات الحريق. تضحك مشتعلاً. يحللون رئتيك في المستشفى. فيعثرون على ينبوع أخطاء يشبه الورم. تحلم بالفعل الحزين: ينطفئ

اشتريتُ عقرباً من الصوف من دكان لعب الأطفال، وذهبتُ لزيارة مروان في المستشفى. أخبرنا الطبيب أن جروح مروان ليست بالخطرة، أخرجوا شظايا زجاج النافذة من فروة رأسه، وأنه سيكون بخير. كانت سلوى زوجته قلقة وخائفة من ذهول مروان. كررت أنا أسئلتي على الطبيب عن حالة مروان الغامضة. سألني الطبيب:

. هل ستخرج أنت من جحيم تفجير إرهابي مرحاً تضحك وتمزح؟

. ربما! قلت وأنا أنظر إلى أنفه المدبب.

رمقني بنظرة استخفاف، وانتحى بزوجة مروان للكلام معها.

الطبيب كان مخطئاً. فمروان لم يكن يعاني من أيّ صدمة! دخل الشرطي فيه، وهيمن على كيانه. كان يقول إنه كان يسمع صوت الشرطي في دماغه صافياً وحاداً!

هههههه ربما مثل صوتي... . تؤطر كلماته الساخرة وتعلقها في الصالة؟!

حرب
سلام
طيز الله.

بعد خروجه من المستشفى، اعتكف مروان في البيت ولم يرغب في لقاء أي زائر. اتصل بي في أحد الأيام وقال إنه يرغب في زيارتي. اشترينا زجاجة ويسكي وذهبنا إلى شقتي. أخبرني أنه متردد في الذهاب إلى بيت الشرطي والتأكد من هويته!

ثمل بسرعة، وراح يصرخ ويلعن مخاطباً الفراغ:

(أكل خره.. أصمت، قوّاد !)

ثم فتح عينيه مثل البومة، وهددني بالقطيعة إن لم أصدق كل ماقاله لي! أخذت منه عنوان الشرطي وأوصلته بالسيارة إلى البيت. كانت سلوى تنتظرنا في الشباك بقلب مكسور. لم يخبرها مروان بما حل به. كان يتخبط في مصيبته وعلى وشك الجنون!

طرقت الباب فخرجت شابة فاتنة في ربيع العمر. كانت متشحة بالسواد وعيناها متورمتين. شاهدت وأنا واقف عند الباب طفلة صغيرة تلعب مع أرنب في حجمها. قلت أنا صحفي وأريد أن أكتب تقريراً عن ضحايا تفجير مجلة (ألغاز). قالت إن زوجها قتل بسبب الجهل السائد في هذا البلاد الحقيرة، وهي (لاتريد أن تتكلم مع أحد) ثم أوصدت الباب. استفسرت بطريقة هادئة من دكان قريب عن أحوال الشابة. حدثني صاحب الدكان عن زوجها الشرطي وطيبته وحبه الكبير لعائلته. كان الشرطي يقول: لقد أنعم الله علي بأجمل ثلاث نساء في العالم - أمي وابنتي وزوجتي... أنا شاكر للحياة مهما كانت قاسية في هذه البلاد!

في الأيام الثلاثة التي قضاها مروان في المستشفى أخبره الشرطي بما حصل:

كنا نتبادل النكت أنا وزميليّ في أثناء الدورية. سمعنا الانفجار فتوجهنا فوراً إلى بناية مجلة (ألغاز). قام زميلاي بإبعاد الناس عن مكان الحادث، وحاولت أنا إطفاء سيارة كانت تحترق في داخلها امرأة وطفلتها، ثم دوى الانفجار الثاني.

شبت النار في جسدي، ورحت أركض وأصرخ ثم سقطت في ردهة الاستعلامات. وجدت نفسي جالساً على الأرض، بعيداً بخطوات عن جسدي المحترق! كنت اثنين: جثة هامدة وآخر يرتعش من البرد! ركضت مرة أخرى في ممرات بناية المجلة. شاهدت امرأة تصرخ وهي تزحف على بطنها، لكنها فارقت الحياة قبل أن أفعل شيئاً. شاهدتك أنت تحت الأنقاض، دخلت فيك وعاد الدفء إلي. وها أنا أشم ما تشمه وأتذوق ما تتذوقه وأسمع ماتسمعه وأشعر وأحس بك كحياة تنبض لكنني لا أرى شيئاً. أنا في عتمة خالصة... هل تسمعني!

. أسمعك !

قال مروان.

أوكي... هذا ما دونته أنت... أخبرني كيف كان رد فعلك على ذلك؟

ثار مروان حين اقترحت عليه أن يزور واحداً من رجال الدين. كنت مرتبكاً مما قاله لي ورحت أتفوه بحماقات! قال إني مجنون ومازلت أظن بأننا لا زلنا طفلين بروح واحدة (قال هنا: كانت مجرد لعبة تافهة وصبيانية يا وغد!) ثم راح يحدثني بهدوء المجنون: مروان... تفهمني... أوكي... يمكنه أن يشاركني سريراً، قبراً، نافذة، مقعداً في باص، لكنه لن يشاركني جسدي، فهذا كثير بل جنون مطلق! يتذمر هو ويبكي ويحاسبني وكأني أنا اللص وليس هو الذي سطا على حياتي.

إن تدثر مروان في بطانية خفيفة ونام، كان الشرطي يوقظه في ساعة متأخرة من الليل: أشعر بالبرد، سيد مروان... أرجوك!

وإذا شرب مروان الويسكي، تذمر الآخر:

- أرجوك سيد مروان، هذا حرام ، أنت تحرق روحي بهذا السم! توقف عن الشرب!

أو:

- لم لا تذهب إلى التواليت سيد مروان.. غازات البطن مزعجة!

لِمَ لا يكون الشرطي هو الذي حرّض مروان على بلع موس الحلاقة؟!

صارت عيون مروان بلون الدم من فرط السهر والشرب. واعتاد الآخرون على سلوكه. عاملوه كضحية لذلك الانفجار. مجنون آخر لا غير... كانت أعصابه تثور لأتفه الأسباب. وزملاؤه في العمل لم يتخلوا عنه. وهو الآخر واصل تصميم كلماته المتقاطعة لكنه توقف عن كتابة الأبراج. وجرى تنبيهه حين راح يصمم كلمات متقاطعة بالغة الصعوبة، فقد كان يختار كلمات من المعجم، آو يكتب مثلاً: أفقي: ٧. عقرب بنفسجي. رحم مكسور (ست حروف مقلوبة)

(هذا اللحم طعمه مالح... ما هذه الرائحة الكريهة.. ألا تستمع إلى القرآن.. لم لا تصلي.. الماء حار في الدوش...). مروان راح ينتقم ويتلذذ بتعذيب الشرطي. كان يأكل ويشرب ويتصرف بجسده ضد رغبات الشرطي ويفرط في شرب الويكسي الذي لا يطيقه الشرطي...

شكى لك مروان من أشد الأمور التي تعذبه: لم يقترب من جسد زوجته إلا مرة واحدة قبل ثلاثة أشهر. خُيّل إليه بأنه يضاجعها مع رجل آخر. فالشرطي كان يتأوه ويموء وكأنه هِرٌّ مخبول.

الشرطي لم يستسلمْ لمصيره بسهولة. كان يعرف هو الآخر حجم سلطته! مرات كان يواصل هذيانه في رأس مروان إلى أن يتورم الرأس! كانت آخر مرة حدثني فيها مروان عن الشرطي أثناء عقد هدنة بينهما...

أراد الشرطي من مروان أن يزور عائلته. أخبره ببعض التفاصيل الحميمة عن حياته، كي يبدو مروان صديقا قديماً! لا تهمني كل هذه التفاصيل... تقول في ماتكتبه: الحدود هي جهلنا!

جلس مروان على الكنبة، وقدمت له زوجة الشرطي الشاي، بينما راحت أمه تمسح دموعها بطرف حجابها. وأخذ مروان طفلة الشرطي في حضنه كبنت صديق عزيز راحل.

هذا المشهد تكرر أثناء زياراته. وراح يشتري هدايا للعائلة حسب ما يمليه عليه الشرطي، وحتى أن مروان ذهب برفقة العائلة لزيارة قبر الشرطي.

دخل الشرطي في غيبوبة من الصمت وهو يسمع بكاء زوجته وأمه عند قبره. بقي صامتاً طوال أيام عدة. تنفس مروان الصعداء حين خيل له أن الشرطي قد اختفى.

لكمك على أنفك وأنت تقود السيارة! أعرف.. حسناً.. تفاصيل.. كل مافي هذه الحكاية ممل.. مقرف...

في ذلك اليوم زرته في المجلة. كان يكرع من زجاجة عرق خبأها في درج مكتبه وكان يدخن بشراهة. رحت أتكلم عن مشاكل عملنا في المجلة وأحوال البلاد! لعلي أزيل توتر أعصابه. وكان قد كف عن الكتابة أثناء كلامي.

نهض بعدها وطلب مني الذهاب لزيارة (المركب السكران) في السجن.

لم أكن متأكداً من أنها لاتزال حيّة. اتصلت بإدارة سجن النساء من مكتبه وسألت عنها. أخبروني أنها ترقد في مستشفى المدينة الأوسط.

كنت بالغ القلق طوال الطريق إلى المستشفى. دخن كثيراً وهز قدمه ثم راح يوصيني بالعناية بعائلته. كان يتكلم بصورة مؤثرة جداً.

قلت له: شنو هذا الكلام.. مروان شنو راح تموت.. هههههه.. إنت مثل القط بسبع أرواح!

لكمني على أنفي. ثم أشعل لي سيجارة من سيجارته ووضعها في فمي. رحت أقود السيارة وفيّ رغبة لإيقافها وأن أشبعه ركلاً.

كانت (المركب السكران) ترقد في ردهة العناية الخاصة. مجرد هيكل عظمي. غائبة عن وعيها منذ ١٥ يوماً. جلسنا قربها على حافة السرير. أخرج مروان من جيب بنطاله سكين صغيرة تشبه السمكة ووضعها قرب وسادتها.

أمسك بيدها وسالت الدموع من عينيه.

بعدها جئتما لزيارتي!

اشترينا مزات متنوعة وزجاجتي عرق وعشرين علبة بيرة ثم رحنا إلى مزرعتك.

فرحت بكما كثيراً! لقد مر زمن يا شباب! احتفينا بإفراط بذكرياتنا من أيام الإعدادية. وضعنا طاولة أسفل شجرة ليمون وبدأنا السهرة. بدا لي مروان مرحاً وطليقاً لا يعاني من أي مشكلة. كان يضحك، ويمزح ويشرب بنشوة وتلذذ. قادتنا ذكرياتنا إلى الوصول إلى المسمى بـ (العبقري). كان طالباً غريب الأطوار، حفظ الكتب المدرسية عن ظهر قلب في الأشهر الأولى من الدراسة. أيقن المعلمون من أنه عبقري! وكانت صدمة لهم حين حصل العبقري على نتائج متدنية في امتحان البكالوريا مما أهله فقط إلى الدراسة في معهد النفط. وفي السنة الدراسية الأولى تسلل ليلاً وأضرم النار في قاعة المحاضرات ثم قتل نفسه بمسدس. واضح أنها تراجيديا تافهة!

حدثتنا أنت بأسهاب عن أيام عزلتك في مزرعتك للتفرغ لتأليف كتاب عن تاريخ قطع الرؤوس في بلاد الرافدين.

تراخت أحاديثنا وصرنا نلوك الكلام، ثملنا ودخل مروان مرة أخرى في غيبوبة صمت. وغادرنا إلى داخل المنزل. طلبت منك أن تقرأ لي مما تحفظه من بيسوا، كاتبك المفضل.

لست أنا، لا أعرف شيئاً، لا أملك شيئاً، ولا أذهب إلى مكان. أُنومُ حياتي في قلب ما لا أعرف.

كانت ليلة صيف رائعة. استلقيتُ فوق العشب ونظرت إلى السماء الصافية ورحت أتخيل الله كحشد من الظلال. وصلنا صراخ مروان من الحمام. لم نتمكن من إسعافه. مات في بركة الدم التي تقيأها!

بعد أسبوع اتصلتَ بي وذهبنا سوية بسيارتي لزيارة معرض تشكيلي... كنا نقطع الخط السريع حين اجتزنا خطأً شاحنة محملة بالصخور...

- كافي ، الله يخيلك بس.

. شنو تعبت!

- أريد شوية أنام.

. أوكي

- أتمنى مِنْ أصحو ما أسمعك بعد وتكون مختفي من حياتي كلها...

. وأنا أيضاً يا حقير...

# عزيزي بيتو

لقد تخلصت منه. منذ أيام وأنا أجوب الغابة. أشعر بالتعب. لم أنم طوال ثلاثة ليالي. أشم رائحة ذئب يقترب!! أرجوك بيتو، أذهب إلى بيت خالتي، خذ حاجياتي واحتفظ بكل ذكرياتي.

لايمكنك فهم الجمال من دون طمأنينة، ولا الاقتراب من الحقيقة من دون رعب. هل تذكر أستاذنا في مادة الشم؟ كان يدوخنا بهلوساته الفلسفية. كان يسمي نفسه رفيق المعرفة المخلص! كان فخوراً بك، ويقدرك كثيراً. حتى أنني ظننت أن الأستاذ (عظمة) كان مولعاً بك لغرض آخر في نفسه! مازالت أيام دراستنا تلك مختومة في ذهني، قبل أن تتلقفنا شوارع البؤس وتتبخر أحلامنا. هل تذكر حين جلب طالب الصف الرابع قطة معه في نهاية الأسبوع. كانت مهزلة. الجميع شم مؤخرتها. لقد حدثت ضجة كبيرة حينها. كانت أياماً رومانسية حقاً. لو كان صديقنا (سانشو) حاضراً لقال بنبرته العبثية (العالم يعوم في بحر الخراء) يقولون إنه صار كاتباً. كتب ثلاثة كتب سميكة عن حكمة معاشرة الإنسان.

أنت الآخر يا بيتو كنت تفلسف الأمور! ظننت حينها أنك ستنخرط في عالم الكتابة أيضاً. لكنك كسول ولطالما قلت إن اللغة مخادعة!! مازلت أذكر كل كلمة قلتها لي ونحن نجوب الأزقة الخلفية بحثاً عن مكان آمن. مازلت أذكر ذاك الصباح الجميل على حافة النهر. كانت الشمس تشرق مثل رمانة عملاقة. اقتربنا من امرأة في نهاية الأربعين من العمر، كانت تبكي وتلعن كل شيء من حولها. راحت تنظر إلينا بعين دامعة وتحكي همومها، قالت إنها فشلت في الحب وفشلت في الكراهية أيضا! عدونا بعدها إلى

أسفل الجسر. لعقت أنت رقبتي ثم أطلقت حسرة وراحت الكلمات تخرج منك هادئة ومخيفة (حين تخسر فجأة كل شيء وتنكسر مثل عظم. يفتح باب في روحك ويغلق بسرعة رمشة عين. باب يطل على الذات المخفية. ذات ما بعد الألم. لكن ليس كل البشر قساة إلى الحد الذي يمكنهم فيه أن يدركوا خبايا مثل هذا الباب السحري. فالبشر ينكسرون بسرعة، عظام هشة، يسقطون في هاوية الوجع. يصبحون عميان) ربما نحن مثلهم أيضاً، لا أدري يا بيتو.. لايمكنني ترتيب أفكاري... أنت بعيد جداً، والعالم دوار. وماذا عنا نحن! قل لي يا بيتو.. أرغب في الاختفاء من شدة الوحشة...

قفزنا سوية في البحيرة. كان ثملاً كالمعتاد. غطست أسفله، أمسكت بطرف بنطاله. سحبته إلى أسفل حتى تقطعت أنفاسه...

كان قد اصطحبني في رحلة مع أصدقاء فنانين إلى أطراف مدينة جميلة وسط فنلندا. لم أصدق أول الأمر أنه سيحررنا أخيراً من عزلته القاسية. طوال عام ونصف وأنا أعيش في سجن حياته الكئيبة. لقد مزق روحي بوحدته، ونكأ جراحي القديمة بسلوكه الفظ. انتهك جسدي وحطم طمأنينتي الهشة التي توهمت أنني ساحتمي بها في بلاد الثلوج هذه.

كان هناك بيت كبير منعزل في الغابة. بيت ابتعد عن الكهرباء والنت والطباخات الغازية. كان الأصدقاء يشعلون الخشب في فرن قديم حين يطبخون. والخشب يقطعونه بأنفسهم. وفي الليل يشعلون النار ويشربون ويغنون ويتحدثون. كانت هناك بحيرة يصطادون فيها السمك. هي حياة حقيقية هناك: يكتبون القصائد ويرسمون ويخططون لمشاريع مسرحية وسينمائية. نعم كان المكان أشبه بالجنة الصغيرة، أو على حد تعبير صاحبي: المكان الأنسب لموته. وإذا عدنا إلى ذهنه، فقد تخيل قبراً وسط الغابة (حيث يهب صوت الغابة، أجوبة نباتية في غاية الروعة). بالفعل! فأصوات الحشرات والطيور والاغصان التي تلاعبها الريح، وطقطقة الخشب المحترق في حفرة النار كانت تمتزج لتخرج سمفونية أصوات، لتكون صوت الكائن المنسي بل صوت الله الذي يصل مباشرة من دون

وسيطة أنبياء. الله موجود في الغابة. الله هو الغابة. لابد من أن تكون المقبرة أيضاً في الغابة، لتأخذ الاشجار حياتها من سماد أجسادنا. مازلت رومانسية يا بيتو.. نعم... لقد سقطت في شرك الكراهية.

كانوا أربعة وأنا خامسهم. كانوا يحاولون أن يضعوا برنامجاً لليوم التالي إن كان هناك ما يستحق أن نقوم به جماعياً مثل الصيد، أو جولة بالدراجات عبر الغابة أوالسير إلى البحيرة والعودة عند مغيب الشمس. كان هناك شاب طويل يسمونه (ميكو لحم). وهو صياد أتى مع كلبه لصيد بعض الطيور. قضيت بعض الأوقات برفقة كلبه. كان متعالياً، شأنه شأن كلاب الصيد. كان من تلك الكائنات التي يسبب لهم وهم الذكاء غشاوة على افكارهم. كان فخوراً بعضلاته وبقدراته لتعقب واكتشاف أماكن الطيور الجريحة. وكان صاحبه ميكو خبيراً حقيقياً بكل أنواع الصيد. الأسماك والأرانب وهو يجيد طبخ كل أشكال اللحوم أيضاً بطريقة قال عنها الجميع بأنها مهنية إلى حد الدهشة. رغم أن أغلب الأصدقاء كانوا نباتيين لا يأكلون اللحوم. بعضهم كان يتناول لحم السمك فقط. لهذا يمكن القول إن (ميكو لحم) كان يصطاد لنفسه. كان سعيداً أحيأنا لأنني أشاركه أكل اللحوم ويتعجب من ذلك!! لم يكن يسمح بالطبع لكلبه بتناول اللحم المصطاد، كان يقدم له طعاماً خاصاً في معلبات.

باولينا، كانت تقضي الوقت مستلقيةً تحت الشمس وعلى منشفة برتقالية اللون. كانت تقرأ كتاباً عن أنواع النبات. أما (تيمو) رفيقها كان يجلس بالقرب منها ولم يكن يفعل شيئاً عدا التدخين والتحديق في الأشجار. كان ينبش التراب بقدميه ثم يمعن النظر فيه كما لو كان جثة إنسان، ثم يدخن الماريهوأنا من جديد وينظر هذه المرة إلى السماء وبعدها يعود إلى الأشجار حين يطفيء السيجارة الرابعة، وتكتمل الدورة حين يعود إلى النبش كما الكلب لكن ببطء أكبر. ثم يشعل سيجارة أخرى، كل ذلك من دون أن يتكلم مع باولينا. كان التحديق والتدخين وكل ذلك الملل الإرادي يستمر أكثر من ٤ ساعات يقطعها بالنهوض وجلب قنينة

بيرة من البيت. كان صاحبي ماركو يرسم أحيانا، بينما يلعب (ميكو لحم) مع كلبته. أما أنا فقد كنت أبدو للوهلة الأولى أنني أكثرهم سعادة، فحركة الزمن في الغابة أبهجتني حقاً. وكدت أنسى عذاباتي مع ماركو طيلة المدة الماضية. كان الزمن هناك ينمو ببطء نباتي مدهش. وقد تضحك يا بيتو وتظهر أسنانك المتعبة، إذا قلت بأن أول عمل قمت به هناك، كان التمرن على إفراغ الذهن من محتواه ونشره تحت الشمس كي يجف. أردت أن أختلي بنفسي بذهن غير منقوع بالشكوك. كنت أختبئ مع النفس وسط أشجار الغابة، أقف هناك مثل قزم محطم القلب بين عمالقة الغابة. هل يمكنني أن أصف لك طعم الريح الخفيفة وهي تحرك أوراق الأشجار كي ترفرف مثل أعلام بلاد سعيدة. ومثلما كانوا يجلسون في الساونا لتتعرق اجسادهم وتنتعش، كنت أجلس وحدي لوقت طويل كي يخرج ملح جسدي ويذوب، كي أقول لكائنات الغابة، أنا أختكم في هذا الوجود وبمقدوري أن أزرع أنفاسي بجواركم. درت حول الأشجار وأنا أقفز وأصيح وأكلم الصمت الأخضر من حولي، شعرت أن كلامي يتلاشى كالدخان، ولا تصغي إليه الأشجار ولا حتى الطيور. كانت هناك حشرجة حزن في صوتي. خدش في براءة ما أردت أن أعبر عنه. فصوتي لم يكن يتناغم مع أصوات الغابة. ربما جرحت حياة التسكع الطويلة في مدينتنا صفاء قدرتي على التعبير. كان صوتي يذكر بسمفونية التفاهات التي تعزف في المدينة، تلك الموسيقى الحجرية المتكسرة في ماكنة العيش. تلك الأصوات التي لطخونا بها منذ الصغر من دون ذنب! سمفونيتهم التي تبدأ الصرير منذ الصباح الباكر، في الأسواق التجارية والبنوك والجامعات والمستشفيات والبرلمان والبارات والمطاعم. أصوات الخزي البشري. انهم عاجزون عن حب بعضهم البعض فكيف لهم أن يفهموا حبنا لهم! كنت أشعر أن ذهني مكتظ بالأصوات. أصوات في الباصات والقطارات، أصوات في الطائرات والسفن، أصوات شجارات البيوت، شتائم، إهانات، لعلعة رصاص، لغط، صراخ، بكاء، هتافات مظاهرات من أجل البيئة. تصفيق عند منح جائزة للسلام في حين تشتعل حروب جديدة في بقاع جديدة،

أصوات سيارات تصطدم، سيارات ملغومة تنفجر، سيارات لصوص، سيارة أسعاف، سيارة بنك محملة برزم النقود، سيارة إطفاء. أصوات جوامع وكنائس، خطب جمعة، مواعظ، أصوات جنس جماعي، زجاج يتكسر، أصوات تدخل من الأذن اليمنى، وأصوات تخرج من اليسرى. لو كنا كائنات صماء، نحن وهؤلاء البشر، ربما لكن العالم أقل إيلاماً. هنالك صوتان فقط يصلحان لإحلال السلام: أغاني الغابة والموسيقى. نعم يا بيتو، الغابة صوت. صوت قديم يجدد نفسه مثل نهر لا يتوقف عن الجريان. لقد لوثوا الأنهار. وقطعوا الأشجار. وطاروا إلى الفضاء بحثاً عن المزيد من الأصوات والوقود. لقد دمروا إنسانيتهم. طبخوا وخبزوا وقتلوا كما السفاحين، ومنحوا الجوائز وأوسمة الشجاعة للمجانين والقتلة. هم أبطال حقا! ألا يستحقون الشنق في نهاية الفيلم، كما الأبطال؟! أما الجماهير فتبكي لأنها تعجز عن إنقاذ البطل الذي يشنق وسط الساحة. ذبحوا إنسانيتهم من الوريد إلى الوريد وجلسوا يبكون عند أقدامها. كتبوا القصائد من أجل كرامة الانسان، بينما كتب آخرون حروباً طويلة لم ولن تنتهي. أغرقت قصائدهم بالذل والخسارات. ومازالوا يبستمون كالمهرجين!! متشائمة كعادتك ستقول... أعرف ذلك... أريد أن أستعير نبرة حكمتك الكوميدية في كثير من الأحيان وأقول: البشرية اثنان، البشرية صوتان. أغلبية تتحدث من دون توقف، وأقلية نباتية صامتة تتحدث بالإشارت. كل لوحة يا بيتو هي صوت. كل رواية، كل قصة، كل عمل فني هو صوت إيمائي. إنهم مبدعون، خلاقون، لكنهم فاسقون حتى النخاع. تعرف.. كدت أفكر بالموت من جديد في الغابة. وعادت أفكار الانتحار من جديد إلى ذهني. أشهرت السكين في وجهي من جديد. لم تكن سوى الغابة من يفصل بيني وبين ذهني. هراء.. هراء.. هراء... ... أتخيلك تقرب أنفك من أنفي كعادتك وتهمس: ها أنتِ تقفزين من موضوع إلى آخر مثل الكنغر...

معك كل الحق، أحبك وأشتاق إليك بيتو!!

أختاروا في اليوم التالي الذهاب إلى البحيرة واصطياد السمك بأشراف

(ميكو لحم) بالطبع، فهو الخبير ويمكن أن نتعلم منه. لكن صاحبي ماركو لم يعجبه برنامج أصدقائه وقرر المكوث في البيت. تكلم بحدة مع باولينا ثم ذهب إلى غرفته. لا أدري لم يكرهها. ربما كان يريد مضاجعتها. قررت أنا البقاء معه في البيت. غالباً ما كنا نشعر كما لو كنا زبائن مقهى - نجلس سويةً لكن كل واحد يسكن متاهته وهمومه. لم يلتفت أحد إلى ماركو حين غادروا. أردت أن أقول لهم عن شعوري بأن شيئاً كان يزعجه ولماذا هو كئيب. لكنني بلعت السؤال. فالتطفل يزيد من كآبة بعضهم. الفنلنديين مقلين جداً في الكلام والسؤال. أقول لك بأن هذا البلد، بثلوجه وبرده وصمته يناسبني أكثر من غيره. كأن بيئة وعزلة الناس هنا قد صممتا على مقاس روحي. كم كنت أود أن أخبر ماركو بأن فنلندا هي القميص الجليدي الواسع الذي يناسبني!! لم أكن أحتاج إلا لبصيص من النور. لمسة إنسانية صغيرة كانت تكفي لتضميد جراحي. لكن ماركو لم يكن بحاجة لي ولا لأي شيء آخر سوى نفسه. لقد أذلني منذ وصولي إلى هنا حتى النهاية. لقد عشت برفقته كوابيس من نوع آخر. لم يكن لي خيار. كنت أتخيل حياة الشوارع البائسة من جديد، وأشاهد هزيمتي أمامك وأمام الآخرين لو قررت العودة!!

عام ونصف عشت برفقته كعبد مدلل. منذ البداية أنفق الكثير على أقامتي واستخرجَ لي جواز سفر وكان يسرف في طعامي وحاجياتي الأخرى لكنه كان بخيلاً إلى حد اللعنة في التواصل معي. لم يكن يكترث بي. كنت وكأنني مجرد حاجة من مئات الحاجات البالية التي يكتظ بها الاستوديو القذر الذي كنا نقطن فيه. أخبرتك من قبل أنه رسام. لحيته تكاد أن تصل إلى سرته. حليق الرأس ويرتدي بنطالاً أحمر وحذاءاً رياضياً مهترئاً. ولديه قميصان واحد أسود والثاني أزرق. الشيء الثمين الوحيد الذي كان يملكه دراجة إيطالية قديمة لكنها ثمينة ونادرة. وكان مهووساً بشراء الأشياء من محلات بيع الأغراض المستخدمة. كان الاستوديو وكأنه مخزن نفايات، وبالكاد كنا نتحرك في داخله. لم أفهم حتى بوهيميته التي بدت لي متناقضة! كنت أشعر أول الأمر أنه جاء بي إلى بلده من أجل كسر وحدته

المرة، لكن وجودي برفقته لم يكن سوى رسالة أو جدار يقيمه بينه وبين الآخرين. كان يصطحبني معه إلى البار وإلى الشوارع والاسواق كدلالة على اختلافه عن الآخرين لاغير أو ربما كتحدٍّ لمخاوفهم من كل ما هو غريب ومختلف. مرات كنا نجلس في الحديقة العامة ساعات طويلة، وكل ما كان يفعله هو مراقبة الناس وهم ينظرون إلينا أو يرد بكلمات مختصرة حين يقترب بعضهم ويسأل عن البلد الذي أتيت أنا منه. كنت وكأنني قناع طوطمي جلبه سائح لأطفاله الصغار. لم نكن نلعب أو نمرح في تلك الحدائق الجميلة. الكلام كان شحيحاً بيننا. مرات كان يتفوه ببعض الكلمات عن عتمة الشتاء في فنلندا ومراتٍ كان يذكرني في الفارق بين حرارة شمس فنلندا وشمس مدينتي. صمته وندرة كلامه. ذكرني بمطلع طفولتي. كنت حينها ألوذ بالصمت لأيام طويلة. كنت أجد صعوبة في نطق الحروف. وإذا تكلمت بدوت مثل أجنبي يتعلم اللغة الأسبانية.

كان ماركو الصامت مجرد خدش في لوحة من لوحاته الغامضة. هكذا أخذت اتخيله في ذهني: خدش في لوحة مطلية باللون الأبيض. ربما خدش رمادي، مثل أثر مخلب قط أو أظافر رجل خنق بالوسادة. صدقني بيتو، طالما هناك مخيلة، هناك جريمة.

حين بدأت أتخيل ماركو كخدش في لوحة، أردت النفاذ إلى ذهنه. بمقدور المخيلة المخصَّبة بصورة دائمة بأستمرار أن تصل إلى كثير من الأماكن السرية، وبينها مخيلات وأذهان الآخرين. أليس هذا ما تعلمناه في مدرسة (الذيول الحكيمة)؟ بقيت أدور حول البيت أكثر من نصف ساعة، ثم صعدت إلى الطابق الثاني، دفعت الباب ودخلت إلى الغرفة، كان ماركو يشرب من فوهة زجاجة الكحول ولم يعرني انتباهه. هبطت السلم من جديد وأخذت غفوة عند عتبة الباب. حلمت أني أكتب على سبورة ثم أخذت أمسح لونها الأسود بالطبشور الأبيض ثم دخلت أنثى جميلة، وبيدها أحمر الشفاه. كانت تشبه معلمة الجغرافية في مدرستنا الابتدائية. طبعت قبلة على خدي، ورسمت على السبورة، خطاً أحمر سميكاً، ثم

خرجت باكية. حين فتحت عيني، سمعت أصوات أقدام مسرعة على السلم. أكيد أنه ماركو. بدا لي أن حلمي هذا هو ألم في الذات. داعبني من رقبتي وذهب مترنحاً ليتبول على جذع الشجرة. ربما كان ماركو يرسم أثناء حلمي. تسللت مرة أخرى بسرعة إلى غرفته: كانت هناك لوحة زيتية لم تجف أصباغها بعد. لوحة بالأحمر وحده. كان فيها شيء شبيه بعيني ذئب. لم يكن ملوناً بل استخدم بدل الريشة سكيناً صغيرة كشطت الأحمر وظهر أسود الخلفية. كان الكشط عيني الذئب تينك. بدتا منحرفتين كما لو أن يداً مرتجفة قد عملتهما.

لمحت من نافذة الغرفة ماركو وهو يدلف إلى الساونا. أخذ من هناك دراجته الإيطالية بعد أن ملأ حقيبته بزجاجات البيرة وراح يصفر. رحت إليه وأنطلقنا إلى عمق الغابة. جلسنا قرب شجرة عملاقة وراح هو ينظف البندقية. كنت أجلس بقربه وأنا أفكر في الشبه القائم بيننا. فكلأنا متشاؤم وحالم وربما تخيفه الرموز. اكيد انه لم يكن يعير ذهن واحدة مثلي اهتماماً كبيرا. ربما كان يشعر في أعماقه بالتفوق. فأنا مجرد متسكعة تبناها من شوارع مدينة الشمس، ربما حتى بوهيميتي كان ينظر إليها على انها مجرد بوهيمية تافهة. هو بوهيمي متمدن وأنا بوهيمية متوحشة! قد أكون مخطئة. ربما كان يكره ذهني وربما كان يظن أنني أسخر من صمته ومخاوفه، هل كان وجودي برفقته يزيح الستارة عن هشاشة حياته! ذات مرة أخذني برفقته إلى البار. كان ليلة مثلجة وقد ضرب المدنية برد قارص. أثناء عودتنا إلى الاستوديو سقط على وجهه. ظننت أنه قد مات. ظل ممسكاً بي، خشيت أن نتجمد في الخارج. حاولت إيقاظه، لكنه راح يشتمني ويشتم حياتي الماضية ويسخر من ثقافة مدينة الشمس. أفلتُّ منه بصعوبة. عدت للبار لطلب المساعدة. حملوه إلى الاستوديو وبقيت الليل أراقب ملامحه (لم جاء بي إلى حياته إن كانت مسورة بكل هذه الكآبة والوحدة والريبة!!)

لفّ سجارة ماريهونا وعب في جوفه المزيد من البيرة. تفحصت المكان من حولنا كانت هناك أشجار عديدة أكثر من رائعة، لفتت انتباهي شجرة

غريبة بدت وكأنها امرأة تحترق. سال اللعاب من فمي وأنا أدور حول جذع الشجرة. ربما تربط هذه الشجرة قرابة بتلك الشجرة التي روى لي صديقنا سانشو حكاياتها. ليتها كذلك! ليتها تبلع كل هواجسي. هناك في تلك الجزيرة الغامضة في المحيط الهادي. ويقال إنها نفس الجزيرة التي وصل إليها السندباد وقص عنها حكاياته العجيبة. توجد هناك شجرة تقتات على البشر والحيوانات. سكان الجزيرة يؤمنون بأن أرواح أجدادهم وآلهتهم تنام في أوراق هذه الشجرة. تلف الشجرة فريستها بأغصانها وتلتصق الأوراق على الجسد ثم تمص بشبق إلا أن تترك الفريسة هيكلاً ناشفاً من دون قطرة حياة واحدة. السكان يعبدونها ويقدمون لها القرابين. كل عام يهبونها جسداً. اختيار الضحية يتم عن طريق الحلم. كل من يحلم في نومه بأنه واقف تحت الشجرة من الأهالي عليه أن يعترف بذلك إلى كهنة الجزيرة. ومن يخفي هذا الأمر فإن لعنةً ستطارده طوال حياته. لهذا كان الحالمون يتقدمون طوعاً ويهبون أجسادهم لجوع أسلافهم وجوع الآلهة.

ترك ماركو البندقية جانباً. صفر لي، فتقدمت منه بحذر. تمدد قربي. وراح يداعبني بلطف أول الأمر. كنت أرتجف. كانت أصابعه تزحف بين ساقي. فعلها معي من قبل أكثر من مرة. كان ماضي طفولتي كله يفيق ما أن تمس أصابعه جسدي. كنت أتحفز دائماً وأفكر بأنني سأقطع قضيبه بأسناني إن فعلها. لكن جبني هو الذي كان يتفوق!! ما إن حاول أن يحضنني بين ساقيه حتى أفلت منه وعدوت هاربةً بأقصى سرعة. راح يصرخ ويهددني، ثم بدأ يطلق النار من بندقيته صوبي. كان ثملاً وكنت مرعوبة. اختبأت بين الأحراش، حبست أنفاسي وأنا أصغي لصراخه خلفي. صمت فجأة، وعاد أدراجه وهو يتمتم مع نفسه حيث ترك دراجته الهوائية، ثم عم السكون من حولي.

تمددت على ظهري وأطلقت حسرة من أعماقي في وجه السماء: الحياة... الحياة... الحياة... هل تذكر يا بيتو الفرق بين النباح واللغة!! لقد سممتنا لغتهم. علينا أن نكتفي بالنباح. أن نكف عن فهم كلماتهم. كل هذه

المجازات والاستعارات التافهة. الأستاذ (عظمة) كان محقاً: يمكن للبشر أن يضعوا أي كلمة إلى جانب كلمة الحياة، كلمات من تلك التي تقال باختصار ينم عن كسل ذهني. وهكذا هم يحبون ويغنون ويألفون الكتب ويموتون وهم سجناء مجازاتهم منذ أقدم العصور.. يكررون الأغنية القديمة نفسها: الحياة رحلة، الحياة سلم، طاحونة، سفينة، حديقة، مقبرة. الحياة كتاب. الحياة مجرّة. الحياة قفص، أرق، صليب، دخان. الحياة نهر، محيط، جزيرة، الحياة وادٍ، الحياة جبل. الحياة مستشفى، سرير، مرض. الحياة رحم. الحياة أسطوانة. الحياة حفرة، مصيدة، الحياة خندق. الحياة قاموس. الحياة إنجيل. الحياة قصيدة. الحياة ملهاة، لوحة، موسيقى. الحياة حلم. الحياة حكة. الحياة أرجوحة. الحياة مشنقة. ليس هناك من كلمة لاتصلح لمرافقة كلمة الحياة. الحياة خراء. الحياة إسهال. الحياة شجرة. الحياة كابوس.الحياة سجن. الحياة سينما. لا توجد كلمة، مهما كان شكلها أو معناها، لا يمكنها أن ترافق كلمة الحياة من دون أن تعني فكرة ما. أو من دون أن تقود إلى جوهر الحياة. ولأن الحياة هي زبالة وزهرة في الزمكان نفسه. ولو كانت هناك كلمة واحدة لا تناسب كلمة الحياة، لكانت تلك الكلمة هي المفتاح للوصول إلى سر هؤلاء البشر. كلمة واحدة فقط يارب الخره، لا توجد كلمة واحدة لايمكن جمعها بطريقة الرياضيات من دون تؤدي إلى نتيجة متشابهة: الحياة شارع، الحياة سم، الحياة غيمة، الحياة نفق، الحياة مرحاض... ..

قفزت من بين الأحراش وكأن طاقة حيوانية وحشية سرت في جسدي. تعقبت أثر رائحته. وبقيت أنبح طوال الطريق وأنا أعدو كالمجنونة. وصلت إلى حافة البحيرة. كان أصدقاؤه قد غادروا المكان. أما هو فكان يعوم في مياه البحيرة وهو يغني ثملاً. واصلت نباحي صوبه لأكثر من ٥ دقائق، فراح يلوح لي بيده. كنت أشتهي أن أمسك به من رقبته. قفزت إلى الماء. رحت أعوم من حوله، كان يصرخ منتشياً فيعود صدى صوته من كل جهات البحيرة. غطست أسفله، أمسكت بطرف بنطاله. سحبته إلى أسفل حتى تقطعت أنفاسه...

هؤلاء البشر يا بيتو

نحن الذين ننبح..

أنت وأنا.. وهذا العالم... أتمنى أن يختفي كل شئ.. ماعدا ذكرياتي.. أريدها أن تبقى ميتة في مكان ما وإلى الأبد... كرائحة بول على جذع شجرة..

أرجوك بيتو..

سامحني..

# بوصلة وقتلة

كرع أبو حديد ما تبقى من زجاجة العرق. أدنى فمه من فمي. وبهدوء حشاش غاطس في حشيشته، أخبرني بنصيحته:

اسمع مهدي. شفت أنواع وأشكال المشاكل بحياتي. وأعرف فد يوم راح تبلعني مصيبة. بس هذا مو هو المهم. عمرك ١٦ سنة. راح أعلمك اليوم شلون تصير أسد. هاي الدنيا كلاوات. إذا متت اليوم لو بعد ٣٠ سنة ما كو فرق. المهم هو اليوم، وشلون تكدر تشوف الخوف بعيون الناس. من يخافون راح ينطونك كل شي... وإذا واحد كلك مثلاً خاف الله، لو حرام.. حط رجلك بطيزه.. لأن هذا الله مال مضاريط.. مالهم مو مالك.. إنت الله... يومك هذا... وماكو الله من دون عبيد وبكائيين يموتون من الجوع ويتصبرون بإسمه... لازم تتعلم إنت بهذي الدينا تصير الله.. الناس تلحس طيزك وإنت تخري بحلوكهم... لا تفتح حلكك اليوم ولا كلمة... تجي وياي مثل النعجة ساكت أخرس ... افتهمت إبن النعال...

ثم خبط زجاجة العرق على الجدار، وسدد لكمة محبة قوية لأنفي.

مشينا في ظلام الأزقة الموحلة. كانت البيوت الفقيرة تلتقط أنفاسها بعد أن جلدتها العاصفة. لم يتبق من البيوت سوى النيام الذين يحلمون. ابتلّ كل شئ وانخلع من مكانه. الريح الباردة التي واصلت عبثها في متاهة الأزقة ليلاً، كبرت واشتد برد الحي المبتل الذي عشت ومت فيه. مرات كثيرة خيل لي أن الحي هو ابن أمي. رائحتها من رائحته. وبؤسها من بؤسه. لا أذكر أنني شاهدت أمي إنسانة. فقد ظلت تعوي وتبكي في ركن المطبخ مثل كلب مربوط ليعذَّب. يقصفها أبي بسيل من الشتائم، وحين ينفد صبرها الصخري، تنوح متذمرة بصوت مسموع:

(.. ليش... ياربي... ليش. خذني وخلصني...)

حينها فقط، ينهض أبي ويجلدها بلا انقطاع بعقاله حوالي نصف ساعة، وهو يبصق فوقها.

كان الدم يسيل بغزارة من أنفي. كنت أرد رأسي للخلف، محاولاً اللحاق بخطوات أبو حديد. رائحة سمك متبّل بالبهارات فاحت من شباك بيت شرطي المرور مجيد. لابد أنه صاير سكران طينة، حتى يقلي السمك في نص الليل. انعطفنا إلى زقاق ضيق ملتو. التقط أبو حديد حجراً، ورماه صوب قطتين كانتا تتعاركان فوق تل الزبالة. نطتا في شباك بيت أبو رحاب المهجور. تكاد الزبالة تبلغ سطح البيت. أعدمته الحكومة وصادرت داره. يقولون أن عائلته عادت إلى الريف حيث تقطن العشيرة. كان أبو رحاب على اتصال بحزب الدعوة المحظور. رميه بالرصاص كخائن تم بعد عام من التعذيب والتحقيق في أقبية الأمن. لايمكن نسيان جسد رحاب بنته الفاتنة. كانت نسخة للممثلة جينفير لوبيز في فيلم (الاستدارة). شاهدت الفيلم في بيت الشاعر عباس جارنا. كانت لديه أفلام لا يمكن عرضها في التلفزيون الحكومي بعد مئة سنة. غامر مع رحاب أغلب شبان الحي برسائل حب. لكنها كانت حمارة لاتفقه شيئاً غير غسل الحوش وصب ماء الوضوء على يدي الدعوتي أبيها.

توقف أبو حديد، أخي العملاق، أمام باب بيت أم حنان، أرملة الشهيد علاوي شكر. يلقبونها في الحي للسخرية من أخلاقها بـ (حنان علينا) دخلنا البيت وجلسنا على كنبة من الخشب تؤلم الظهر. طلبت أم إيمان من إحدى بناتها أن تغسل وجهي وتهتم بي. سدّت البنت منخري بالقطن. كانت لديها ثلاث بنات جميلات ومتشابهات كما ممرضات في زي واحد. أخي ضاجع أم إيمان. ثم ناك أصغر بناتها مرتين. بعدها أمر أم إيمان أن تنيكني. تعجبت من أنه لم يطلب هذا من الفتاة التي هي في عمري. أخذ أبو حديد من أم أيمان نقوداً وثلاث علب سجائر. أعطاني واحدة. عدنا نمشي في الأزقة الموحلة. أبطأ أبو حديد خطواته. ثم عاد أدراجه وتوقف

أمام باب الفيترجي أبو محمد. طرق الباب بقدمه. خرج الرجل بدشداشة بيضاء يبرز منها كرشه. جحظت عيناه حين ألقى أبو حديد السلام عليه. كنا نسميه، أنا والأولاد، (جربوع بالع بطيخة). الفيترجي كان يعطينا، أنا وشلتي، بعض الحبوب المخدرة مقابل ثقب إطارات السيارات في الحي كي يزدهر عمله. كنا نساومه على عدد إطارات السيارات مقابل عدد الحبوب. أمرني أخي أن أنزع قميصي الملطخ بالدم، وقال للفيترجي أن يجلب لي واحداً نظيفاً. امتثل الجربوع في الحال، وعاد بقميص أزرق تفوح منه رائحة الصابون. إنه القميص نفسه الذي يرتديه ابنه، الطالب في كلية الطب. استغربت من أن مقاسه كان مناسباً تماماً. مال أخي برأسه وهمس في أذن الفيترجي بضع كلمات زادت من ازرقاق لون بشرته الداكن.

قطعنا الشارع العام باتجاه الحي الآخر. طيلة الوقت كنت أفكر بما همسه أبو حديد في أذن الجربوع. سعل أبو حديد بقوة، وخرخش صدره مثل تراكتور عمي القديم. لم يحدثني طوال الطريق ولا بكلمة واحدة. أشعل سيجارتين سوية في فمه، وقدم لي واحدة. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. لا أعرف أي شخص من أهالي هذا الحي، سوى ولد شرير كان معنا في المدرسة. لكمني مرة من دون أن أتمكن من بعصه في طيزه. وحين عرف أنني شقيق أبو حديد، جاء والده إلى المدرسة، وطلب مني أن أشبع ابنه ضرباً. كان الخوف من بطش أخي ابو حديد يشل تفكير الناس. كان صيته كشقاوة لايقهر ذائعاً في كل أنحاء المدينة. دوّخ رجال الشرطة والأمن لسنوات طويلة قبل أن يعدم بحضور الناس. بكاه حتى الأعداء. كثيراً ما وقف يساند الناس ضد قسوة الحزب الحاكم. لم يكن أبو حديد يميز بين كلمتي الخير والشر. كانت له شياطينه الخاصة. مرة يرمي رمانة يدوية على الفرقة الحزبية، كلما أعدم (الرفاق) شاباً هارباً من الخدمة العسكرية. وفي أخرى يشوه وجه بائع خضروات مسكين، لمجرد أسباب تتعلق بمزاجه وسكره. بقي أبو حديد يعربد هكذا ثماني سنوات ثم وشى به الحلاق جوني. ليتلها كان أبو حديد ينيك ابنته السمراء الحلوة

على سطح البيت. حاصرته الشرطة، وأصابته في ساقه. بعد أسبوع واحد. أعدموا أبو حديد. ولطمت أمي وأخواتي السبع طوال عام. أما أبي فقد ارتاح من مصائب ابنه العاق.

طرق أبو حديد باباً صدئاً بقيت من طلائه الأخضر بقع صغيرة تشبه الضفادع. استقبلنا رجل أربعيني يغطي شاربه الكث أسنانه حين يتحدث. جلسنا في غرفة الضيوف أمام التلفزيون. فهمت أن الرجل يعيش لوحده. دخل إلى المطبخ وعاد بزجاجة عرق. فتحها وصب كأساً. أمره أخي أن يصب لي ايضاً. جلسنا صامتين نشاهد أنا والرجل مبارة لكرة القدم بين ناديين محليين. أما أخي فقد ظل يحدق في حوض سمك صغير...

. تظن أن السمك سعيد في الحوض؟

سأل أخي بنبرة هادئة وجادة.

(مادام يأكل ويشرب ويسبح... فهو بخير...)

أجابه الرجل من دون يرفع عينيه من الشاشة.

(هل يشرب السمك الماء؟)

( أكيد... يشرب... طبعاً)

(كيف يشرب السمك ماء البحر المالح)

(أكيد عنده طريقة... كيف هو في الماء ولا يشرب)

(يمكن لأنه في الماء لا يحتاج إلى ماء...)

(لم لا تسأل السمك في الحوض؟)

وقبل أن يكمل الأصلع التفاته ناحية أبو حديد. وثب أخي فوقه مثل نمر جائع. طرحه على الأرض وركب فوق صدره وهو يقيد يديه خلف ظهره. وبحركة خاطفة أخرج سكين صغيرة من جيبه وقربها من عين الرجل وراح يصرخ في وجهه بهيستريا:

- جاوب بلاّع العير... شلون السمك يشرب المي المالح... جاوب ابن القحبة... جاوب... السمك يشرب المي المالح لو مايشربه... جاوب ابن الضراط...

غادرنا بيت الرجل. بعد أن أدخل أبو حديد خيارة في طيزه. لم أفهم علاقته بأخي. اتجهنا إلى ساحة للسيارات. شاب نحيل، يصغر أخي سناً، كان يتكأ على سيارة ماليبو حمراء، موديل السبعينات. عانق أخي بحرارة. شعرت أن أبو حديد يبادله مشاعر صادقة. انطلقنا في السيارة ونحن ندخن ونستمع إلى أغنية شعبية تتحدث عن فراق حبيبين. أخذنا (الخط السريع)، ووجهتنا أطراف المدينة. أطفأ أبو حديد مسجل السيارة. وقال وهو يسترخي في مقعده: مراد، إحكِ حكاية الولد الباكستاني لأخي.

(صار، عيوني) رد مراد حربة.

إسمع مهدي أخويه. قبل سنوات غامرت بالهرب إلى إيران. كنت أفكر في العبور من هناك إلى تركيا والخلاص من بلد المناويك هذا. عشت في بيت قذر في شمال إيران. كانوا يجمعون فيه القادمين من باكستان وأفغانستان والعراق. بلاد الله الكواد الشاسعة. انتظرنا حتى يسلموننا إلى المهرب الإيراني الذي سيعبر بنا الحدود الجبلية. هناك التقيت بالولد الباكستاني. كان في سنك تقريباً. محبوب وصغير ووسيم جداً. كان يتحدث العربية قليلاً. ويحفظ القرآن في سره. كان مذعوراً طوال الوقت. لديه بوصلة غريبة. يضعها في راحة يده مثل فراشة. يحدق فيها للحظات. ثم يخبئها في جيب خاص معلق حول رقبته وكأنها قلادة ذهب ثمينة. شنق نفسه في الحمام قبل يوم من غارة الأمن الإيراني على بيت المهربين. زجونا في السجن. وتلقينا الكثير من الضرب. وبعد أن انتهوا من إذلالنا. التقطنا أنفاسنا. ورحنا نتعارف على المساجين الآخرين. تبادلت أطراف الحديث مع شاب عراقي مسجون بتهمة بيع الحشيش. كان مولوداً في إيران. سفرت الحكومة عائلته من بغداد بتهمة التبعية الفارسية بعد

اندلاع الحرب. أخبرته عن الولد الباكستاني المشنوق. تأسف الشاب عليه كثيراً. وقال إنه ولد طيب ومسكين، وكان قد التقاه من قبل ويعرف الكثير عن حكاية بوصلته.

في عام ١٩٨٩ في مدينة بيشاور الباكستانية. كان الشيخ عبدالله عزام، الأب الروحي للجهاد في أفغانستان متجهاً في سيارته للصلاة في مسجد يرتاده (الأفغان العرب). طارت سيارة عزام منفجرة ما أن مرت فوق تقاطع للطرق تجري من تحته مياه الأمطار. تقطعت أوصال ولديه اللذين كانا معه. بشهادة مؤذن الجامع والذي هرع إلى مكان الانفجار لحظة وقوعه. لم تخدش جثة شيخ المجاهدين، بمقدرة من الله، ولا حتى بجرح بسيط. لم يكن هناك سوى خيط رفيع من الدم يسيل من طرف فم الشيخ. كانت كارثة موجعة اغتيال الشيخ الذي قاوم جبروت الاتحاد السوفييتي والذي قامت على موته جماعة القاعدة التي تتهم بإنها من صفى عزام كي يخلو لها الجو.

قبل أن يتجمهر مزيد من الناس، عثر المؤذن مالك قرب حطام السيارة على بوصلة. وما أن مسح الدم عنها حتى شعر بالقشعريرة تسري في جسمه. كانت بوصلة عسكرية، منقوش عليها إسم الله ونبيه. كان من الجلي للمؤذن، أنها بوصلة الشيخ المقدسة التي يباركها الله ويرسل عبرها معجزته. كثير من المجاهدين ادعى أن البوصلة تصطبغ باللون الأحمر القاني حين يقرر الله خيراً أو شراً لحاملها. كانت لا تفارق الشيخ عزام طوال حياته الجهادية. خبأها مالك في بيته طوال عشر سنوات. كان يخرجها كل ليلة، يلمعها، ويتأملها وهو يذرف دموع الحزن والأسف على موت شيخ المجاهدين.

وضع المؤذن البوصلة برفق في يد ولده وحيد، كمن يضع جوهرة ثمينة في قطعة قماش. كان وحيد قد عزم على الرحيل إلى إنكلترا عبر طرق التهريب. لعل الحظ يوفقه ويعين العائلة ويدرس حتى يصبح طبيباً. أفضى المؤذن بسر البوصلة لولده وحيد، وأوصاه أن يحرص عليها كحرصه على

نفسه. أكد له، بأيمان قاطعة، بأنها ستعينه في رحلته وحياته، وأنها أغلى ما يمكن أن يقدمه أب لابنه. كان وحيد يجهل فائدة البوصلة وأهميتها، ولم يفهم الكثير عن ذلك الوقت المقدس والمحدد الذي ستصطبغ فيه البوصلة باللون الأحمر لتخبره خيراً أو شراً، غير أن إيمانه الكبير بأبيه جعله أميناً عليها. وهكذا صارت البوصلة بمثابة قطعة من جسده. وصل وحيد إلى إيران وسكن بيوت التهريب الخربة. كان عليه أن يعمل ستة شهور لجمع المال الكافي للعبور إلى تركيا. خرج ذات يوم مع ستة شبان أفغان للعمل في بناء البيوت. حملهم رجل إيراني ثري في شاحنة صغيرة وخرج بهم إلى أطراف المدينة حيث كان يشيد بيتاً ضخماً وسط مزرعته. كانوا عمالاً بأجور زهيدة. أنزلهم الرجل في مزرعته. وطلب منهم تنظيف مخلفات البناء من طوب وجص وأكياس وخشب. كان الاتفاق أن يعود صاحب الملك في ساعة متأخرة من المساء لاصطحابهم من جديد إلى المدينة. سلمهم نصف الأجور وأوصاهم بأن ينهوا عملهم على أحسن وجه. عمل الأفغان ومعهم وحيد طوال النهار بكسل وبطء. حل الغروب وقام الجميع للصلاة. جلسوا للاستراحة في إحدى صالات البيت الواسعة. صبوا بعض العصير ولفوا السجائر وراحوا يتحدثون عن أمور طرق التهريب إلى أوروبا. كان الشبان الأفغان يرمقون وحيد بين حين وآخر بنظرات سخرية ومكر. تأخر صاحب الملك. قرر الأفغان أن يتسلوا بلعبة قمار. وكانت مجرد خدعة خبيثة. كانت هناك مجموعة من البراميل التي تحتوي على الماء وإلى جوارها أكياس كثيرة من الجص. قالوا لوحيد إن اللعبة هي كالآتي: يخلطون الجص بالماء. يقوم كل واحد من المجموعة بوضع ذراعيه حتى المرفق داخل الخلطة في البرميل، وكل من يتمكن من الصمود لوقت أطول سيفوز بمبلغ من المال. اقترحوا على وحيد أن يكون الأول. بكل مرح وبراءة قام وحيد ولبى نداء اللعبة. غمس ذراعيه في خلطة الجص. وبعد دقائق تماسك الجص بقوة وقيد وحيد إلى البرميل. خلع الأفغان بنطال وحيد واغتصبوه تباعاً.

دخنا سوية تسعة سجائر خلال سماعنا حكاية الباكستاني. صمت مراد

حربة بعد أن تقيأ ما رواه دفعة واحدة. شرب من زجاجة ماء إلى جواره وهو يشتم الله. أبو حديد أخرج من حزامه مسدساً وراح يحشوه بالرصاص. لم تؤثر بي حكاية الباكستاني. كنت واقعاً تحت تأثير سحر صحبة أخي أبو حديد والدخول إلى عوالمه. انعطفنا بالسيارة إلى متنزه شاسع اشجاره العارية بدت وكأنها جنود متحجرين. أوقف مراد حربة محرك السيارة. كانت دقات قلبي تتسارع وأنا كلي فضول لمعرفة ما سنفعله في ظلام المتنزه البارد. أكيد أننا لم نقطع كل هذه المسافة من أجل سماع حكاية الباكستاني. ترجلنا من السيارة. جال أبو حديد ببصره في المكان بينما فتح مراد حربة صندوق السيارة وأخرج مسحاة وقزمة. أمرني أبو حديد بمساعدة مراد في الحفر. راح دمي يغلي من شدة الإثارة والخوف. ساعد أبو حديد، بعضلاته المفتولة، في الحفر. أخذنا ننضح عرقاً. كانت الأرض قاسية. اعاقتنا جذور شجرة متشعبة وحجر كبير. وقبل أن نلتقط أنفاسنا توجه مراد وأبو حديد إلى صندوق السيارة وبقيت أنا حائراً قرب الحفرة مثل الأطرش في الزفة. أخرجا رجلاً مقيداً ومكمم الفم من الصندوق وسحلاه على الأرض حتى الحفرة. أجلسه مراد حربة على ركبتيه على حافة الحفرة. أمرني أخي أن أقترب وأحدق في عيني الرجل. الفزع في نظرته مازال موشوماً في ذاكرتي مثل ختم من نار. رفسه أبو حديد على ظهره، فتكوم الرجل في الحفرة. أهلنا التراب فوقه وسوينا الأرض جيداً.

شدني أبو حديد من شعري بقسوة، وهمس في أذني:

أنت الله...

# شمس وجنة

تركوني وحدي!

قالوا: انتظر هنا.. سنتصل بك لاحقاً... لا تتجاوز حدود القرية!

بدى أن الأهالي قد هجروا القرية منذ وقت قريب. ثمة عنزات ما زالت تتجول هنا وهناك. لم أكن أدري كم سيطول انتظاري. تسكعت داخل البيوت المهجورة لقضاء الوقت. كنت أشعر بالتعب. لست متأكداً إذا ما كان النوم مازال ضمن نطاق حياتي الجديدة. صعدت إلى سطح أحد البيوت والقيت نظرة على الجوار. كان دخان المعارك يتصاعد من البلدات المجاورة، و مروحيتان عسكريتان كانتا تقطعان خط الافق. حقول القطن تحيط بالقرية من كل الجهات. لم يقدر لي من قبل ان أرى زهرات القطن. ربما شاهدتها في البرامج الوثائقية والأفلام. لا أذكر تماما! قضيت حياتي أعمل في مخبز ثم سائق تاكسي وأخيراً حارساً في سجن. هربت من عملي الأخير حين اندلعت الثورة. التحقت برجال المقاومة وقاتلت حتى النفس الأخير. بدت زهرات القطن وكأنها ندف ثلج اصطناعية وإلا لكانت أشعة الشمس اللاهبة سيحت كل هذه الحقول. ثم لمحت فتاة جالسة في سطح أحد البيوت القريبة. انتقلت إلى جوارها. من المؤكد أنها لا تراني. كانت بشرتها محروقة من كثرة التعرض لاشعة الشمس. كانت تسرح شعرها الطويل بمشط أخضر، وتجلس على تخت خشبي صغير. نادت امرأة من حوش البيت:

(ابقي تحت الشمس.. لاتتزحزحي من مكانك!)

أطلقت البنت تنهيدة وغطت وجهها بيديها.

انتقلتُ إلى جوار المرأة

عيونها منتفخة، يبدو أنها لا تأخذ حصتها الكافية من النوم. كانت في أواسط الثلاثين من العمر. قروية بجسد مكتنز وحركاتها نشيطة وعصبية. تبعتها إلى داخل البيت. جلستُ قبالتها على كرسي مغطى بصوف خروف. كانت تشاهد الأخبار في التلفزيون. مازلت المعارك الوحشية والمرعبة تدور بين قوات النظام ورجال المقاومة. ذبح واغتصاب وتشريد وحرق، حتى أن بعضهم أكل أكباد القتلى.

رحت أفكر في الأسباب التي منعت المرأة والفتاة من الرحيل. لقد هجر أغلب الناس مدنهم وقرآهم ولجأوا للبلدان المجاورة. كانت الكلاب تنبح مسعورة. انتقلت إلى خارج البيت وشاهدت أكثر من ٢٠ كلباً مربوطاً أمام الباب الخارجي. عادت المرأة إلى حوش البيت ونادت مرة أخرى على الفتاة:

( سوسن.. انزلي الآن... الرز والحساء في المطبخ)

راقبتْ سوسن المرأة من سياج السطح وهي تغادر البيت. كانت تحمل حبلاً. تبعتها أنا. أخذت أصوات مدفعية النظام تصل من بعيد وهي تدك البلدات المجاورة. دخلت المرأة إلى زريبة أحد البيوت المهجورة. لم يكن هناك سوى كلب خائف يجوب الزريبة وكأن به مس من الجنون. أخرجت المرأة من جيبها فخذ دجاجة بارد وألقته أمام الكلب. التهمه بشغف. مسدت المرأة على رأسه، ربطته في الحبل وقادته إلى الخارج.

عدتُ إلى جوار الفتاة. كانت تضع رأسها أسفل حنفية الماء في حوش البيت، لتبريد رأسها من حرارة الشمس. جلستْ في ظل شجرة تفاح وراحت تبكي. ربطت المرأة الكلب أمام البيت مع الكلاب الأخرى، وجالت ببصرها في أرجاء القرية الساكنة. جلستُ أنا فوق أغصان شجرة التفاح ورحت أفكر بعودتهم من أجل مساعدتي في العبور إلى الجهة الأخرى. آمل ألا يتأخروا! تأملت العصافير والتفاحات وشعر الفتاة المبلل. مجرد

مفردات من الحياة التي عشت فيها ٣٤ سنة. ليس زمناً طويلاً. لكنني غير نادم. كنت شجاعاً، وسيتردد اسمي في ذاكرة الأجيال. عادت المرأة إلى حوش البيت وطلبت من سوسن أن تتناول الطعام. صرخت الفتاة غاضبة، فطارت العصافير خائفة. قالت وهي تبكي وتلطم خدها، بأنها لن تأكل وأنها تفضل الموت جائعة على الموت بسبب لهيب الشمس، أنت أم قاسية ومجنونة! أريد أن موت وأخلص..

اقتربت المرأة من سوسن وأمسكت بقوة بذراعها. كانت على وشك جرها أو ضربها لكنها انهارت فجأة باكية وجلست قربها متكأة على جذع الشجرة. القت سوسن براسها في حجر أمها وراحت الدموع تسيح من عينها. كانت في الخامسة عشرة من العمر. نحيفة وجميلة وفي عيونها نظرة غريبة وكأنها على وشك الغوص في مكان مجهول.

لم أفهم ما الذي يدور!

رن هاتف المرأة الخلوي وراحت الأخيرة تتوسل بالمتصل أن يبحث عن زوجها. تمنيت أن أقفز إلى جوار المتصل وأكتشف هويته. كان أمر الانتقال سهلاً، لكنهم أمروني أن لا أتخطى حدود القرية. لايمكنني مخالفة القوانين. سأعبر قريباً وينتهي كل شئ.

مرت الأيام والأسابيع رتيبة. لم يكن أمامي ما أتسلى به في هذه القرية المهجورة غير سوسن وأمها. لم يحدث الكثير. واصلت الأم إجبار سوسن على التعرض لأشعة الشمس في سطح البيت. وكانت تجري بين الحين والآخر اتصالاً هاتفياً للبحث عن زوجها. ربما تقتحم قوات النظام القرية في أي لحظة. لكن من يهتم. لم تعد الحرب والحياة تخيفني، لقد تحررت، ولم يتبقى سوى خطوة واحدة!

خيل لي أخيراً أنني فهمت ما يدور بين سوسن وأمها. لم تغادر المرأة القرية، بسبب زوجها. اتصل بها هاتفياً قبل أيام من مغادرة الأهالي للقرية. طلب منها أن تنتظره. قال لها انه سيهرب. كان يقاتل مع قوات المعارضة

في إحدى المدن القريبة. لكن الزوج اختفى. لم يعد يرد على هاتفه. خشيت أم سوسن أن تغادر إلى بلد آخر من دون زوجها. هذه المرأة القروية كانت تتخبط في رعبها. لقد انتزعت فجأة من الحياة الأليفة التي عاشتها في القرية طوال حياتها وقُذف بها داخل كابوس وحشي. كانت المرأة القروية قد سمعت عن جرائم ميليشيات النظام. كانوا يسمونهم (الأشباح) وكان الناس يقولون، إن الأشباح يغتصبون النساء وكانوا يفضلون النساء والفتيات ذوات البشرة البيضاء. كان الأشباح قد اقتحموا جميع القرى المجاورة. فكرت الأم بأن تحرق بشرة سوسن بأشعة الشمس. كانت تجبرها على الجلوس أسفل الشمس لساعات. ظنت المرأة أن الشمس هي ستارة حديدية ضد الاغتصاب. ربما سيتركون ابنتها لحالها لو كانت بشرتها مثل خبز شعير محروق. أخذت المرأة احتياطات أخرى. كانت تملك مسدساً. وكانت تجمع كلاب القرية أمام بيتها. لعلها تخيف كل من يفكر في الاقتراب من البيت. لم تملك سوسن الكثير لفعله. كانت مرعوبة مثل أمها. فكرت في الهروب أكثر من مرة لكنها كانت خائفة وليست لديها أي فكرة عن المكان التي ستهرب له.

في إحدى الليالي كنت أتمدد على الكنبة الخشبية القديمة. وكانت الأم تجلس قريباً فوق السجادة، تشاهد الأخبار وفي نفس الوقت تعالج بشرة سوسن المحروقة. كانت تضع كمادات باردة على وجه ابنتها وتطلب منها أن تكثر من شرب الماء. لقد ساءت حالة البنت. انقطع التيار الكهربائي فأشعلت الأم الفانوس، ثم خرجت إلى حوش البيت تجري اتصالاً. التقطت سوسن كتاباً سميكاً من طاولة التلفزيون. لم يكن هناك سوى كتابين في البيت. القرآن وكتاب حكايات من التراث. اشترى والد سوسن كتاب الحكايات كهدية لها حين بلغت سن العاشرة. عادت الأم وجلست قرب سوسن، مكسورة غارقة في همومها. اسمعي يا أمي، قالت سوسن، سأقرأ لك هذه الحكاية:

((كان شمس الدين ملكاً طاغياً، منغمساً في ملذاته ومنشغلاً عن

هموم رعيته، وكان له فيل يحبه كثيراً، فلا يسمح لأحد بإيذائه أو التعرض له، يجوب الفيل الأزقة والأسواق، فيحطم كل شيء في طريقه، تضرر أهل المدينة من ذلك، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء خوفاً من غضب ملكهم القاسي. وذات يوم اجتمع سكان المدينة وقرروا مطالبة الملك بحبس الفيل أو نفيه عن البلاد، دخل الجميع القصر فتملكهم الخوف والرعب، وبمجرد أن خرج عليهم شمس الدين محاطاً بعساكره وحرسه تراجعوا نحو الخلف ولولا أن الحراس أغلقوا الأبواب لفرّ الجميع، ساد الصمت المكان فقرر شيخ هرم البدء بالحديث

«سيدي الملك، إن الفيل...» ثم صمت، ظناً أن الآخرين سيتمون الحديث عنه، لكنه وجد نفسه وحيداً...

قال شمس الدين غاضباً «ماذا أصاب فيلي العزيز؟ تكلم!»

فكر الشيخ في طريقة للخروج من ورطته، فقال وهو يرتعد من شدة الحزن:

«الفيل يشعر بالوحدة يا سيدي، فهلّا أحضرتم فيلاً آخر يسليه!»

ضحك شمس الدين وقال: «أنت على حق أيها الحكيم، أحضروا فيلاً آخر أيها الوزراء!»

جلب الملك فيلاً آخر فازدادت معاناة سكان المدينة، فقرروا الذهاب ليشتكوا للملك مرة أخرى.. وكالمرة التي سبقتها، طلبوا من شمس الدين إحضار فيل آخر.

توالت زيارات الأهالي للقصر وكل مرة يستقدم فيل جديداً إلى أن امتلأت المدينة بالفيلة فرحل أهل المدينة الواحد تلو الآخر.. وكل من يغادر يلقي اللوم على جبن الآخرين... حتى خلت المدينة من أهلها، وغدت مرتعاً لفيلة الملك))

. مارأيك يا أمي بهذه الحكاية؟

. لا أدري يا بنتي لا أدري.. ليس لدينا سوى الله..

واصلت سوسن مطالعة الكتاب، وراحت الأم إلى المطبخ وعادت ببعض الخبز ومربى المشمش. فجأة، سمعنا أصوات رصاص في القرية. نفخت المرأة على لهب الفانوس. انتقلت أنا بلمح البصر إلى الخارج. كان خمسة مقاتلين من المعارضة يطاردون طياراً. يبدو أنهم اسقطوا مروحيته وقد اهتدوا للمكان الذي هبط فيه بمظلته. لم يكن الطيار يملك سوى مسدساً. والرجال كان بحوزتهم الكلاشنكوف ويطاردونه بسيارة نوع بيكب. مر الطيار من أمام بيت سوسن بعد أن أطلق ثلاث رصاصات. عدتُ إلى داخل البيت. كانت أم سوسن مرعوبة. أخرجتْ المسدس من دولاب الملابس وجلستْ قرب بنتها. عدتُ أنا أتبع الطيار. دخل احدى البيوت فحاصره الرجال. نادوه بأن يستسلم. لم يكن أمامه خيار بعد أن نفدت ذخيرة مسدسه. كانت ليلية مقمرة. خرج الطيار مستسلماً وهو يضع يديه فوق رأسه. أحاط به الرجال. ركلوه حتى أسقطوه أرضا ثم أمروه بالنهوض من جديد. طعنه أحد الرجال بسكين ثم توالت الطعنات من الآخرين. سقط الطيار سابحاً في بركة دمه. جلب أحد الرجال البنزين من السيارة وأخرج رفيقه هاتفه الخلوي وراح يصور عملية إحراق جثة الطيار. كبر الجميع باسم الله. ثم عادوا إلى سيارتهم وهم يطلقون الرصاص من نوافذ السيارة مبتهجين. مروا من قرب بيت أم سوسن وحين شاهدوا العدد الكبير من الكلاب مربوط أمام البيت، دبت الأثارة بينهم. ترجلوا من السيارة وأمطروا الكلاب بزخات الرصاص. ظنت ام سوسن أنهم الأشباح، وأنهم سيقتحمون البيت. أطلقت المرأة القروية رصاصة على رأس سوسن ووضعت المسدس في فمها. لم يتمكن المسلحون من سماع الرصاصة من داخل البيت، فقد كان رصاص الكلاشنكوف ونباح الكلاب يثير ضجة كبيرة.

خيم الصمت بعد أن مات آخر كلب. قاد الرجال سيارتهم إلى خارج القرية. داخل البيت كانت المرأة القروية تجثو على ركبتيها وبين يديها المسدس ومن دون أن تجرؤ على الالتفات إلى سوسن التي كانت تحيط ببشرتها المتفحمة بقعة كبيرة من الدم.

مكثت المرأة في مكانها حتى مطلع الفجر. انشغلت أنا لبعض الوقت في مراقبة الكلاب الميتة. كنت أراقب كلباً ما زالت الأنفاس الضعيفة تدب في جسده. تخيلت أن روحه ستطلع وتشاركني الانتظار. فتحت المرأة القروية باب البيت الخارجي. كان المسدس في يدها. سارت على غير هدى. تبعتها. دخلت حقل القطن، وواصلت المشي والذهول يلفها. كان بودي أن أتبعها وأعرف إذا ما كانت ستطلق النار على نفسها، لكنها تخطت حدود القرية، متجهة صوب شروق الشمس.

مرت أحداث عديدة على القرية. اقتحمت قوات النظام القرية. ثم عادت قوات المعارضة للسيطرة على القرية بعد معارك شرسة سالت فيها دماء وبترت فيها رؤوس. جاءت منظمات دولية إنسانية تبحث عن الأدلة. كانت المنظمات تحصي ارتكاب المجازر من قبل الطرفين، وكأنها حكم يحصي أهداف الطرفين. مباراة دموية يحاول المجتمع الدولي الإشراف عليها من بعيد، عبر تجارة الاسلحة والكذب ودموع التماسيح.

استشهدت أنا قبل وصولي لهذه القرية. كنت أقاتل مع المجاهدين أبناء الله. كنت قناصاً. طوال عام ونصف وأنا أحصد قتلة النظام. قصفوا أخيراً مخبأي بقذيفة من طائرة حربية. أخرجوا جثتي الممزقة وركلوها وبالوا فوقها. لم أكن أهتم لإهانة جثتي. فرحت باستشهادي. سألاقي ربي بوجه حسن. وما أن تحررت من جسدي حتى جاء إخوة كانت لديهم سلطة تنظيم عمليات العبور. قادوني لهذه القرية. تركوني وحدي وقالوا، انتظر، سنعبر بك إلى الجنة. لاتغادر حدود هذه القرية. لا أدري إذا ما كان الإخوة أنفسهم ينتظرون!

مر زمن طويل ومازلت أنتظر. أتجول في القرية المهجورة. أتأمل في ملابس القرويين، أواني الطعام، العاب الأطفال، وعظام حيواناتهم الأليفة الميتة. ماتت حقول القطن أيضاً. كنت أشعر بالملل. ثم دلني السأم على حقيقة قدراتي. أخذت أتنقل مع العصافير فوق الأغصان وفي سطوح

البيوت. أترنح مع الأوراق التي تسقط من الأشجار. العب مع الريح وأزحف مع الدود وأشاكس الحشرات. كان بإمكاني فعل أي شيء، من دون هموم ولا جوع ولا خوف. لم تعد الوحدة تزعجني، كانت آخر ذكرياتي عن الحياة الماضية قد أخذت تختفتي. وذات صباح وأنا أجلس فوق شجرة التفاح في بيت سوسن وأمها، خطرت في بالي فكرة أجهزت على مغزى انتظاري: ماذا لو كانت الجنة هي هذه القرية المهجورة!

# شجرة سرسارة

فوق التل جالساً أسفل أغصانها. أطبع في اللابتوب ملاحظاتي عن نهر النبي. شمس عملاقة تشوي القرية. نمل يحمل بقايا زنبور ميت. حشرات أخرى غريبة تقضم بعضها البعض. معدتي تؤلمني! الطبيب يقول إنه التهاب القولون. انتفخت بطني منذ ثلاثة أسابيع وكأنني حامل!! أكتب في بحث لمنظمة محلية تنوي سرقة منظمة دولية مانحة. مهمتي هي تضخيم الحقيقة. بث رعب الجفاف. رسم صورة قاتمة عن القرى العديدة التي تتناثر على طول ضفاف نهر النبي، الذي يفصل بين بلدي وجارنا العدو. خضنا مع الجار حروباً طاحنة منذ فجر التاريخ. السلام الهش الذي نعيشه معهم هو مجرد بركان نائم. بركان شبح ثورته أنا من يرسم سيناريو دماره. من دون ماء سيتدفق الدم. ستفيق الذاكرة العدائية الوحشية بسبب العطش. ليس البشر وحدهم من سيفنى، بل النوع النادر من الطيور وكل أشكال الحب والحشرات وقطعان المواشي التي تهب الأهالي قوتهم وإيقاع حياتهم.

تجولت ودونت ملاحظاتي الدرامية في ٦ قرى خلال هذا العام. قرية سرسارة المحاذية لنهر النبي كانت هدفي الأخير لتقصي الحقائق. هذا هو النهر العظيم الذي تغنى على ضفتيه الشعراء. وكل بلغته، منح مياهه العذبة الحب والتقديس والطقوس والحكايات الخرافية وأخبار الفيضانات والغرق. ما الذي تريد أن تثبته منظمتنا المدنية!! إن جف النهر، سيمتلأ بدم عشاقه. الماء هو الحب. شبح المستقبل يتشكل على هيئة صحراء مرعبة. لن نعود إلى الغابة للقتال، سندخل هذه المرة إلى الصحراء ونذبح بعضنا البعض. عصرنا الجليدي الجديد سيكون صحراء عطش.

لا تحط الطيور على شجرة سرسارة، ولا تتسلقها الحشرات. هذا ما قاله (المعلم) وهذا ما لاحظته طوال ثلاث ساعات من مكوثي قربها. التقطت عدة صور فوتغرافية للشجرة واحتفظت بفرع صغير من أغصانها.

قابلت معلم القرية بعد لقاءات غير مثمرة مع بعض الأهالي . كانوا يتحدثون وكأنهم شخصيات في رسوم متحركة. كانوا لطفاء وكرماء. لكن غموضهم كان مزعجاً. انتابتني الشكوك حول كل ماقاله لي السيد شمرين معلم القرية. ربما كان متواطئاً مع منظمتنا. ربما أخذ رشوة، لاختلاق مجاز عن الجفاف. ما رواه لي عن شجرة سرسارة لم يكن يحمل أجوبة عن أسئلتي حول المحاصيل ومشكلة المياه. حسناً، إنه رجل ودود ومثقف. لكنّه بدى لي كشخص مخادع. الأهالي كانوا يستشيرونه في الصغيرة والكبيرة. أثناء زيارتي له في غرفته الطينية، حيث يعلم القراءة والكتابة، كان عنده صبي يافع. عيناه واسعتان وتلمعان بقوة. الصبي كان يستشيره في أمر زهور بنفسجية كانت تحيط القرية على شكل قوس كل ربيع. كان يسأل عن سر هجر النحلات لهذه الزهور. وكان شمرين يقول له أن النحلات منزعجات بسبب رحيل نجم مميز من سماء عالمنا. والنحلات سيرجعن قريباً بعد أن يطمئن على النجم في رحلة حياته الجديدة. اقترح الصبي على المعلم مساندة النحلات في حزنهن وعملهن في رعاية النجم، وذلك بالاتفاق مع الطيور: أن يتوقف المزارعون والطيور عن الغناء طوال فصل الربيع القادم...

كل أهالي القرية كانوا يتكلمون بمثل هذه الطريقة في أغلب أمور حياتهم. وحسب ما فهمت، فإنهم يتجنبون الشرور بهذه اللغة. ابتكروا لغتهم الخاصة بعد حادثة سرسارة. المعلم شمرين هو المخول الوحيد في التحدث بلغة الناس العادية مع الغرباء. وشمرين هذا قرر الكلام معي على شرط ألّا أتدخل وأطرح أسئلة كثيرة. في الحقيقة لم أكن مكترثاً لأسرارهم وخرافتهم. أغلب القرى كانت حبلى بالأساطير والحكايات العجيبة. ثم لو كان المعلم صادقاً في ما يقوله، لِم يُفصح لي عن أسرارهم؟! كل ماكنت أتمناه، هو الانتهاء من كتابة التقرير وتقديم استقالتي من هذه المنظمة

اللصوصية. كانت جل همومهم منصبّة على إقناع المنظمات الدولية المانحة، أن الاحتباس الحراري العالمي سيؤثر بشكل قاطع على مشكلة الجفاف. وأن الظروف السياسية المعقدة مع جارنا قد تجلب المشاكل في المستقبل القريب. خاصة وأن منابع الأنهار في البلاد تصب من الجيران. بالنسبة لي، الصورة كانت جلية: الفساد وسوء إدارة الموراد المائية. تهدر المياه بكميات كبيرة بسبب الطرق القديمة والبالية التي يستخدمها المزارعون في ري حقولهم. لكن منظمتنا لن تجني من هذه الحقيقة شيء. رعب الجفاف هو الذي كان يجذب الأموال. تحريك الكوابيس عمل تجاري ناجح في أغلب الأحيان.

المعلم شمرين، كان في سن المراهقة حين خرجت العجوز سرسارة في رحلة الرعي الأخيرة. قبلها كانت قد فقدت ولدها الوحيد وهو في سن العشرين. أخذ قاربه وتوغل في النهر لصيد السمك. لم يكن صياداً ماهراً. معظم أهالي القرية يمارسون الصيد بين الحين والآخر، فأغلبهم مزارعو حنطة. وقلة منهم يعيشون من الرعي. غرق الراعي ابن سرسارة في نهر النبي في حادث غامض. جاؤوا بجثته المنتفخة سكان قرية الشمس من الضفة الأخرى.

((ربما قتله أهالي الضفة الأخرى))

سألت المعلم.

((لا.. أهالي قرية الشمس لا يتدخلون في أمور البشر))

(لا يتدخلون في أمور البشر!!)

(حسناً.. لا أعني أنهم ليسوا من جنس البشر.. لكنهم لايتدخلون في أمور الحياة.. وهذا موضوع آخر.. أنا أحدثك عن الشجرة.. تأتيك القصة..)

كان حزن سرسارة على ولدها هادئاً، مثل موت عصفور في ساعة الغروب. دفنّا ولدها الوحيد في مقبرة القرية وعدنا لمشاغل حياتنا.

اهتمت سرسارة بخراف ولدها وراحت تعيش حياتها بعزلة مصونة بالوقار. ذات يوم خرجت سرسارة للرعي باتجاه المراعي الجنوبية التي تمتد بعدها الصحراء. حملت خيمتها وزوادةً من الطعام فوق حمارها، وانطلقت برفقة ٢٠ خروفاً وثلاثة كلاب. كانت رحلة الرعي هذه تستغرق في المعتاد ٣ أيام. لكن سرسارة لم ترجع إلى القرية إلا بعد ٥ أعوام. عثرت عليها قوة من الاستخبارات العسكرية في قلب الصحراء، وحيدة في خيمتها وبرفقتها ديك. وحين سألوها عما تفعله في مكان مقفر، لم تكن تعرف جواباً محدداً. كل ما قالته هو إن ولدها مات وإن لديها هذا الديك. وأضافت بأنها تتزود في بعض الأحيان بالماء والطعام من قبل البدو الرحل في الصحراء. قال لها ضابط الاستخبارات إنه سيأخذها إلى المستشفى للتأكد من صحتها أولاً. ردت سرسارة في الحال عليه بطلب:

(أريد أن أعوم في نهر النبي!!)

حملوها جماعة الاستخبارات إلى المدينة. اعتنوا بها، وتحروا عن جميع القرى على ضفاف نهر النبي إلى أن عثروا على قريتها التي كانت تسمى في ذلك الوقت على اسم النهر، قرية النبي.

فرح أهالي القرية بعودتها وانهمرت الدموع وعانقوها كطفلة مدللة. لكن العجوز لم تتعرف عليهم. كانت تعاملهم كأطياف من حولها. لم يكن سوى النهر هو الحقيقة بالنسبة لها. كانت تشير بيدها صوبه، ثم تعدو مثل طفلة فرحة وتلقي نفسها في النهر. تعوم وتغني أغاني قديمة رددها الأجداد قبل مئات السنين. تقبل أهالي القرية وضع سرسارة الجديد بكل طيبة ومحبة. تركوها تتعرى وتسبح في النهر وتمرح وتلعب، واهتموا بطعامها وملبسها. لكنهم لم يتمكنوا من إقناعها بالسكن في بيتها القديم، ولا في أي بيت آخر. فهي ما إن كانت تتعب من النهر حتى تعود بخطى بطيئة صوب زريبة الأبقار، وتنام هناك.

لم تنقضِ سوى أيام على عودة سرسارة حتى بدأت الأشجار بالظهور.

كانت تنبثق في كل مكان فجأة من تحت الأرض. أشجار غريبة لم تعرف كل القرى على امتداد النهر نوعاً مثلها. أشجار شيطانية مسمومة. كانت الشجرة تنبثق من تحت الأرض وتمتد وتكبر خلال دقائق حتى تصبح بارتفاع ٤٠ متراً. كانت تولد ميتة، من دون أوراق، وأغصانها الرفيعة متشابكة وكأنها شبكة عنكبوت. وكانت كل شجرة تميت الأرض من حولها على شكل حلقة بامتداد كيلو متر واحد. تتصحر التربة ولا يبقى هناك أي شكل من أشكال الحياة. كانت كارثة. لم تكن أرضنا المزروعة كبيرة إلى الحد الذي يمكنها تحمل هذا الموت المفاجئ في التربة. لم يستغرق الأمر طويلاً حتى اكتشفنا السر. كانت العجوز سرسارة هي السبب وراء ظهور أشجار الموت. تعاون الأهالي على قطع الاشجار وأخرجنا جذورها وأحرقناها. سجنا العجوز في زريبة الأبقار ورحنا نتداول في الأمر.

طلبنا من سرسارة أن تتوقف عن عملها الغامض هذا، فالقرية معرضة للهلاك. لكنها لم تكن تصغي! كانت العجوز كلما اختلت بنفسها وحدقت في الأرض حتى تنبثق شجرة. لم تدرك هي خطورة الأمر. كانت غارقة في عالمها. وكادت سرسارة أن تموت حين انهار السقف الطيني في الزريبة. انبثقت شجرة واتخذت علوها العدائي مخترقة السقف الطيني حيث سقطت الأعمدة الخشبية وماتت بقرة وعجل رضيع.

شعر أهالي القرية بالحزن على سرسارة. خبزن النساء أقراص خبز كبيرة ووضعن في وسط كل رغيف زهرة. الأولاد والبنات وزعوا الخبز على الأهالي الذين دعوا السماء أن تجنبهم الشرور بجاه الخبز والزهرة.

اقترح حكماء القرية رأياً. أن نربط عيني سرسارة بقطعة قماش. كانت تجربة فاشلة. التهبت عيون سرسارة وصارت مثل جمرتين متقدتين ولم تمنع قطعة القماش بزوغ الأشجار. بكتها النساء واشتد قلق الأولاد والفتيات على حال سرسارة. أقمنا الطقوس، واغتسلنا في النهر جماعة بعد منتصف الليل. أنشدنا كل مانحفظه من أشعار حول نهر النبي. أما الصغار قرروا ألا يعانقوا أو يقبلوا آباءهم حتى يحرر الآباء عيون سرسارة.

أرسلنا في طلب السيد (هدهد مرمور) والذي كان يهيم في البراري بحثاً عن ذاته. مرمور من أهالي القرية. هجرنا منذ سنوات بسبب صراعه مع الله. كان يظن أنه طير هدهد لكنه مسخ إلى إنسان أثناء نومه في عش غراب عن طريق الخطأ. لكن هدهد لم يتخذ القطيعة مع أهالي القرية طريقاً له. كان يلبي أي نداء مساعدة. ويتفقد بين الحين والآخر أحوال الأهالي . وهو رجل حكيم رغم هلوساته المتشعبة.

وصل السيد مرور فانشرحت صدور أهالي القرية. تمشى مرمور مع سرسارة في أرجاء القرية وراقبها. وما إن انبثقت أول شجرة، حتى صرح السيد مرمور إن سرسارة تتخيل الشجرة، فتنبثق. وأنه لا يمكن إيقافها!

اجتمع اهالي القرية للتشاور بعد تصريح مرمور. وشاركت النساء في الاجتماع، والأطفال أيضاً. استمرت النقاشات حتى الصباح. وحين طلعت أول خيوط الفجر كان أغلب أهالي القرية قد اتفقوا على الخلاص من سرسارة. لكن النساء رفضن حرق العجوز وهي حية. اقترح الأطفال إرسالها إلى مكان آخر مع الطيور المهاجرة. أما مرمور كان قد طلب من الأهالي أن يصبروا حتى يتمكن من فهم طريقة عمل مخيلتها. استمرت المشاروات ثلاثة أيام أخرى إلى أن توصلنا إلى القرار النهائي.

في تلك الليلة حملنا المشاعل بقلوب مكسورة. كانت القرية غارقة في الكآبة والخوف. أخذنا سرسارة إلى أقرب تل على القرية. تركناها وحيدة، ومنحناها الوقت الكافي للتحديق في الأرض. انبثقت شجرة سرسارة الأخيرة. لتخلد ذكراها فوق التل. قيدنا العجوز وحملناها في قارب إلى وسط النهر وسلمناها لمياه النبي.

كان الغروب قد غمر القرية بحمرة قانية. نصحني المعلم بقضاء ليلتي بسبب خطورة الطريق إلى المدينة أثناء الظلام. قال إن العصابات المسلحة تنتشر على طول الطريق العام. شكرت شمرين وأخبرته أنني مضطر للوصول إلى البيت. زوجتي تنتظرني ولدي ما أعمله في الصباح الباكر! ودعته

ومشيت حتى الطريق الترابي حيث ركنت السيارة. شيء واحد كان يدور في ذهني (زوجتي عارية أسفل دوش الحمام.. أدخل والتصق بجسدها) كنت متعباً، وأشعر بضيق كبير من قرية سرسارة هذه!

حاولت تشغيل السيارة دون جدوى. عدت أدراجي إلى غرفة المعلم لطلب المساعدة. لم أعثر عليه. لا أعلم في أي بيت يقطن! توجهت إلى أحد البيوت القريبة. طرقت الباب لكن أحداً لم يستجب. دفعت الباب ورحت أنادي على أهله. كان البيت خالياً. توجهت إلى بيت آخر. كان السكون من حولي يفتح فاه مثل حيوان غامض. أخيراً فتحت الباب بنت صغيرة بشعر منثور:

(عشطان أنت.. الثعالب ستجلب الليلة هدايا كثيرة)

قالت الفتاة وهي تمسك بيدي.

سألتها عن بيت المعلم وأخبرتها أنني بحاجة إلى مساعدة، فسيارتي لا تعمل.

اقتادتني من يدي حتى الزريبة القريبة. اقتربت الفتاة من بقرة رمادية وأخذت تحلبها في إناء صغير. ثم غادرت الزريبة من دون أن تكترث لي. لحقتها إلى الخارج. كانت القرية وكأنها خلت من أهلها. لم يكن هناك غير سمفونية الحشرات التي أخذت تتعالى تدريجياً، وكأنها تعلن عن هبوط الليل والشياطين. كانت الفتاة تتجه إلى الطريق الترابي حيث السيارة. تبعتها، محاولاً أن أتلمس طريقي في الظلام الذي خيم على قرية سرسارة كنهاية حياة.

قطفت الفتاة زهرة بيضاء من جانب الطريق الترابي وألقتها في إناء الحليب.

(إنها زهرة الريح وهي تجلب الحظ.. لا تأكلها.. امضغها ثم ضعها في مكان نسيت أن تشتاق اليه)

قالت الفتاة وهي تقدم لي الإناء.

شربت. ثم انتشلت الزهرة المبللة وأمسكتها بطرف إصبعي. فتحت الفتاة باب السيارة وهي تشير بيدها إلى المقعد ثم انصرفت مهرولة...

. هيه.. أيتها الفتاة.. ما اسمك!!

. سرسارة

صاحت من دون أن تلتفت.

تأكدت من أن المسدس في مكانه أسفل المقعد. اتصلت بزوجتي. أدرت المفتاح في محاولة أخرى وأنا أواصل حديثي في الهاتف فدار المحرك في الحال...

لمحت رجلاً يتسلق التل وفي يده فانوس. علقه على أحد أغصان سرسارة وجلس قربها. ربما هو المعلم! تذوقت أوراق الزهرة بطرف لساني، ثم مضغتها بحذر. كانت بطعم الحليب مع لسعة مرارة خفيفة. قدت السيارة مسرعاً، بين سنابل الحنطة وأنا اصغي لأغنية صوفية تتحدث عن الدوران في رحم من تعشق.

(مكان نسيت أن أشتاق أليه!!)

واصلت طريقي وفي ذهني دارت أماكن ومشاهد هزلية من حياتي.

# لا تقتلني، أرجوك... هذه شجرتي!

يفيق. وقبل أن تتلاشى غشاوة الكابوس، يحسم أمره. سيأخذه إلى الغابة وينهي الأمر. قبل خمسة عشر عاماً. وقبل أن يطلق النار عليه. سمع منه هذه الكلمات التي عاشت كل هذا الزمن وربما ستعيش إلى الأبد:

لا تقتلني أرجوك... هذه شجرتي!

تعد له كريمة الفطور. فوطة سوداء تغطي شعرها وعيون هادئة مثل ليلة شجرة في ربيع. هو (النمر) ساهياً يرتشف ببطئ من قدح الماء. يضع القدح بتمهل على الطاولة ويحدق فيه:

(الماء الآن في جوفي.. أنت خاوٍ أيها القدح الفارغ المنيوك!)

هكذا يحاور (النمر) كل ما حوله، وكأنه يعيش مسرحية. حوارات ترن في جوفه وحده. لا يسمعه الآخرون، وإلا ماكان النمر قد احتفظ بقيادة الباص. مصدر رزقه وطريقته في قيادة النسيان في ذهنه. مرات كثيرة يصفن (النمر) في شاشة التلفاز. ومن دون أن يكترث لما تعرضه، يقذفها بحوار:

(أنت قحبة.. تبيعين وتشترين بطيز أمك!)

تذهب كريمة وتجلس في الصالة. أزرار الريموت كونترول بين أصابعها، تقلب في القنوات، وكأنها تعزف لحناً عبثياً. تستقر على محطة عراقية. مذيعة تبتسم بمكياج صارخ تقدم أغنية عراقية من التراث موضوعها الأم ووفاؤها. تنزل دموع كريمة مع أول آه من المغنية الريفية الشهيرة. يمر بها (النمر) ومن دون أن يلتفت إليها يدخل غرفته. يفتح الدولاب ويرتدي بدلة سائق الباص. يسحب من الرف مسدسه الملفوف بقطعة قماش، يدسه

أسفل حزامه، ويغادر منصرفاً من دون حتى أن يلقي تحية السلام على زوجته كريمة التي عاشت برفقته أكثر من ٢٤ عاماً. منذ سنوات طويلة انقطع عن النظر في تلك العيون التي سحرته وخلعت روحه أيام الشباب. أيام كانت مخالب (النمر) تقطر دماً في معارك الماء الوحشية. وأيام كانت عيون كريمة، تشع، مثل حب وافر.

وردية (النمر) في العمل مسائية. لكنه يخرج مبكراً. عيناه صارمتان وكأنه في مهمة جادة. يدخل مقهى همنغواي. يطلب قهوة ويجلس إلى ماكنة القمار. يلعب ويربح. يخسر ويلعب. ثم يخسر ٤٠ يورو. يغادر المقهى بعد أن يرمق ماكنة القمار بنظره هازئة. يأخذ الثلج بالهطول بغزارة. يصفن (النمر) في الثلج:

(تعرف.. لو إنت واحد صحيح.. ما كنت خريت في الماعون الي تاكل منه)

حوار آخر من حورات ابن الحي الذي كانت حبوب الكبسلة والشرطة الوحشية هم من يديرانه. كان (النمر) يسميه حي الجبناء. وكان ذلك يعطيه طاقة وقسوة لارتكاب أي جريمة من دون أن يقع في مصيدة الأمن. لهذا أنعموا على الشاب (سعيد رضوان) بتاج النمر. لقبوه وزفوه إلى معركة الماء.

يتجه (النمر) إلى المكتبة العامة. يقضي وقته هناك حتى تحين ساعة العمل. يتحسر بغضب وهو يبحث عن رواية جريمة جديدة. يخاطب صف الكتب في الرف:

(اعرف أنت طلعت لي من تحت الأرض.. لكن آني أعرف شلون راح أداويك وأطيبك يا سمين يا معفن.. يا رواية خايسة)

يسحب رواية من الرف ويجلس ليقرأ.

شغفه بروايات الجريمة بدأ مع حياته في فنلندا. كان ذلك قبل أن

يدخل كورس قيادة الباص. كان (النمر) يشعر برغبة عارمة في الكتابة. لكنه لم يجرؤ، وظل يفكر في قرارة نفسه أنه من المستحيل تحويل صور الرعب التي في ذهنه إلى مجرد كلمات. هل يمكن تحويل إحساس القبض على سكين مغموسة بالدم إلى جملة. كان يشعر بالدوار وهو يجرب أن يحول صوره الذهنية إلى كلمات. في بعض الأحيان كان يقذف أسماء الروائيين على أغلفة الكتب بحوار من حواراته الداخلية:

(عباقرة خوات القحبة.. كتاب الدم والعنف في كل مكان.. في حي الجبناء في معارك الماء وفي الورق.. والله من انعل أبو الدنيا الي انتوا فيها)

يخرج (النمر) لتدخين سيجارة خارج المكتبة. يتأمل الثلج الذي يهطل من دون أن يحاوره. يعود إلى قاعة القراءة ويبحر مع رواية الجريمة ويغرق فيها. ينقضي الوقت سريعاً. يرتعش فجأة جلد (النمر) فينظر إلى ساعته. يعيد الرواية الجريمة إلى مكانها، ثم يستعير واحدة جديدة، وينصرف.

تتصلب أصابع (النمر) على مقود الباص وهو يدور في شوارع هلسنكي المثلجة. وكأن تيار الصور والذكريات، نمل يزحف في دمه. يهبط من الدماغ، وينتهي، زحاماً، مخنوقاً في أطراف أصابعه. ينظر إلى وجهه في المرآة. بشرة داكنة تشبه خبز الشعير، تغزوها لحية خفيفة بيضاء. من يصدق أن (النمر) صار هزيلاً وهرماً إلى هذا الحد!

يتوقف الباص في المحطة القريبة من دار الأوبرا. يلتفت إلى الدار ويرسل إليه تنهيدة:

(غنوا.. غنوا.. فريد الأطرش كان يغني ويقول الحياة حلوة بس نفهمها.. إلحس طيزي أحسن)

يبحث النمر عن فريسته السمينة في المرآة فوق رأسه. لا أثر له بين الركاب. لم يظهر الرجل السمين منذ أكثر من يومين. أكيد راح يبين في

المحطة الأخيرة مثل عادته! يفكر النمر في سره وهو يتلمس المسدس في حزامه. يغلق أبواب الباص ويظغط دواسة البنزين، شاقاً طريقه بين سيل الثلوج التي تواصل هطولها.

قبل أكثر من شهر، تكرر ظهور راكب بطريقة غريبة. رجل سمين بملامح عراقية. كان (النمر) يفشل في كل مرة في معرفة المحطة التي يستقل السمين منها الباص. يصعد الركاب من الباب الأمامي فحسب. لكن السمين لم يكن يفعل ذلك. واصل (النمر) مراقبة الأبواب الجانبية الأخرى للباص، فربما يستخدمها الرجل. لكن أعصاب سايق باص ٥٥ لم تعد تتحمل. فقد بدى السمين شبحاً! يظهر ويختفي فجأة من الباص، إلى أن حدثت المواجهة وكشف الرجل الغريب عن حقيقته!

من غير ظهور الرجل الغريب، تسير حياة (النمر) على نفس إيقاع الكآبة في صراعه مع عائلته ومع نفسه. منذ ثلاثة أعوام وابنه مصطفى الذي بلغ العشرين من عمره، لم يتصل به ولا بأمه. تمرد الولد سريعاً على معاملة (النمر) القاسية وهاهو يعيش في شقة صغيرة يبيع الماريهوانا ولديه صديقة روسية.

زوجته كريمة أم عيون الي تخبل! كما كان يسميها من حولها أيام زمان، كانت غارقة في عالمها. منفصلة روحياً وجسدياً عن زوجها. كان (النمر) يشعر أنها تعاقبه على سنوات المرارة التي عاشتها معه. تتحدث كريمة ساعات في السكايب مع إخوتها في بغداد. تشاركهم أفراحهم وأحزانهم. تبكي وتضحك عبر السكايب. تشتاق وتندب حظها. لم يتبق من صورة كريمة . مدرسة اللغة الإنكليزية الشابة والمرحة شيء. هي التي تقلب باستمرار صورها الفوتوغرافية مع جارتها العجوز (صديقتها الوحيدة)، صورها حين كانت شابة رشيقة بعيون تخبل! وحين ماتت العجوز الفنلندية ماتت صور كريمة، ولم تعد هناك عيون تتحسر وتتفرج معها على ظلال الزمن.

لم يبالِ (النمر) بعزلة كريمة. فهو الآخر قد انطوى على نفسه، وتفرغ

لباصه وحواراته وماكنة القمار. كانت سلوته الوحيدة المتبقية بعد العمل هي لقاء صديق مغربي سكير في أحد البارات. الصديق يحدثه طوال الوقت عن الفرق بين النساء الفنلنديات والفرنسيات، بين الإسبانيات والعربيات. ويعرف قصص كل مرتادي البار مطلقاً على كل واحد لقباً. وحين ينشغل المغربي بأموره. يجلس (النمر) أمام ماكنة القمار، ويلقي بنقوده.

بالنسبة للنمر كان جلياً منذ البداية، أن الرجل الغريب يتقصده في ظهوره واختفاءه في الباص. إلى أن تمكن من مواجهته! في ذلك اليوم كان الرجل السمين جالساً في المقاعد الأخيرة من الباص. توجه سائق الباص إليه وأخبره باللغة الفنلندية بأنها المحطة الأخيرة. ابتسم السمين وظل يحدق في ملامح سائق الباص.

سأله النمر باللهجة العراقية

(أنت عراقي؟!)

استل السمين من جيبه علكة. قال وهو يعلج

(لا تقتلنيي أرجوك.. هذه شجرتي..)

رنت الكلمات بقوة في ذهن (النمر) الذي تراجع خطوات ثم تقدم خطوة مرتبكة باتجاه الرجل. إنها نفس الكلمات التي سمعها قبل سنوات في بساتين الرمان.

(ماالذي تريده؟!)

سأل السائق.

(لا شيء) رد السمين.

تفرس سائق الباص جيداً في ملامح الرجل

(هل كنت تعمل مع عصابات المياه؟)

(لا، لكنك قتلتني..)

(قتلتك؟! لكنك لست ميتا!)

(ولماذا أنت متأكد أنني لست ميتاً...)

لم تعرف زوجته كريمة طبيعة عمله في تلك السنوات. وكانت حجته عند غيابه عن البيت بأنه يشتري ويبيع السيارات القديمة ولابد من سفره إلى المدن الأخرى. وحين بدأت الشرطة تتعقبه، هرب (النمر) مع العائلة إلى إيران ومن هناك إلى تركيا حيث تقدم بطلب لجوء إلى الأمم المتحدة بعد أن زوّر أوراقه الرسمية وادعى أنه معارض للنظام الديكتاتوري حينها. وصل إلى فنلندا أخيراً عن طريق الامم المتحدة.

في تلك الليلة، ليلة بساتين الرمان، قاد النمر سيارته برفقة قاتل آخر. كانت المهمة الوصول إلى منزل فخم في بساتين الرمان على أطراف بغداد. كان صاحب البيت قيادي مهم في عصابة كانت تسيطر على النهر الصغير الذي ينبع من دولة مجاورة. كانت العصابة تملك صهاريج خاصة لنقل المياه وبيعها في المناطق التي أكلها الجفاف. كانت الحكومة مشتتة وغارقة في المشاكل. متمردين، وجماعات دينية متطرفة، ثم أتى الجفاف والعطش ليربك إدراتها الفاسدة أصلا للبلاد. راحت الحكومة تقايض النفط مقابل المياه مع دول الجوار. أغلب العصابات التي كانت تتاجر بالأسلحة والعملة المزورة وسعت نشاطها وراحت تتاجر في المياه. بعضهم سيطر على الآبار وراح يفرض ضرائبه على المزارعين. مهمة (النمر) ورفيقه كانت واضحة: تصفية كل من في البيت الفخم داخل بساتين الرمان. كانت هناك منافسة شديدة بين العصابات للسيطرة على سوق المياه. تسلل النمر وزميله من سياج البستاين إلى البيت الفخم. اقتحموا البيت حيث كان خمسة رجال يجلسون إلى الطاولة يأكلون ويتحادثون وتقوم على خدمتهم فتاة شابة. لم يتمكن ولا شخص من النجاة ليلتها. قتل النمر وزميله الجميع. هرع النمر إلى غرفة المطبخ بينما أخذ رفيقه يبحث

عن بعض الوثائق في إحدى الغرف. وما إن دخل إلى المطبخ حتى شاهد النافذة مفتوحة. أدرك أن هناك شخصاً آخر كان في المطبخ وقد هرب. فقد لمح ظله يتجه إلى عمق البساتين. قتل النمر الفتاة في المطبخ، ونط من النافذة وأخذ يعدو خلف الشخص الهارب. كان النمر يلهث وهو يعدو بسرعة من دون أن يتمكن من رؤية الهارب لكنه كان يسمعه وهو يدوس على الأغصان الصغيرة اليابسة في مكان ما. لم يكن هناك الكثير من الوقت. وبعد مسافة من المطاردة، أزاح النمر أغصان شجرة، كان الظلام حالكاً، وكان رجلٌ راكعاً قرب شجرة رمان. لم يتبين النمر ملامح الرجل. صوب مسدسه وأطلق الرصاصات بعد أن سمعه يقول هذه شجرتي وتوسله بألا يقتله.

يقطع (النمر) تذكرة لرجل كحولي وهو يشيح بوجهه بسبب رائحة ملابس الرجل المتعفنة. يبحث عن السمين فلا يعثر عليه. فيقذف الطريق الذي أمامه بحوار:

(دروب.. دروب.. كل الدروب مشيناها والدنيا خلصانة.. وينك يا سمين.. وينك تفكر النمر يخاف؟!. نمر شاف كل الدروب يخاف من نعجة..)

لم يُعدّ خطة جيدة للتخلص من السمين. كل ما كان يعرفه أنه سيدفنه ويتخلص من شبح الماضي الخرائي إلى الابد. بالمقابل لم يكن عند السمين من طلب سوى ان يتجول (النمر) برفقته ليلاً في غابة. وليس مهماً أي غابة بالتحديد. حاول النمر أول الأمر تجاهل السمين وطلبه السخيف والمريب. لكن الرجل راح يظهر ويختفي في الباص بطريقته الغريبة إلى أن ثارت أعصاب (النمر) وطلب من صديقه المغربي أن يحصل له على مسدس.

قاد (النمر) الباص ذهاباً وإياباً. كان عليه أن يعمل حتى الثانية بعد منتصف الليل. غير أن السمين ظهر أخيراً في المحطة القريبة من المسبح العام، قبل منتصف الليل. واصل النمر مراقبة السمين، فقد يختفي هذا الشبح من جديد.

ينزل الركاب في المحطة الأخيرة، فيحاول السمين النزول هو الآخر من الباص. يغلق سائق الباص كل الأبواب وينطلق بسرعة ويغير مسار خط الباص، فيطلق السمين ضحكة قائلاً:

(مالذي تفعله يارجل؟)

سيكتشف غياب الباص عن مساره بوقت قصير. مجرد مجازفة غبية من نمر عجوز. ما زال هناك ساعة قبل أن يعود الباص إلى موقف الباصات. لكن سائق الباص في عالم آخر. غضبه يعميه ويشل تفكيره.

يصرخ السمين من مؤخرة الباص هازئاً،

(هل تخطف رجلاً ميتا! إن كنا سنذهب إلى الغابة فلا بأس..)

لا يرد النمرعليه. بل يقذف السمين بحوار داخلي

(ميت حي.. كله نفس الشي.. أنا ميت وحي.. وأنت حي وميت.. شنو قابل أنت فزاعة وأنا غراب.. عجيبة أمور الموتى والأحياء.. ما يتوبون ولا يتعلمون.. اليوم راح أعلمك!!)

يجتاز الباص حدود مدينة هلسنكي. يقترب الرجل ويجلس قريباً من سايق الباص. يحدثه مهلوساً عن مواضيع الماضي والمصادفة والمياه والحرب والسلام. يقول السمين إنه طوال السنوات الماضية لم يهتم فقط بالبحث عنه بل بتجميع أجزاء الأحداث التي انتهت بمقتله. يقول إنه تحدث مع آخرين عن موضوع موته كثيراً. يضع السمين سجارة في فمه من دون أن يشعلها. ثم يبعدها من بين شفتيه ويروح يحكي للنمر:

في تلك الليلة كنت أقود سيارتي الفولكس فاكن القديمة وأحمل معي شجرة رمان صغيرة. كانت أغصانها تخرج من النافذة، وكان نسيم الليل البارد ينعش جسدي. كانت ابنتي الوحيدة مصابة بسرطان الدم. لقد نقلناها من مستشفى إلى آخر. لكن حالتها كانت تسوء مع مرور الوقت.

لجأت إلى بركات رجال الدين، وحين يئست منهم ذهبت إلى العرافين والسحرة. أخبرتني عجوز يشيد الناس بقدراتها في تلبية الحوائج، بأن أزرع شجرة رمان في أحد البساتين التي ينمو فيها. على أن يكون ذلك ليلاً ومن دون علم أحد.

(أعط للحياة ثمرتها كي تعطيك ثمارها)

قالت العجوز.

سألت أنا (ولم الرمان؟!)

(كل واحد منا هو رمانة وقد يكون زهرة أو أي مخلوق آخر.. ومن يعرف كيف يصل بين نفسه وبين حيواته الأخرى تفتح له أبواب الطمأنينة والخير)

قالت العجوز.

(اعذريني.. لماذا مثلاً لا تكون شجرة برتقال أو عنب؟!)

(البرتقال يشفي الكوابيس والعنب يداوي الأسى أما الرمان فهو دم ابنتك النقي)

قالت العجوز وطلبت مني الانصراف.

كنت أود أن أطرح أسئلة أخرى عليها. لكن العرافة قالت إن كثرة الأسئلة تفسد سلطة الغموض. لم أفهم ما الذي تعنيه. وكنت أفكر بشرط زراعة الشجرة في الليل وبسرية. كنت يائساً. وكنت مستعداً لعمل أي شيء يمكنه أن يحسن من صحة زهرة عمري، ابنتي الوحيدة.

سافرت ليلاً. ركنت السيارة وحملت شجرة الرمان ومسحاة. قطعت الأسلاك الشائكة ثم توغلت في عمق البساتين. اخترت مكان مناسباً. أثناء الحفر سمعت أصوات إطلاق رصاص. لم أكترث كثيراً فالمزارعون يستخدمون البنادق في مناسبات مختلفة، وربما كان عرساً. كنت أركع قرب الشجرة

وأسوّي التراب، حين ظهرت أنت فجأة من بين الاشجار وصوبت مسدسك نحوي. كان الظلام حالكاً. لكنك أطلقت النار، وقتلتني... لماذا؟!

يجتاز الباص الطريق العام ويعطف نحو طريق ترابي صوب الغابة. لا يصدق (النمر) حكاية السمين. لقد طارد ليلتها رجلاً من عصابات المياه وقتله. صحيح أن اللعين توسل وقال إنها شجرته! لكنه لم يشاهد ملامحه في تلك الليلة. يتشتت ذهن النمر لكنه يستجمع شجاعته من جديد. هناك قرار وحيد في ذهنه. التخلص من شبح الماضي هذا الذي خرج من تحت الارض. يلزم النمر الصمت طوال الطريق. في داخل الغابة يوقف الباص، ويشهر مسدسه في وجه السمين ويقتاده خارج الباص. يحاول النمر أن يمس ظهر السمين بطرف المسدس، لكن يخشى فعل ذلك. هل سيطلق النار على شبح!!

يهزأ السمين منه قائلاً:

(لقد قتلتني من قبل يارجل.. مالذي تفعله...)

ثم يعدو الرجل السمين فجأة، يطلق (النمر) الرصاص لكن الأخير لا يسقط. يبدو السمين وكأنه شاب رياضي وهو يعدو. يطارده بين الأشجار، وفي ظلمة المكان تسري القشعريرة في جلد (النمر) ويشعر وكأنه مازال في تلك الليلة في بستان الرمان. وكأن السمين والباص والثلوج وابنه وفنلندا مجرد حلم يقظة في رأسه. وكأنه مازال هناك، نمراً قوياً، يفترس من دون تردد ضحايا معارك المياه الطاحنة.

يلمح النمر ظلاً في البستان من خلال النافذة المفتوحة. يطلق رصاصة في رأس الفتاة في المطبخ. ثم يقفز النمر من النافذة ويعدو خلف ظل الرجل الهارب. يسمع صوت أقدامه وهي تدوس الأغصان المتيبسة. ثم يلمح رجلاً آخر جالسا يسوي التراب حول شجرة رمان. يتجاوزه ويواصل مطاردة الرجل الهارب.

تنهتي الغابة وتنفتح على البحيرة المتجمدة. يواصل النمر مطاردته فوق جليد البحيرة. يتوقف أخيراً الرجل الهارب. يصل (النمر) إليه مصوباً مسدسه في وجهه. إنه ليس الرجل السمين! يرفع رجل عصابات المياه يده بسرعة مصوباً هو الآخر مسدسه بوجه النمر... ..

يندفع الرصاص...

ويسيل الدم فوق جليد البحيرة...

# ألف سكين وسكين

-١-

في الظهيرة ينتظر جعفر الحكم في رأس الزقاق وهو يعلق في رقبته منظاراً عسكرياً وفي حضنه كرة. يصل الأولاد تباعاً، يحيطون بجعفر وهم يمازحونه ويتحدثون بشغف عن مهاجم فريق القطاع ٣٢..جعفر يطمئنهم:

- احنا عدنا علاّوي السبع... إنه ميسي قطاع ٢٩.

يتناوب الأولاد على دفع كرسي جعفر المتحرك. أحدهم يقول: فريق قطاع ٣٢ ربما يجلبون معهم حكماً من عندهم.

لا يأبه جعفر لهذا الكلام. يخبرهم أنه يعرف كيف سيتصرف. يصلون إلى الساحة، يرمي جعفر الكرة. فيجري الأولاد خلفها.

جعفر في الخامسة والأربعين من عمره، لكنه مازال ابن البارحة. بروحه الرياضية ونشاطه وإرادته التي تدهش أصدقاءه وأعداءه القلة. كان أشهر من يلعب البليارد في قطاع ٢٩. وحين كان هارباً من الجيش، لم تتمكن قوات الانضباط العسكري من الإمساك به، كان مثل الجن، لكن إدمانه على صالات البليارد دمر حياته، حاصره أفراد الانضباط العسكري ذات مساء في صالة الخرسان للبليارد في الكرادة، كان ينافس أشهر لاعبي الكرادة. بعدها لم يعد جعفر من الجبهة في حرب الكويت إلا بعد أن بُترت ساقاه. و(حميد خوش ولْد. إبن عائلة وزلمة) هكذا يراهُ أهل القطاع! لكن بعضهم كان يعيب عليه شغفه بكرة القدم وملازمته لفتيان القطاع وهو في هذا السن. لم يكن جعفر يكترث كثيراً لمثل هذا الكلام، فعلى الصغار أن

يتعلموا أصول اللعبة، وهكذا كان ينظم لهم المباريات ويقوم بدور الحكم فيها. كان يذكر منتقديه بلاعب المنتخب الوطني الشهير، الذي خرج من ملاعب قطاع ٢٩ (ومن بين يديّ هاتين) وفي كل مرة يضيف قائلاً: وستخرج معجزة تنقذ البلاد برمتها من بين يديّ أيضاً!!

على طرف الساحة هناك حاويةُ نفايات كبيرة يخرج منها دخان أبيض يملأ الساحة برائحة عطنة. تخرج نساء بعباءات ومن دونها من البيوت المحيطة بالساحة وهن يحملن أكياس الزبالة. يراقبهن جعفر بمنظاره العسكري، بينما يركض الأولاد متصايحين وراء الكرة. كذلك يتابع جعفر بمنظاره لعب الأولاد. وبعدها يصل فريق قطاع ٣٢ إلى الساحة مع شاب ملتح يتفق جعفر معه على بأن يقوم بتحكيم الشوط الاول، والملتحي الشوط الثاني. وتبدأ المباراة. جعفر يدفع بقوة وسرعة عجلتي كرسيه وهو يروح ويجيء بعصبية وشغف، يصرخ بالأولاد، مشجعاً وموبخاً. وحين يبتعدون عنه يتابعهم بمنظاره. (كووووووووووووول) يصيح جعفر. يعترض حكم قطاع ٣٢ على جعفر بسبب تشجيعه لفريقه وعدم حياديته. يتجاهل جعفر هذا الاعتراض، و يراقب بمنظاره ركب الأولاد وسيقانهم حين يسقطون على الأرض. يخاف عليهم وكأنهم أبناؤه الحقيقيين. لمرات كان يسهو ويرى للحظات الأولاد وكأنهم أشباح تتقاتل! يخطف في ذاكرته دوي القذائف في الجبهة. لكنه يعود إلى المباراة وينفخ الصفارة في فمه بكل حماس وحب، معلنا ضربة جزاء. يتصبب عرقاً وهو يدفع بكل مالديه من قوة عجلتي كرسيه للحاق بالأولاد الذين يتراكضون خلف الكرة بسرعة الغزلان، وحين يصعب اللحاق بهم وتكون الكرة بعيدة في الطرف الثاني من الساحة، يستخدم جعفر الحكم منظاره لمتابعة المباراة...

يصفر جعفر (فاول...)

(بالعبّاس مو فاول جعفر...) يعترض أحد الأولاد.

(أكول فاول، لا تناقش زمال..)

(جعفر أنته كنت بعيد...)

(لك حيوان، هذا شنو، قابل آني أعمى...) يقول وهو يشير إلى منظاره.

تنتهي المباراة بالتعادل ٢. ٢ ويدفع الأولاد كرسي جعفرحتى المقهى. يودعهم ويوصيهم بالاستعداد لمباراة الأسبوع المقبل مع فريق قطاع ٥٢.

يلعب جعفر الدومينو في مقهى الشعب وهو يحلل للآخرين مستوى الأندية الإسبانية. تدوي ضحكته في المقهى وتحرك صورة الأمام الكبيرة المعلقة على الحائط. يقول صاحب المقهى إن الامريكان سيفتشون القطاع الليلة بحثاً عن الأسلحة...

(ماذا يريدون عصابات الكاوبوي هؤلاء.. بتروا ساقي في حرب الكويت... ماذا يريدون بعد... خراء عليهم.. يوماً ما ستذهب أمريكا إلى الخراء...). يقول جعفر بعصبية، ثم يغير موضوع الحديث إلى كرة القدم. يبدأ الشجار والضحك بينه وبين مشجعي (ريال مدريد). جعفر (برشلوني) متعصب و بضع مرات (ليفربولي).

أنتظره في باب المقهى. يخرج وهو يقهقه، ثم يسدد لكمة محبة قوية في معدتي. أدفع كرسيه ونعبر الشارع. يسألني عن أحوال أخته (زوجتي). أجيبه: بخير.

(هل ستخفي اليوم سكينا!) يسأل وهو يسعل، فهو مدخّن مزمن.

(لا... ربما سأتحدث قليلاً عن تفسير الأحلام)

أطرق الباب فتفتحه سعاد (أثنينهم هنا) تقول وهي تقبل رأس جعفر. تساعدني في إدخال كرسيه من الباب الضيق. أقرص مؤخرتها، فتضرب يدي بحذر لكي لاينتبه جعفر.

في الغرفة كنبة خشبية من دون فرش يجلس فوقها صالح القصاب. علاوي يجلس على الأرض متربعاً وبين أصابعه مسبحة خضراء. وهي نفس طريقة جلوسه حين يخفي سكيناً.

يقول جعفر وهو يصافح صالح:

. بابا علاوي قم واقعد على الكنبة.

يرد علاوي باعتزاز:

. عمري ماجلست فوق كرسي أو كنبة

- تقصد كل عمرك؟!

- طبعاً.

- كوّاد هو انت عمرك ١٥ سنة... اللي يسمعك يقول عمر ديناصور

يطلق جعفر ضحكته المدوية وهو يعدّل صوره أبيه على الجدار.

تختفي سعاد في المطبخ وأجلس أنا قرب القصاب. يعدل جعفر كرسيه كي يكون قبالتنا. تعود سعاد بصينية الشاي تجلس على السجادة قرب علاوي وتصب الشاي، وهي توزع ابتسامتها التي كلها مودة، على الجميع، ومرات تغمز إليّ. أرسل لها قبلة في الهواء. فيلتفت الي جعفر ويقول:

عيني طيور الحب... يعني عدنا شغل هسه... من يخلص الاجتماع، شمّر الها بوسات على راحتك.

القصاب ينطق بصوته النسائي العجيب:

هسه يا جعفر... اللي يسمعك يقول اجتماع حزب سري راح يغيّر الدنيا... هن كم سكين نخفيهن وسعاد ترجعهن وأبوك الله يرحمه.. وصار ١٠ سنين على هاي الحال.

يضحك علاوي ويقول:

اني كل عمري خفيت السكاكين.. بس اريد اخفي بعد وبعد وما ادري ليش...

يغير جعفر الكلام ويسأل علاوي هل ستأتي اليوم أم ابتسام. يجيب

بأنه متأكد هذه المرة! فهي أقسمت له بـ(العباس أبو فاضل) ثلاث مرات بأنها ستأتي و (...أكيد هي هسه بالطريق... أنت تعرف الأميركان الخره سادين نص الشوارع...)

-٢-

كنا كعائلة واحدة. لا نتقاسم مواهبنا في التعامل مع السكاكين فحسب، بل أيضاً مشاكلنا وأفراحنا وجهلنا في هذه الحياة. طوال سنوات، تقلبت أحوالنا، وعصف بنا اليأس بمختلف أشكاله، أصابتنا الخيبة أكثر من مرة بالسكاكين، وهناك الهموم الأخرى للحياة. وكدنا نفترق أكثر من مرة. لكننا كنا مشدودين بغرابة ومتعة مواهبنا عدا صالح القصاب، فالسكاكين كانت سلوتنا ومصدر حيرتنا المثيرة.

عشر سنوات مضت منذ أن صرنا فريقاً في لعبة السكاكين. علاوي انضم إلينا قبل ثلاث سنوات. واصلت أنا دراستي، دخلت كلية التربية. سعاد صارت في السادس العلمي. حلمها كلية الطب. صالح القصاب وسّع محله وطلق زوجته أم أولاده وتزوج شابة صغيرة سمعتها سيئة في الحي. عثر جعفر، لعلاوي على عمل في مصنع للأحذية النسائية. لم يكن جعفر يريد أن يبقى علاوي في السوق يلعب بالسكاكين. أما جعفر نفسه، فكما هو، كرة قدم وتحكيم ودومينو ومقهى وحرص دائم على ألا ينفرط عقد جماعتنا، ومواصته الجادة في البحث عن مواهب جديدة في الكرة و لعبة السكاكين أيضا. كان على أعتقاد بان مواهبنا مع السكاكين هي رسالة خفية، ستغير البلاد. أما كيف ولماذا ومتى، فكلها علامات استفهام لكن لاشأن له بها: - بحياتي آني حتى جريدة ما قاري، شلون أقدر أفهم سر السكاكين!

كنت والقصاب وعلاوي وجعفر نملك القدرة على إخفاء السكاكين، أما سعاد فهي الوحيدة التي تتمكن من إعادتها لكن تعجز عن إخفائها، ونحن لا نعرف كيف نعيد السكاكين. كان اختلاف سعاد يضاعف من

غموض مواهبنا التي لم تتقدم ولا خطوة واحدة إلى الأمام، رغم مرور كل تلك السنوات.

قبل سنتين أوكلت لي قراءة الكتب، من أجل العثور على مغزى السكاكين. وجاءتني، بسهولة، فكرة أن السكاكين هي مجرد مجاز واضح للرعب والقتل والوحشية في البلاد. لكن ماهي قيمتها!! وما الذي يمكن لمجاز أن يفعله في هذا العالم؟! لكنه ليس مجازاً، إنه ظاهرة واقعية غير مألوفة. لعبة خارقة لاقيمة لها. فهي محصورة بقوانينها المحدودة.

تزوجت سعاد قبل عام واحد. جعفر هو الذي رتب مع أبي هذا الزواج المبكر. كان ابن عم سعاد قد تقدم لجعفر للزواج من أخته. ولم يكن جعفر يريد أن تبتعد عنا سعاد وتذهب للعيش في القرية. وهو لم يكن غافلاً عن علاقة الحب الخجولة التي كانت بيننا. أبي اقتنع في الحال، خاصة أن جعفر قدم لهُ عرضاً مغرياً. قال إنه سيشتري بيتا صغيراً للزوجين. وافق أبي في الحال للتخفيف من حمولة سفينته. كنا تسعة إخوة وثلاث بنات ونعيش كلنا في غرفتين. وكان أبي يكافح من أجل ألا يغرق مركب العائلة. كان يعمل خبازاً وكانت أمي تحقن الإبر للمرضى في الحي من دون إجازة طبية، فهي امرأة أميّة، ويسمونها الناس لطيبتها: صيدلية الرحمة.

عندما كنت صبياً كنت لاعباً ضمن فريق جعفر الكروي. اكتشف موهبتي عن طريق الصدفة. راقبني وأنا أخفي سكيناً من يد أحد الأولاد. احتفى وراح يعانقني طوال الوقت. أخذني إلى بيتهم فرحاً، وعرّفني على سعاد الصبية الصغيرة المرحة والتي تشع من عيونها طاقة الحياة مثل زهرة قوية وجميلة. في اليوم التالي اصطحبني جعفر إلى دكان صالح القصاب وقدّمني له.

في تلك الأيام كنا نجتمع في بيت جعفر، غير أن أمه وإخوته الخمسة كانوا يزعجوننا. انتقلنا بعدها إلى بيت القصاب. كانت لديه غرفة في سطح البيت يربي فيها الطيور. كنا نضع السكاكين فوق مائدة خشبية مدوّرة

ونخفيها تباعاً، ثم تعيدها سعاد إلينا. كنا نتبادل الآراء ونحلل المسألة. لكن سرعان ما ينحرف الكلام عن السكاكين ويتحول إلى نكت وسوالف عن أحوال أهالي القطاع. بقينا نلتقي في غرفة الطيور حتى زواجي و شراء جعفر بيتاً صغيراً لنا. كان جعفر يمتلك ثروة لا بأس بها من تجارة قديمة يقولون إنه زاولها منذ الصغر. كان يتاجر بالمجلات الجنسية الممنوعة. لكن لا دليل على ذلك. فهو يبيعها في الأحياء الغنية.

أنا من اكتشف علاوي وضمه إلى الجماعة. كنت في السوق الشعبي لشراء سم للفئران. حين شاهدت مجموعة من الأولاد والكبار في إحدى زوايا السوق وهم يتحلقون في دائرة وكلهم فضول. كان علاوي يجلس متربعاً كعادته، وقربه مجموعة من السكاكين الصغيرة بمختلف الأشكال. لم يكن يخفي السكاكين من دون مقابل. بعضهم كان يعطيه علبة سجائر أو نقود تكفي لسندويش أو مايكفي لشراء عصير عنب أو رمّان. وما إن يضمن حقه، حتى يلقي بإحدى السكاكين على الأرض أمام أعين الجمهور، ثم يطلب منهم لمسها للتأكد من أنها سكين حقيقية. بعدها يطلب منهم توسيع الحلقة قليلاً كي يستطيع التنفس والتركيز. يحدق علاوي في السكين ٣٠ ثانية (كما نفعل جميعاً) وما إن تتلألأ الدموع في عينيه حتي تختفي السكين، فيصفق الجمهور بدهشة وإعجاب. بعدها ينتظر علاوي من الجمهور ثمن السكين التي ستختفي في المرة الثانية. كانت مشكلته الرئيسية هي اعتماده على سرقة السكاكين، وكان ذلك يوقعه في ورطات كثيرة. فقد كان بحاجة دائمة إلى الحصول على سكاكين جديدة بعد اختفاء القديمة.

كانت الدموع والثلاثون ثانية هي القاسم المشترك بيننا جميعاً في إخفاء وإعادة السكاكين. وكما قلت فلولا سعاد لاختفت السكاكين إلى الأبد وصرنا كلنا مثل علاوي، قبل أن ينضم إلينا- فقد كان مجرد حرامي سكاكين. وصالح القصاب هو الآخر كان يواجه المشكلة نفسها قبل أن يلتقي بجعفر وسعاد. كانت هذه اللعبة تغري القصاب: أن ينظر طويلاً

في دكانه إلى السكاكين لغاية اختفائها. وبعد اللعبة كان عليه أن يشتري سكاكينَ جديدة. علاوي كان يربح من موهبته في السوق بينما كان القصاب خاسراً، ولولا سعاد، كما قال، لمات جوعاً. كانت سعاد تعيد له، في كل يوم، السكاكين التي أخفاها. وكنا موقنين من أن القصاب بقي، لهذا السبب، معنا كل هذه السنوات.

بحثنا باستمرار عن عضو جديد للجماعة يملك قدرات كقدرات سعاد. نجتمع كل يوم خميس ونخفي مجموعة سكاكيننا، وسعاد تعيدها بنفس الطريقة: دموع وحفنة ثوان!

كنت أخفي السكاكين بسهولة. بدأت بإخفاء سكاكين أمي في المطبخ أيام الطفولة. في البدء كادت أمي تجن، لكن حين اكتشفت سري، أخذتني برفقة أبي إلى رجل دين لاستشارته في الأمر. قال لهم أبو عمامة بكل ثقة: (ابنكم مخاوي الجن!!). نصح أبي وأمي بالصلاة وغسل حوش البيت مرتين، واحدة فجراً وأخرى عند الغروب). وحين انشغلت بكرة القدم وتعرفت على جعفر توقفت عن إخفاء السكاكين في بيتنا وبيوت الأصدقاء والأقارب.

لم تكن لعبة السكاكين لغرض واحد. ربما القصاب صالح كان ينظر إلى موهبته كمرض، وسعاد بالنسبة له هي العلاج الوحيد! أنا وسعاد وجعفر وعلاوي كنا نملك أحاسيس وأفكار مختلفة إلى حد ما. جعفر يظنها رسالة سرية مقدسة، وكان يرى أن ما نفعله، رغم عبثه، مبعث مسرة كبيرة، خاصة أنه يعتبر نفسه الأب الروحي وزعيم الجماعة.

كان علاوي مدمناً على اللعبة، وكأنها خمرة تطرد من ذاكرته فقدانه المفجع لأبيه وأمه في سن مبكرة. كان والده سكيراً. تشاجر مع الجيران وقتل بمسدسه رجلاً. وقبل أن تصل الشرطة. جاء ابن وفي يده كلاشنكوف. كان أب علاوي يقف خلف باب البيت المغلق وفي يده مسدس، وكانت الأم تحاول منعه من الخروج. اقترب الشاب بعد أن رأى أباه غارقاً بالدماء، من

باب بيت أبو علاوي وأفرغ كل رصاص الكلاشنكوف في الباب. وسقط الباب ومعه الأب والأم.

كانت السكاكين شاغلي، وجزءاً من حياتي. كنت أشعر في بحثي عن غموض اللعبة، كمن يبحث في سلسلة جبال شاهقة عن زهرة وحيدة فريدة. وفي أحيان كثيرة أجدها مثل مغامرة في حكاية خرافية. وكم من مرة شعرت وكأنني أقوم برياضة روحية مع لعبة السكاكين. لم تكن الحقيقة تهمني، بقدر ماشدني جمال هذا الغموض! وقد يكون هذا ما دفعني إلى أن أكتب الشعر بعد أن تركت البحث عن مغزى السكاكين.

كانت الأميّة من العقبات التي كانت تضاعف جهلنا في فهم اللعبة أو حتى تطوير قدراتنا طيلة سنوات! كان القصاب وعلاوي وجعفر لا يقرأون ولا يكتبون. صحيح أن سعاد كانت متعلمة، لكنها كانت تمارس لعبة السكاكين بطريقة طفولية تلبي شغفها بهذه الحياة. تذكرني دائما قائلة: (ليش حبيبي تعقد الأمور... الحياة قصيرة... واحنا عايشين... خلي هاي السكاكين تصير لعبة نتسلى بيها وخلاص...). سعاد اقترحت مراراً أن نقوم بفتح مسرح صغير في الحي، لنمتع أهاليه بإخفاء وإعادة السكاكين، عسى أن نخفف عنهم كآبة الحرب والموت الدائم بسببها. لكن جعفر خاف من رجال الدين. فهم صاروا ميليسشيات. وجدته محقاً، فمن السهل عليهم تكفيرنا، وربما يتهموننا بتفكيك المجتمع بخرافات غربية مستوردة! لقد أصبحت خرافاتهم هي القانون. وتحول الله إلى سيف لقطع الرقاب والتكفير.

كان جهلي يتضاعف منذ ان بدأت رحلة البحث عن السكاكين عن طريق القراءة. ولم يمدني تعليمي بالكثير. كانت الكتب الدينية هي أول ما فتشت في بطونها عن أثر للعبة. ففي أغلب البيوت في قطاعنا والمجاورة كانت مطبوعات على رأسها القرآن واحاديث النبي وقصص الجنة والنار والأنبياء والكفار. صحيح أني عثرت على سكاكين كثيرة في تلك الكتب،

لكنها بدت لي مجرد أفكار كارتونية مثيرة للسخرية. لم تكن هناك سوى (سكاكين) الجهاد والغدر والتعذيب والترهيب. سيوف ودماء. رموز عن معارك صحراوية وأخرى مستقبلية. رايات نصر مختوم عليها اسم الله وسكاكين حرب.

خطوت بعدها، بحذر، إلى كتب الأدب. كان ذلك صدفة. جملة واحدة حركت مروحة الإثارة في داخلي. كنت في المقهى اقرأ في صحيفة محلية عن مجزرة قام بها المتحاربون طائفياً في قرية جنوب العاصمة. أحرقوا بيوت النائمين ليلاً. لم ينج من المحرقة سوى طفل صغير. كان لونه بنفسجياً وفي يده فأر بنفسجي. وجدوه نائماً وسط حقل للحنطة. وضاعت حكايته الغريبة وسط جعجعة طاحونة الدم اليومية في البلاد. في صفحة الجريدة الثقافية كان هناك لقاء مع شاعر عراقي مغترب كان يقول: (باب مغلق، هو تعريف الوجود!).

ذهبت في اليوم التالي إلى شارع المتنبي حيث تباع الكتب. لم أكن من رواد الشارع. شعرت بالرهبة من منظر أكداس الكتب هناك. في واجهة المكتبات وفي بسطات الباعة وفي العربات الخشبية. مئات العناوين والأغلفة. لم أتمكن من شراء كتاب واحد في ذلك اليوم. لم أكن أعرف ماذا أختار ومن أين ابدأ. كررت زياراتي إلى شارع المتنبي كل يوم جمعة. واستعدت ثقتي بالنفس تدريجياً. رحت أشتري كتب الشعر والروايات والقصص المحلية والمترجمة. ثم قررت جماعتنا المساهمة بمبلغ من المال لمساعدتي في شراء المزيد من الكتب، لعلي أعثر على مفتاح للغز السكاكين. وسرعان ما امتلأ البيت بالكتب. عملنا رفوفاً في الغرفة والمطبخ وفي الحمام أيضاً. بعد عام من القراءة النهمة، لم يعد يجذبني البحث عن السكاكين كواقع غير مألوف، بل متعة المعرفة والقراءة. كان سحر الكلمات مثل مطر يروي ظمأ الروح. وعندي صارت الحياة فكرة وحلماً: الفكرة كرة والحلم مضربي تنس. لم أفهم الكثير من كتب الفلسفة الكلاسيكية. لكن كتباً فكرية ممتعة ومثيرة عن الأحلام والكون والزمن بدأت تشدني. بدا لي

أني وقعت في ورطة مع جماعتنا. كانوا يمطروني بالأسئلة عما أقرأ وهل عثرت على أثر ما للغز السكاكين في كتبي! لم أعرف كيف أشرح لهم الأمر. كنت مثل حيوان صغير دخل سكن حيوان عملاق. لقد كنت أشعر بالمتعة والإثارة معاً. ربما تهت، فبوصلتي لم تكن سوى شغفي وخوفي من تنوع الحياة. كانت الفكرة تنقض أخرى ومفهوم يخفي آخر. نظرية تضاعف من غموض نظرية. إحساس يطعن إحساساً. كتاب يهزأ من كتاب. قصيدة تخفي قصيدة. سلم صاعد وآخر نازل. في أحيان كثيرة، بدت لي المعرفة وكأنها لعبة السكاكين. مجردعبث غامض أو لعبة ممتعة لا غير.

حاولت أن أوضح للجماعة أن البحث عن السكاكين من خلال المعرفة ليس أمراً سهلاً. إنها عملية معقدة، وربما أحتاج إلى سنوات طويلة أخرى كي أفهم بعض الأمور. كذلك لم أشأ أن أخيب ظن الجماعة، خاصة جعفر الذي كان متحمساً لموضوع الكتب. وهكذا رحت أحدثهم وأروي لهم قصصاً عن الخوارق الأخرى في هذا العالم، وعن طاقات الإنسان الخفية. وحاولت أن أبسط لهم معلوماتي المتواضعة عن علم الباراسايكلوجي والأحلام وألغاز الكون والطبيعة. وشعرت أننا نضيع سوية، أبعد فأبعد، في متاهات هذا العالم ومن دون شراع ولا بوصلة...

-٣-

تفتح سعاد الباب فتدخل امراة خمسينية بدينة متشحة بالسواد. تلقي التحية علينا بحياء. ينهض القصاب ليفسح لها المجال على الكنبة. يبقى واقفاً عند الباب. يطلب جعفر منه الجلوس، لكنه يقول إنه بخير!

تسأل سعاد إذا ما كانت السيدة، أم ابتسام، تشرب شيئاً.

(قهوة، شكراً)

يحاول جعفر تبديد شعورالمرأة بأنها محرجة، ويبدأ حديثاً عن ارتفاع أسعار الخضروات، ساخراً من استيراد الخضر من الدول المجاورة، ونحن

الذين نملك نهرين وأراض خصبة، ثم يقفز إلى موضوع ارتفاع أسعار الغاز والنفط، ونحن الذين نملك أكبر احتياطي خره أسود في العالم!

تقدم سعاد القهوة لأم ابتسام وتعود إلى مكانها. ترتشف القهوة، وتقول لعلاوي، بأنها على عجلة ولابد من أن تعود إلى أولادها. علاوي هو من عثر على أم أبتسام. يقول، أنه كان في جولة في الأزقة البغدادية القديمة وسط العاصمة، عندما انتبه إلى دكان صغير لا تباع فيه سوى السكاكين بمختلف أشكالها وأحجامها. دخل الدكان وراح يقلب السكاكين. اقتربت منه امرأة خمسينية وعرضت عليه المساعدة. قال لها إنه يبحث عن سكين صغيرة كان قد فقدها قبل سنوات، مقبضها على شكل سمكة قرش. رمقته المرأة بنظرة قلقة وقالت إنها تبيع السكاكين ودكانها غير مخصص للمفقودات! باغتها علاوي، كما يقول، بالسؤال عما إذا كانت تعرف إخفاء السكاكين. ردت عليه بأنها لا تفهم ما يعينه، وعرضت عليه سكين صغيرة تلتف أفعى على مقبضها. قلّبها علاوي،

وقال للمرأة إنه يعرف كيف يخفيها! جلس وسط الدكان، وبعد ٢٠ ثانية من التركيز ودمعتين اختفت السكين. ارتبكت المرأة وطلبت من علاوي الانصراف فوراً.

انصرف علاوي، وعاد في اليوم التالي. أخبرها أن كل ما يريده الحديث معها. لكنها لم ترد سماعه. لكن علاوي قال بخبث ووعيد، بإمكانه إخفاء كل سكاكين الدكان مرة واحدة.

قال لها علاوي وجلس على أرضية الدكان متربعاً. ثم سألها هل تريد مشاهدة عرضٍ آخر في إخفاء السكاكين. لم تجب، وبقيت تحملق فيه بريبة وهي تحمل السكين في يدها. راح علاوي يحدثها ومن دون مقدمات عن موهبة إخفاء السكاكين وإعادتها وعن جماعتنا. وكانت هذه إحدى حماقاته الكبيرة، فنحن كنا حذرين في الحديث عن الجماعة مع الآخرين. لكن علاوي كان قد قضى أوقاتاً طويلة في السوق ولا يأبه لاستعراض عضلاته أمام الآخرين!

قال علاوي: وجه المرأة أصبح بلون الطماطة وأنا أحدثها عن لعبة السكاكين. جلست فوق كرسي أمامي ووضعت السكين على فخذها. ثم أخذت تبكي بحرقة. بعدها نهضت فجأة وأغلقت باب الدكان. مسحت دموعها وحدثته عن حكاية دكان السكاكين، بعد أن أخذت منه وعداً بألا يفشي سرها!

كانت المرأة أماً لخمس بنات. قتل زوجها في تفجير لسيارة مفخخة شطرت جسم الزوج إلى نصفين أمام وزارة الداخلية. كان زوجها يريد التطوع للشرطة بعد أن يأس من العثورعلى عمل. كانت كارثة. لم تعرف المرأة كيف ستعيل بناتها. وكان حزنها على زوجها يمزق قلبها ويحرمها من النوم. فالكوابيس هاجمتها: شاهدت رجلاً ضخماً يذبح زوجها بسكين. وهذا الكابوس تكرر كثيراً. وفي كل مرة يذبح الزوج بسكين أخرى. قالت أم ابتسام لعلاوي، إنها لم تفهم ظهورالسكاكين في نومها!

بعد شهر واحد على تكرار تلك الكوابيس. عثرت أم أبتسام على سكين في حديقة المنزل الخلفية. كانت سكينا قديمة. أتصلت المرأة بأخيها، فقد أصابها الهلع من ظهور السكين في الحديقة. أخذ الرجل يسأل الجيران عن السكين لكنهم نفوا أن تكون لهم. أثارت السكين اهتمام الرجل. قال إنها تبدو كسكين أثرية. طمأنها وأخبرها أنه سيطلب من ابنه الكبير المبيت كم ليلة معها ومع بناتها. عاد الأخ بعد أسبوع بمبلغ جيد فقد باع السكين في سوق التحف. وقال لها إن السكين ثمينة فهي تعود إلى الفترة العثمانية. مازح الأخ أخته، قائلاً: ليتك تعثرين على سكاكين أخرى تجعلنا أثرياء حقاً!

وقالت أم أبتسام إن الكوابيس الليلية كفت عن الظهور. لكن في الحديقة ظهرت في المكان نفسه ست سكاكين لكنها سكاكين مطبخ. احتفظت أم أبتسام بالسكاكين ولم تخبر أخاها هذه المرة. ثم ظهور السكاكين، وفي الأخير أخبرت الأخ. لم يخبرا أحداً بسر السكاكين فهم انتظروا إلى متى ستبقى السكاكين تظهر في الحديقة. لكنها استمرت

بالظهور. ونادراً ما ظهرت سكين قديمة. ظهرت مرة سكين من العصر العباسي باعها الأخ في السوق السوداء للتحف، بمبلغ كبير، و قال لأخته إن الله يبعث لها برزقها ورزق بناتها، لأن زوجها مات مظلوماً. وطرح عليها فكرة فتح دكان لبيع السكاكين. استأجر الأخ دكاناً صغيراً قريباً من بيتها، وهكذا راحت أم أبتسام تبيع السكاكين...

راحت أم أبتسام تستحلف جعفر أن يحفظ سرها، فهو مصدر معيشتها. لم تضف شيئاً إلى ما روته لعلاوي الذي كان قد دعاها لحضور اجتماعنا. يقسم جعفر لها بالله وشرفه بأن يحفظ سرها، وعرض عليها الانضمام إلى جماعتنا. لكنها لم تستجب لذلك، فكل ما تريده أن نتركها لحالها. تعانق سعاد أم ابتسام، والدموع في أعينهن، وربما لغرابة أوجاع هذه الحياة!

ترافقها سعاد إلى الباب وتسلمها كيساً من الكعك قائلة: هدية بسيطة للبنات.

التزمنا جميعاً الصمت. أذن هناك سكاكين تظهر في أمكنة أخرى! ياله من لغز يعقد

المسألة!

ندخن كلنا، جعفر وصالح وعلاوي وأنا، كذلك سعاد التي تستل سيجارة من علبتي. رغم أنها لا تدخن عادة. ننتبه إلى سحابة الدخان الكثيفة في الغرفة وننفجر بالضحك سوية. ويأخذ جعفر بالسعال وكأنه عجوز هرم. نخرج سكاكيننا ونبدأ اللعب. أحدثهم عن أول كتاب في تفسير الأحلام. حيث ظهر في لوح من لكش السومرية. يقال إن ملك لكش غوديا كان يصلي في المعبد. ثم غط في النوم فجأة...

. أنا اروح لشغلي

يقول القصاب بصوته النسائي وينصرف.

بعد عام من تخرجي من كلية التربية اختفى جعفر الحكم فجأة. لم نترك مستشفىً أو مركز شرطة لم نبحث عنه فيه. اتصلنا بأناس لهم علاقات ببعض الجماعات المسلحة وبآخرين يعملون كعصابات للخطف. لكن بلا نتيجة، وكأن الأرض قد ابتلعته كما الألوف في هذه البلاد. سعاد حامل في شهرها الثاني، وأجلت دراستها في كلية الطب. أنا قلقتُ كثيراً عليها. فقد كانت محبطة وحزينة مثل طائر كسرت العاصفة جناحيه.

حزن أولاد قطاع ٢٩ على اختفاء جعفر. ونظموا بأنفسهم بطولة كروية لفرق القطاعات الأخرى، وسموها (بطولة جعفر الحكم) ووجهوا لي الدعوة للتحكيم في المباراة النهائية.

مرت الأيام ثقيلة وكئيبة. كما وجه البلاد البائس. وكأن الحروب والعنف صارت ماكنة للنسخ. ونحن أصبحنا مثل قناع واحد، مادته الوجع والعذاب. نطارد لقمة العيش بصدور أثقلها الحزن والمخاوف التي أفرزها المجهول والمعلوم. لم تعد لعبتنا جالبة المسرة. فالزمن بعثر مواهبنا الغامضة تلك. تهاوينا واحداً تلو الآخر، وكأننا دمى من زجاج مطروحة في هذا العالم. انفرط عقد جماعتنا. لم تعد هناك لقاءات ولا نقاشات. سحقت الكراهية أصابعنا الطفولية. سحقت عظامنا.

لم يكن من السهل على خريج حديث العهد مثلي الحصول على عمل. كانت الجماعات الدينية قد فتحت مدارسَ لحفظ القران. عرضوا علي العمل في مدراسهم إلى أن أحصل على وظيفة حكومية. انخرطت في تعليم الأولاد القرآن، وتركت أمر السكاكين. ومن وقت لآخر كتبت قصائدَ غاضبة وعدوانية لا معنى لها.

هجر علاوي العاصمة وراح يطوف في مدن الجنوب. يتجول في الأسواق عارضاً موهبته في إخفاء السكاكين مقابل أجور زهيدة، إلى أن وصلت إلينا آخر أخباره: سطا على مطعم، وقبضوا عليه وهو يسرق السكاكين من

المطبخ. دخل السجن وانقطعت أخباره. واصلت سعاد الطيبة والمحبة زيارة صالح القصاب كي تعيد له سكاكينه. وكان صالح يقدم لنا، أفضل مالديه من قطع اللحم مقابل إعادة سكاكينه.

ذات صباح شتوي كنت ألقن الأولاد في المدرسة سورة الحديد، حين دخل المدير وأخبرني أن شاباً غريباً يريد الكلام معي في أمر مهم!

كان شاباً طويلاً في أواسط العشرين، اسمه حسن، وقال إنه يريد أن يحدثني بخصوص جعفر الحكم. استأذنت من المدير وذهبت برفقة الشاب إلى المقهى القريب. طلبنا شايين، وأخبرني بما حدث لجعفر:

كانت القوات الأمنية قد حررت بعض المخطوفين من وكر للإرهابين. وكان، حسن، من ضمن المحررين. يقول إنه تعرف على جعفر في سجن الإرهابين في بيت في مزرعة على أطراف العاصمة. اختطفوا جعفر لأنه كان يتاجر بالمجلات السكسكية في أحد الأحياء الغنية التي يقطنها ضباط شرطة وجنود. يقول حسن، إنهم عذبوه بطريقة بشعة. قال الإرهابيون لجعفر (إن الله عاقبه ببتر ساقيه في الحرب، ولكنه . جعفر . لم يتب، بل واصل بيع صور الفسق والفجور) لذلك قررت الجماعة الإرهابية بتر ذراعي جعفر ليكون عبرة لكل فاسق كافر. جمع الأرهابيون كل المخطوفين لمشاهدة عملية بتر ذراعي جعفر. لم نكن نصدق ماحدث، يقول حسن، كانت السيوف تختفي من قبضات الإرهابين كلما اقتربوا من جعفر وكانت الدموع تسيح من عينيه. لم يبق سيف ولا سكين واحدة لدى الإرهابين. ارتعبوا من جعفر وقالوا إنه شيطان! جردوه من ملابسه أمام أعيننا وصلبوه على الجدار. دقوا المسامير في كفيه، وراح يتلوى من الألم، عارياً، من دون ساقين. قرروا أن يبتروا ذراعيه عن طريق الرصاص. وقف أمامه رجلان وأمطرا ذراعيه بزخات الرصاص. أصابت إحدى الرصاصات قلبه فمات فوراً. سحلوا الجثة إلى النهر. جمعوا أغصاناً يابسة وصبوا البنزين. أحرقوه وهم يكبّرون باسم الله.

رزقنا أنا وسعاد بولد جميل. أسميناه جعفر. واصلت عملي في المدرسة الدينية. لم أتمكن أبداً من إخبار سعاد بما حدث لأخيها جعفر. كتمت الرعب الذي سببه موته، وزدت من حبّي لسعاد. كانت أملي الوحيد في هذه الحياة. وقد عادت هي إلى كلية الطب. وأخذ الزمن يداوي الجروح ببطء وحذر.

جاءت إلينا أم ابتسام. كانت أمورها المادية قد تحسنت كثيراً. قالت إننا أناس طيبون وإنها لم تنسَنا. عرضت علينا أن تفتح لنا دكاناً كبيراً في الحي لبيع السكاكين.

كانت تجارتنا مربحة. رغم أنني كنت أخفي في بعض الأحيان سكيناً وأخرى من دون قصد. في الليل أبدأ بتقبيل أصابع قدمي سعاد ثم أزحف إلى فخذيها ثم إلى سرتها ثم إلى نهديها وإبطيها ورقبتها إلى أن أصل إلى اذنها فأهمس: حبيبتي أحتاج إلى مساعدة!

تقرصني من مؤخرتي بقوة ثم تركب فوق صدري، تخنقني بيديها وتقول (ها يا ملعون هم خفيت كم سكين... ما راح أرجعهن إلى أن تبوسني ألف بوسة وبوسة)

أقبل كل مسامات جسدها بشغف وتقديس وكأنها الحياة التي ستختفي بعد قليل.

عندما بلغ جعفر الخامسة من عمره. ظهرت موهبته: كان مثل أمه يعيد السكاكين المخفية!

# فهرس المحتويات

مجموعة متألقة ومقلقة.. ذات مرارة وغاضبة ولا تنسى، والقصص تبدو من قطعة لحم ممزق من تأريخ متقيح للبلاد.

**جريدة وول ستريت جورنال**

حسن بلاسم، الغريزي والعبثي والمليء بالرعب، هو كافكا عراقي مع لمسة إضافية من إدغار ألان بو، حيث لا يوفر قلمه كل من يرتكب الجرائم دون استثناء لأحد، سواء كان من الأمريكيين أو من العراقيين.

**براين كستنر في برنامج: هذا الأسبوع يجب أن تقرأ.**

قد يكون حسن بلاسم أكبر كاتب حي من كتّاب القصة في العالم العربي.

**جريدة ذي غارديان**

غورنيكا–Guernica مذهلة وعنيفة. إنه عمل شبيه بصوغ الأحجار الكريمة. قصص حسن بلاسم ليست محض توجس وإقلاق عميق فقط، بل لا مثيل لها، إنها ضرورية للتذكير بأن هناك الجانب الآخر الذي ينتظر أن يُعطى الصوت للكلفة التراجيدية لهذه الحرب وغيرها من الحروب التي لا ضرورة لها.

**الروائي: جويديب روي - باتاكاريا**

بلاسم يصنع من الرعب اليومي شيئاً من اللامألوف (gotic) وفق ذائقته ومن أجل فوق الواقع، قد يكون شبيها بغوغول.

**جريدة ذي إندبيندنيت**

القصة الأولى وحدها قذفتني. لا تضيع الفرصة.

**باربرا هوفيرت، جريدة ليبراري جورنال**

المتوسط



كاتب وسينمائي عراقي مقيم في فنلندا. كتب في السينما والمسرح والشعر والسرد. تُرجمت قصصه إلى لغات عديدة حيث صدرت مجموعته معرض الجثث بالإنكليزية عن دار بنغوين الشهيرة. رُشح ونال أكثر من جائزة عالمية هامة وفي عام ٢٠١٤ حصل على جائزة الإندبندنت المرموقة في إنكلترا وكان بذلك أول كاتب عربي يحصل على هذه الجائزة.

كتبت عن قصصه كبريات صحف ومجلات العالم، وشارك في العديد من المهرجانات الأدبية العالمية. وصفته صحيفة الغارديان بأنه (أفضل كاتب عربي على قيد الحياة).



بيد قوية وجريئة نقدم هنا للقارئ العربي كتاباً نزعم بأنه سيحفر عميقاً في وجدانه. إنه من تلك الكتب التي قد تغير حياتنا، فمؤلفها هو واحد من الشخصيات المتخيلة في القصص، لأنه لا يمكن إلا أن يكون كذلك، ومع أنه (المؤلف) يقسم لنا مراراً أن ما حدث كان حقيقاً ولكن يستحيل علينا التصديق.

كيف يمكنّا أن نصدق هذا القدر المهول من الوحشية والقسوة؛ انتبهوا فهنا لا نتكلم عن الجلد والضرب وتكسير العظام والتعذيب بالتنقيط أو فلت الكلاب على الأسرى، ولا سجن أبو غريب ولا سجون صدام حسين أو الأسد أو كيم جونغ أون، وربما حتى لا مستعمرة عقوبات كافكا، هنا نتكلم عن وجود آخر للقسوة والوحشية، عن مستوى قياسي يتمكن الإنسان من الوصول إليه بعد كل هذا الوجود الذي كنا نصدق فيه أن الإنسان في طريقه إلى الخير. هذا الكتاب وهذه القصص وثيقة أكيدة على أننا في طريقنا للحضيض، لانعدام كامل للخير.

أتذكر عنوان كتاب الأستاذ عامر بدر حسون (كتاب القسوة . محاولة لإفساد ما تبقى من حياتكم) لأجدني بعد ١٥ عاماً أمام كتاب حسن بلاسم هذا الذي لا يحاول وحسب، وإنما يفسد ما تبقى من حياتي.

ومع أني الناشر لكني أنصحكم بأن لا تشتروا هذا الكتاب. وإذا لم تسمعوا نصيحتي فكونوا حذرين في قراءته خشية أن يفسد ما تبقى من حياتكم.

**خالد سليمان الناصري**


ISBN 978-91-87373-71-8

المتوسط